الياس طنوس الحويك
اللبناني

تاريخ نابليون الأول

المجلد الأول

دار ومكتبة الهلال
بيروت







تاريخ
نابليون الأول



تاريخ

نابوليون الأول

وهو يبحث في مولد نابوليون وحداثته . وارتقائه في سلم المناصب العسكرية . وقبضه على ازمة الاحكام في فرنسا . وارتقائه الى عرش الامبراطورية التي انشأها . وذكر المعارك المشهورة التي خاض غمارها وبيان الاعمال الكبيرة والاصلاحات الخطيرة التي باشرها في بلاده . ثم ما كان من تغيير الدهر عليه . وانكساره امام اوربا المتألبة عليه . واستسلامه الى اعدائه الانكليز وارسالهم اياه الى جزيرة القديسة هيلانة في المحيط الاتلنطيكي حيث قضى بعد ستة اعوام . قضتها في غم مبرح وامراض ناهكة

وهذا الكتاب مقسوم الى ثلاثة اجزاء : الاول يتضمن ما كان من امر نابوليون من مولده الى آخر القنصلية والثاني يدور على عهد الامبراطورية . والثالث يبحث في ما وقع له بعد سقوطه عن العرش حتى وفاته . وما كان بعد ذلك من نقل رفاته .

لمؤلفه

الياس طنوس الحويك

المجلد الأول

منشورات

دار ومكتبة الهلال

ص ب ٥٠٠٣ - ١٥

كلمة المؤلف

لما كنت في المدرسة أحصل العلم قرأت التاريخ على أستاذ فاضل شهير مشهود له بسعة المعارف التاريخية . ولا يخفى أن التلميذ في المدرسة يعنى بنوع خاص بالفرع الذي يشعر بأن أستاذه بارع فيه وميال اليه وتكون غايته من ذلك في غالب الاحيان إرضاء أستاذه واستمالته اليه وكيف كان الامر فان ذلك لا يخلو من فائدة تعود عليه بالحظ الجليل من المغنم

وفي أثناء الدراسة وتهيئة مواد الامتحان النهائي درست درساً دقيقاً تاريخ الثورة الفرنسوية الكبرى وما أحدثته من التحول في الهيئة الاجتماعية الحديثة وأسهبت في التنقيب عن مساوئها وفوائدها ثم قرأت تاريخ نابوليون بونابرت وما أجراه في بلاده وما أداه لها من الخدم الخطيرة باستغلاله الثورة التي قلبت بلاده ظهراً لبطن ورأساً على عقب فأكبرت في نابوليون دهاءه العظيم الذي كان له أكبر نصير على إخماد نائرة الثورة وتشييد هيئة اجتماعية جديدة في بلاده على أنقاض الهيئة الاجتماعية القديمة البالية التي كانت قائمة على قواعد الاستبداد والطغيان تهدمها معاول المصلحين الذين لم يبق منزع في قوس صبرهم على تحمل الجور والعسف

وكانت مبادىء الثورة الفرنسوية بمثابة نواة زرعت في الافئدة فأفرخت ونمت وامتدت غصونها الى كل الجهات ويمكن القول بلا مجازفة وبغير محاذرة لومة لائم أن الثورة الفرنسوية تعد عملا من أعظم الاعمال المجيدة التي أتاها البشر وحسبها أن يكون من فوائدها اعلان حقوق الانسان بحيث صار كل فرد يعلم أنه مجبول من الطينة نفسها المجبول منها غيره . ولم يبق احترام الانسان مستنداً الى شرف أصله ونسله فحسب بل أصبحت قيمته مقيسة على قدر همته وصدقه على قدر مروءته وشجاعته على قدر أنفه وعفته على قدر غيرته كما قال الامام علي ابن أبي طالب . وكان لنابوليون الفضل الأكبر في تسييرها مفيدة فهذب منها ما كان متطرفاً وعدل ما كان متجاوزاً الحد تعديلا دقيقاً

بالسداد والعدالة . ومعلوم أن الصعوبة ليست في الهدم بل في التشييد على أنقاض المهدوم .

ونبسط للقراء مقابلة بسيطة تقرب الى أفهامهم تأثير مضار الثورات وفوائدها فقد أطلقت الثورة من عقالها في روسيا من نحو عشر سنوات ولكن كانت هذه الثورة متوقعة من عهد بعيد ولا يستغرب حدوث ذلك الذين يعرفون ما كانت عليه الدولة الروسية من الفساد والانحطاط من جراء استبداد الحكام الذين لم يكن من همهم إلا إرواء غليل مطامعهم من دم الشعب المسكين . وكل يدري أنه اذا طفح الكيل فاض على جوانبه ومتى استشرى ظلم الحكام وأحرج القوم أخرجهم عن حد التؤدة والاعتدال فحينئذ يشبه هذا الشعب بنهر يفيض ويجرف كل ما يعثر عليه في مجراه ، وترتكب في الثورات مظالم ومساوىء تفوق مظالم ومساوىء ولاة الامور المستبدين وكثيراً ما يغتنم العيارون الفرصة من الفوضى التي تصحب الثورة وتلازمها ويأتون أعمالا فظيعة تتبرأ منها الانسانية . وقلما حدثت ثورة ولم يكن موقدو نارها من ضحاياها . وتكون البلاد ميمونة الطالع إذا ظهر فيها داهية كنابوليون يتحدى المنهاج القويم المؤدي الى ترميم ما تداعى من صرح الهيئة الاجتماعية وتشييده على أساس متين وتزيينه بالنقوش والزخارف بحسب مقتضيات الحاجة والذوق والفن . والذي نراه حتى الآن هو أنه لم يظهر في روسيا فرد أوتي من المقدرة العقلية ما أوتيه نابوليون الكبير ليأسو كلوم هذه البلاد المنكوبة .

وفي تدبر تاريخ نابوليون اعتبارات قيمة تدل من الجهة الواحدة على عظمة الانسان ومن الجهة الاخرى على ضعفه ، وهو درس جليل لبني الطينة ومحرك لهمم البشر وباعث لهم على أن يبذلوا جهودهم بلا تبرم ولا ملالة للانتهاء الى الهدف الاسمى ، وهو أيضاً عبرة لاصحاب المقامات العالية لينسجوا على منواله في الاعمال المحمودة ويتجنبوا ما ارتكبه من الهفوات السياسية والاجتماعية مما جره الى السقوط وفقدان العرش ، والنفي الى جزيرة بعيدة صماء في المحيط الاطلسي فقضى فيها كمداً وحسرة .

ولما قرأت بامعان تاريخ هذا العاهل العظيم ووعيته في ذهني صحت عزيمتي على نقله الى اللغة العربية فكاشفت بعض كبار الحكومة في متصرفية لبنان في

ما عقدت عليه عروة العزم وكان ذلك في عهد الاستبداد التركي والتشديد في المراقبة على المطبوعات فقالوا لي أن فكرتك حسنة ولكن لا يسهل إبرازها الى العمل ففي تاريخ نابوليون فصل مهم عن الحملة الفرنسوية في مصر فالمراقبة تمنع نشر مثل هذه الاخبار واذا حذفت هذا الفصل من التاريخ كان تاريخك مبتوراً مشوهاً فاقتنعت بكلامهم وعدلت عما كنت قد صممت عليه

ولما حدث الانقلاب في تركيا وأعلن الدستور العثماني انطلقت الاقلام المكمومة والالسنة المعقولة فعدت الى فكرتي القديمة وكتبت ما أمكنني أن أكتبه من تاريخ نابوليون وابتدأت بنشر المجلد الاول منه ولكن ما عتمت الحرب العالمية الكبرى أن أعلنت فاضطررت الى الوقوف عن إتمام طبع المجلدين الثاني والثالث من التاريخ

ولما وضعت الحرب أوزارها وعادت مياه السكينة الى مجاريها جعلت أفكر في استئناف طبع ما بقي من التاريخ غير مطبوع ولكن طرأت حوادث سياسية في سورية ولبنان حالت دون ذلك • ولست في مقام بسط هذه الحوادث إلا أني أقول انها قذفت بي الى جزيرة كورسيكا موطن نابوليون الاصلي فقضيت فيها ثمانية أشهر منها ستة في مدينة اجاكسيو مسقط رأس هذا الرجل العظيم ، وحدث أنه في أثناء مقامي في اجاكسيو في سنة ١٩٢١ احتفل بانقضاء مئة سنة على وفاة الامبراطور العظيم فأرسل المارشال فرانشه دسبره من باريس ليرأس الحفلات في اجاكسيو وقد شهدت جميع هذه الحفلات وسيجيء وصفها في حينها •

وتسنى لي في المدة التي قضيتها في اجاكسيو ان أقف على حوادث كثيرة تتعلق بنابليون وأسرته فدونتها وأضفتها الى تاريخي ووفقت ايضا الى جمع عشرات من المؤلفات القيمة المكتوبة عن حياة عاهل فرنسا الاكبر فاستخلصت منها اشياء كثيرة خطيرة ضممتها الى التاريخ ايضا •

وبعد ذلك توجهت الى باريس حيث قضيت ست سنوات لم اكن في خلالها أفتأ عن التنقيب عما يهمني معرفته من تاريخ العاهل نابوليون فشاهدت آثاره الخالدة في فنتبلو والماليزون وفرسايل وباريس واطلعت على ما تمكنت من الاطلاع عليه مما كانت قد فاتتني معرفته •

وعزمت أيضاً بعد الفراغ من طبع تاريخ نابوليون الاول ونشر ما وفقت الى جمعه من آثاره العظيمة أن أنشر ما جمعته من أخبار ابن أخيه الامبراطور نابوليون الثالث وكل آت قريب •

هذا أهم ما ينطوي عليه التاريخ الذي باشرت طبعه بعد الاتكال عليه تعالى وإني أجعله هدية الى نصراء الادب مؤملا أنه سيروقهم وراجياً من أخلاقهم الكريمة أن يغضوا الطرف عما يعثرون فيه من الخطأ

مصر　　　　　　　　　　　　الياس طنوس الحويك



اسرة بونابرت

من اليمين من اعلى الى اسفل : الامبراطورة جوزفين . أوجين بوهارنه . اليزا بونابرت دوقة لوك . يوسف بونابرت والملكة هورتنس .

فى الوسط من اعلى الى اسفل : نابوليون بونابرت . لاتيسيا راموليتو . لوسيان بونابرت . جيروم بونابرت .

من اليسار من اعلى الى اسفل : الامبراطوه مارى لويز . دوق رشستادت . بولين بونابرت اميرة بورغيزى . لويس بونابرت وكارولين بونابرت ملكة نابولى .



تمهيد

لم يكن نابوليون الكبير في عنفوان مجده وشرح عظمته يلقى سوى المعجبين به ، والمتملقين له . ولم يسبق لاحد قبله أن يستثير بهاء دهائه ما استثاره بهاء دهاء نابوليون من الحماسة في الصدور ، أو أن تقتضي سلطة البشر ما اقتضته سلطة نابوليون من الخضوع والاحترام . فكأنه سحر العقول واسترق القلوب . فالشعب الذي شاهد خارجاً من بين ظهرانيه ذلك المعبود الذي تزاحم أصحاب المجد التالد وذوو المجد الطريف على احراق بخور العبودية عند قدميه ، أصاب قسطه من الاكرام المؤدى لارادته ونهيته المتجسمتين على شكل نخم

وقد خلف ذلك التبجيل العام آثاراً خالدة في صحيفة « المونيطور » سهل سنة ١٨١٤ استخراجها منه وتأليف مجموعة سميت « تأبين جماعة من رجال العلم لبونابرت ألقي في اللكسمبور وقصر البوربون والقصر الملكي والتويلري »

وقد كانت تلك المجموعة مرصعة بفقرات بليغة مأخوذة من طائفة من الخطب المطنبة بمجد ذلك البطل المشترع ، والمدبجة بأقلام فريق من رجال الحكومة والعلم والادب والقانون والدين

. . . .

انقضت أيام الحماسة والاعجاب ، وجافى النصر جيش الفرنسويين ، وسلك الجميع مسلك النصر ما عدا الشعب الذي لم يكن ينظر في نابوليون على العرش ونابوليون في المنفى سوى شخص واحد ، أي كلمة المساواة ورسول الثورة الفرنسوية الكبرى في أوربا

فهل عادت أيام الشؤم تلك التي ظل فيها الشعب وحده مقيما على الامانة في عبادة معبوده حين حلت على فرنسا ضربتان مؤلمتان ، غزوة جيوش الحلفاء من الخارج ، واعادة الملوك الى العرش في الداخل ؟ وهل قضي على الفرنسويين أن يظلوا يسمعون الناس يسمون شهيد القديسة هيلانة غول كورسيكا ، وبقايا جيوش الجمهورية والامبراطورية البسل لصوص اللوار ، بعد الفتنتين الكبيرتين اللتين تسعرت مواقدهما سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ ، والمهرجان الوطني المظيم

الذي أقيم سنة ١٨٤٠ ؟ وربما توهم بعضهم صحة ما جاء في بعض الخطب وبعض الكتابات في هذا الصدد ، ولكنني أكتفي في الرد عليهم ، وبيان بطلان مزاعمهم ، وتسفيه آرائهم بايراد السطور الآتية التي نسجت بردتها يراعة دي شاتوبريان الكاتب الفرنسوي المشهور بعد أن أسهب في اظهار استيائه من نابوليون :

« كلمات فارغة ! أنا شاعر أكثر مما يشعر غيري بخلوها من المعنى . . . . العالم لبونابرت ، فما لم يتسن للمخرب افتتاحه اختلسته شهرته . ففي حياته لم يتمكن من احراز العالم بجملته ، وبعد وفاته أصابه برمته . لقد رفعتم أصواتكم على غير جدوى ، ولكن ستمر الاجيال من دون أن تعيركم آذاناً سميعة . . . فالجندي والوطني والجمهوري والملكي والغني والفقير يتهافتون جميعهم على وضع تماثيل نابوليون وصوره في منازلهم وقصورهم وأكواخهم ، وقد اتفق المغلوبون مع الغالبين على اكرام هذا الداهية ، فلا يخطو المرء خطوة واحدة في ايطاليا الا ويشاهد آثاراً ناطقة بعظمته ، ولا يلج الانسان ألمانيا الا ويعثر فيها على ذكره ، فالجيل الذي ناوأه في هذه البلاد قد انطوى وأصبح أثراً بعد عين ، وقد جرت العادة ان العصور تقف أمام صورة رجل عظيم وتكملها بعمل طويل متعاقب ، الا أن الجنس البشري لم يشأ الانتظار هذه المرة ، ويرجح انه عجل في عمل هذه الصورة ، ولم يكن بد والحالة هذه من عرض القسم المنجز من صورة هذا المعبود على جميع الانظار

« ليس بونابرت عظيما بكلامه وخطبه وكتاباته ومحبته للحرية التي لم تكن فيه قط ولم يسع قط لتوطيد أركانها ، ولكنه عظيم لانشائه حكومة منظمة شديدة البأس ، ومجموعة قوانين يجرون بموجبها في بلدان عديدة ، ومحاكم عدلية ، ومدارس ، وادارة قوية ونشيطة ومتنورة لا يزال الفرنسويون حتى يومنا هذا سائرين عليها ، وهو عظيم لانه بعث ايطاليا من موت الخمول ، وأنارها بمشكاة الرقي والعمران ، وأدار شؤونها ادارة مقرونة بالحكمة والسداد ، وهو عظيم لانه جعل النظام في فرنسا ينشأ من العدم ، ورمم المذابح ، وجعل أنصار ثورة الشعب وأحلاف التهيج ، والعلماء المتعجرفين ، والادباء الفوضويين والجاحدين الفلتاريين ، وخطباء الشوارع ، والقتلة في السجون والسبل ، والثرثارين

الذين يعلون المنابر ويتصدرون المجالس والمنتديات ، يسلسون قيادهم له ويأتمرون بأوامره . . . وهو عظيم لانه ابن نفسه ولانه عرف وليس له من هاد سوى دهائه كيف يجعل ستة وثلاثين مليوناً من البشر يطيعونه في عصر لم تبق فيه العروش مكتنفة بالاوهام ، وهو عظيم لانه قهر جميع الملوك المعاكسين له ، وكسر جميع الجيوش على اختلاف تدريبها وبسالتها ، وجعل الشعوب المتسكعة في ظلمات الهمجية تعرف اسمه كما تعرفه الشعوب الراتعة في رياض المدنية ، وقد فاق جميع الفاتحين الذين تقدموه ، وملأ عشر سنوات أعمالاً عجيبة يتعذر على الانسان فهمها الآن »

فعلى هذه الصورة نرى هذا الخصم النبيل الاخلاق الشديد الحنق ، الذي بالغ في خدمة الاجانب الناقمين ، واندفع بكل قوته مع الفرنسويين الخائنين حين قلبت الاقدار ظهر المجن لنابوليون ، ينحني في نوبته أمام عظمة ذلك المعبود الذي بذل قصارى المجهود على غير جدوى لتحطيمه وتعفية رسومه ، وعلى هذه الصورة أيضاً يفحم دي شاتوبريان جميع المنتحلين الضعيفي الرأي الذين يعالجون معارضة الصوت العام المتنقل صداه من جيل الى جيل للاطناب بعظمة نابوليون بونابرت ومجده .

ولعمر الحق ان الكلام الذي فاه به دي شاتوبريان لتفنيد أقوال الذين يتعمدون الغض من كرامة نابوليون والخفض من مكانته كان له صدى بعيد عند مشاهير رجال القرن التاسع عشر كاللورد بيرون ولامنه ولامارتين وهنري هيني وبلزاق وفكتور هوغو ودي فينيه ولويس بلان وارمان كارل وبرانجه وتيارس القائل عن نابوليون انه أعظم جميع البشر ، وغيزو عدو نابوليون السياسي اللدود فانه قال : « ان عصر نابوليون كان محتاجاً اليه أكثر من سواه بين الرجال العظام أمثاله إذ أنه لم يتيسر لأحد من الناس الا لنابوليون أن يجعل النظام يخلف الفوضى بمثل تينك السرعة والعظمة . »

ولم نتوخ في الكتاب الذي أزمعنا نشره القول بأن دهاء هذا الرجل العظيم لم يساوره الخطأ ولم يتمرس به الضعف ، أو الزعم بأنه في وضعه الانظمة السياسية والاجتماعية لم يجنح عن المنهاج الواسع المرسوم سنة ١٧٨٩ للحرية والمساواة ، أو الدعوى بأنه لم يدع الضعف البشري يمد اليه يداً ويبلغ منه ، بل

تحرينا أن نكشف للملاء طراً هفوات هذا الجندي الباسل والمشترع الفاضل المتجسمة به الثورة ، كلما آنسنا منه ميلا لتعزيز أوهام طريقة الحكم القديمة والتساهل مع مريديها وأشياعها بمنحه اياهم امتيازات كان يحسن به أن يضن بها عليهم

واذا كان من حقوق المؤرخ وواجباته أن يبدي العنف في اصداره الاحكام على عظماء الارض ، فلابد من أن يكون هذا العنف محصوراً وراء حدود النزاهة وبدلا من أن يستهوي المؤرخ نكران الخير الذي يعثر عليه الى جانب الشر ويحقر الصفات والاعمال التي لا مشاحة في التنويه بعظمتها يجب عليه أن يتشبث باظهار ما يكون من التأثير الحسن لحظوظ الشعوب ومجرى التمدن العام

وقد عقدنا عروة العزم على استمداد الالهام من هذه العدالة المنزهة حين عمدنا الى كتابة تاريخ ذلك الداهية الذي ندعوه رجل الشعب والكلمة المجيدة للثورة الفرنسوية الكبرى . ونتحرى المحافظة على هذه الصفة ولا سيما في هذه الايام المظهرة القوة الوهمية المحاط بها اسم ذلك الرجل ، والمتمشية دائماً باقتراع الشعب المعتبر وحده صاحب الامر والنهي الخالد ، والذي تدبرها على الحكمة مع اتساع الحرية العامة وتحسين أحوال الهيئة الاجتماعية كأفضل واق لفرنسا الجديدة من تجدد الثورات وعودة انفجارات براكين الفوضى التي تؤدي ولا محالة حكمها الوقتي الى اعادة حكم الافراد مما يكون من ورائه مضرة لعظمة الامة والديموقراطية الاوربية

المقدمة

قال منتسكيو الفيلسوف . ان الاحوال لاتوجد الرجال ، وكلما كان العالم في حاجة ماسة لفكر جديد يحفظ كيان الانظمة والممالك النافدة حيويتها والمنقضية آجالها لئلا تزول مع الاعتقادات ، ظهر أشخاص ممتازون اعتبرهم الناس آلهة وأنبياء وحكماء بحسب الازمنة وبحسب عمق دهائهم أو سموه ، ونبغ مفكرون متفردون تتمخض عقولهم بفكرة الابداع في الانفراد وسر الالهام ، ونشأ فلاسفة يعلمون هذه الفكرة في المدارس ، ومنتصرون للشعب يذيعونها في الامكنة العامة ، ومشترعون يسمونها بسمة السياسة ، وفاتحون يوسعون دائرة امتدادها وسطوتها

أجل انه حتى هذا العصر لم يكن لاجل مشاركة عمل التمدن العام الذي كثيراً ما يكون غير ارادي سوى عظماء القواد المتقدمين والمتأخرين الذين نالوا لاجله تعجب معاصريهم والاجيال الآتية بعدهم فالتاريخ يذكر بشكل جلي عدد الانتصارات الباهرة ، وفن الغلبة في الحروب ، وعلم الانسحاب ، والفضل بتذليل المصاعب واقتحام المخاطر ، والبعثات العظيمة والفتوح الواسعة ، وكل ما يرفع العقل وينيل الشهرة الحربية ، وما يبهر أبصار الشعوب في حياة الاشخاص الذين يفضلون سواهم بتدمير الممالك أو انشائها بقوة السلاح . فكم من الكتاب لم يدركوا ما لتبسطهم في القتال من القيمة الفلسفية ، ولم يعتبروهم سوى مخربين عتاة ، فتظاهروا بالآراء الغريبة ولم يبالوا بأوهام المدرسيين ، وعالجوا قلب قواعد تماثيلهم وصفع سلطة المصور . فروسو الشاعر الخفيف الروح أبى أن يبحث في الاسكندر بالاشياء نفسها التي كان يستعظمها في اتيلا ، وبوالو المسرف في الاطناب بمدح لويس الرابع عشر لم يشأ أن يعتبر تلميذ ارسطو وقاهر دارا سوى معتوه أحرق آسيا ودمرها

وهذا الجحد المطلق مهما سما المصدر الناشىء عنه يعوزه وجود أسباب تعضده وانصاف يبرره . فاذا لم يكن المرء قد افتكر الافتكار الكافي بويلات الحروب عند تعظيمه مقام المتحاربين ، واذا لم يكن قد أعمل الروية عند اطنابه

ببسالة الجندي بانه عند الحدود بين الممالك لا تلقى سنبلة واحدة إلا وقد رواها دم الانسان ، كان ذلك الامر داعياً الى معاكسة تلك المبالغة في المدح بمبالغة أخرى أشد ظلماً وأقل عذراً كانكار شرعية الافتخار بالحرب ، وعدم اعتبار الشهرة الخالدة التي يصيبها الفاتحون إلا كاندهاش طويل يطرأ على البشرية ، وكنتيجة أبهة مشؤومة وسحر قديم العهد

واذا حملتهم الحقيقة على اذاعة أفضلية هذا العصر العقلية على العصور السالفة فنحن أنصار قابلية الكمال البشري الغير لا نتردد في أمر الاعتراف بذلك . ويكون من باب التبجح في العصر الحاضر أن يفترض أن العالم لم يدرك درجة التعقل الا في الامس ، وأن يوصف العصر الماضي بالخلل والغباوة في أحكامه التاريخية وآرائه العقلية المتفق عليها السواد الاعظم من الناس منذ زمان متوغل في القدم وحين تتفق الشعوب على تأدية التعظيم لذلك القائد الكبير في أثناء حياته ، وعلى تكريمه بدفنه في البنطيون بعد وفاته ، فلا يكون عملها هذا ناجماً عن استغواء المجد وحده لها على ذينك التعجب والاعتراف بالجميل اللذين لا يمحوهما كرور الايام . ويضاف الى تأثير هذا الحادث الجلل في القلوب الكريمة والعقول المتوقدة ما يكون لتأثير الاعمال الخطيرة والمساعي الكبيرة المضرمة نيران الحماسة في النفوس الحرة والمستميلة اليها في كل مكان حمية الشعب ، وانها بدلا من أن نفقد تلك الاعمال والمساعي وتحرم الهيئة الاجتماعية اياها ، ولا يجني منها ثمار المرافق سوى بعض الافراد أو بعض الجماعات ، تكون ذات فائدة جليلة للعائلة البشرية جمعاء وذات فخر لبعض أفرادها

وهب غزا الشعب المصري قارة آسيا وانتشرت طوارئه الظافرة في جزر البحر وبلاد الاغارقة فيكون تمدن طيبة وممف سائراً وراء سزوستريس وسكرو بس

وهب حطم سيف الاسكندر عرش قورش ودوخ الشرق حتى بلاد الهند فيكون تمدن أثينا قد ظفر باسم تلميذ ستاجيريت وبذراعه ، ويكون عصر بريكليس قد جر وراءه نور المدنية والرقي ، ويكون فن الاتيكا وشعرها وفلسفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاكاديميا والليسه قد أصبحا باعثاً على نشر أشعة العمران في البلدان السحيقة والممالك الفسيحة

وهب أخضع قيصر الروماني البرتيين والجرمانيين ورفع أعلامه من قمة القوقاس الى قمم جبال كاليدونيا ، وعبر من غاليا الى ايطاليا ، ومن رومية الى مقدونية ، ومن سهول فرسال الى سواحل افريقية ، ومن أنقاض قرطاجة الى ضفاف النيل والبحر الاسود ، واجتاز البوسفور والرين ، وقطع جبال طورس والالب والاطلس والبرنات ، فلا يصحبه في جميع هذه المغازي الجارية تحت ادارته وسطوته ومجده الخاص إلا اسم رومية ولغتها وأخلاقها ومدنيتها ، ويرافقه عصر اوغسطس الموشكة أبوابه أن تنفتح ، ويشرك الشعوب الوثنية بذلك المذهب السفسطي الذي لم يجعل الفؤول الرومانية تنظر الى ذاتها من دون أن تغرق في الضحك ، وأنشأ أعظم وحدة سياسية شاهدها العالم ، وهيأ بضمه عشرين مملكة الى مملكة واحدة وضع قواعد شركة كبيرة القتها الكنيسة المسيحية في النظام الروحي ، وكان همه الوحيد أن يضاهي الاسكندر وقد كان شديد الاعجاب به أو أن يتفوق عليه ، وكان راغباً في استئناف الاعمال التي باشرها أنصار الشعب المتصل اليه ارثهم ، ووسع بحد الحسام الدائرة النامية فيها على شكل سلمي طريقة من شأنها أن ترفع منزلة المتواضعين وتذلل تغطرس المتشامخين بأسلوب يفوق الاسلوب الذي تحداه الغراق وماريوس ومن نسج على منوالها

ويمكننا أن نقول من دون أن نحاذر في قولنا لومة لائم انه لم يسبق لاحد من الغزاة قبل نابوليون بونابرت أن يساعد كما ساعد هو بسلاحه المنصور على تعزيز أركان التعليم العالي وتوطيد دعائم الصناعة وتسيير أسباب العمران مما ترسخ الحروب قواعده بين الشعوب ، فان كان الاسكندر قد حمل معه عصر بريكليس ، وقيصر عصر اوغسطس ، وان كانا قد صحبا في انتصاراتهما دهاء هوميروس وصوفوكل وأفلاطون وارسطو وشيشرون ولوكريس وفرجيل وهوراس ، فنابوليون حمل ثلاثة قرون أولتها الفنون والعلوم والفلسفة شهرة ما وراءها من مزيد ولم تكن حاشيته تقل سناء وأبهة عن حاشية الذين تقدموه فقد اجتاز أوربا ومعه مونتانيه وديكارت وكورنايل وراسين ومولیار وفلتير

وروسو ، وتألفت في محل أركان حرب جيشه جامعة حقيقية نقالة يسود فيها روح القرن الثامن عشر ، زارت الشعوب المتقهقرة في الشمال والجنوب لتخضعها لتأثير الاخلاق والمبادىء السائدة في الامة التي أجمعت كلمة العالم المتمدن على الاعتراف بأنها مليكته . ولقد سعى نابوليون على غير جدوى لتعزيز ذكرى الارسطقراطية في فرنسا وأوهام الملكية بترميمه ترميما وقتياً صرح الانظمة المتداعي تحت أثقال القدمية ، ومع ذلك فهو المعتبر في مقدمة الديموقراطيين والمجددين مجد البلاد والناشرين روح الحرية في أوربا القديمة ، وهو ممثل وكلمة تلك الثورة الكبرى التي فتح أبوابها ميرابو بصواعق فصاحته ، ودافعت عنها لجنة الامن العام بصواعق الارهاب ، ووطد نابوليون دعائمها بصواعق الحرب ، أجل ان هذه الثورة أطلق عليها منذ نشأتها اسم الثورة الفرنسوية ، ولكنها ما عتمت أن استحقت أن يطلق عليها اسم الثورة العامة

هـذا هو الرجل العجيب الذي لا يرى فيه رجال البلاط وأهل المنتديات وبعض الافراد سوى مستبد ممقوت وغاز لا يروى غليل مطامعه ، وأما الصانع والحارث والجندي المعتبرة غريزتهم أصدق من المذهب العقلي الذي يجري عليه أولئك المنتقدون الضعفاء الفارغة أفواههم من المعنى فانهم كانوا ولا يزالون يرون فيه رجل الشعب ورسول العناية المحفوظ بقدرته تعالى ، ونتاج التحرر السياسي والاهلية والدهاء ، وتجسم روح المساواة الذي كان سائداً في الادارة والمعسكر ، والذي لا يزال يحرك الآن الهيئة الاجتماعية الاوربية برمتها

هذا هو الرجل الذي قال عنه أحد شعراء الفرنسيس ان ذكره سيظل حياً في الاكواخ ، وهذا هو الرجل الذي صحت عزيمتنا على نشر تاريخه وترجمة حياته غير مراعين في ذلك غير بيان الحقيقة وتعريف الملأ العربي بنابوليون الكبير داهية القرن التاسع عشر .



لاتيسيا رامولينو والدة نابوليون بونابرت

ولدت فى اجاكسيو ١٧٥٠ وتوفيت فى رومية ١٨٣٦



الفصل الاول

— فى أصل نابوليون وحداثته —

في الحين الذي كان فيه فلتير وروسو المثقلان بأعباء الشيخوخة التي كانت تجرهما الى حافة الحفر قد أوشكا أن يؤخذا من العصر الذي أفعماه بدويّ شهرتهما ، وفي العهد الذي كان فيه ميرابو المعد لان يحوّل الرأي العام من الفلسفة الى الفصاحة قد اشتهر بتطرفه وخلاعته في شبيبته ريثما ينتهي الى سن الكهولة ويصيب شهرة ومجد الخطيب والسياسي ، رأينا العناية التي تسير دائماً بالعالم في طرق لا يدرك غيرها أسرارها التي تؤدي الى غايات ترمي اليها ، هذه العناية التي دبرت بتعاقب الاجيال والممالك جميع الاشياء بطرق عجيبة لنجاح الافكار واشتداد الثورات الكبرة ، تهيء في زاوية خاملة في البحر المتوسط ولادة رجل قدر له أن يسخر دهاء الحروب لخدمه روح الاصلاح ، ويختم القرن الثامن عشر المتباهي بفتوحه العقلية وانتصاراته الخطابية بعجائب حربية تفوق كل ما أدهش العقول في العصور القديمة وفي القرون المتوسطة

ولد نابوليون بونابرت في مدينة اجاكسيو بجزيرة كورسيكا في ١٥ اغسطس سنة ١٧٦٩ ، واسم أبيه شارل بونابرت واسم أمه لاتيسيا رامولينو ولو كنا عائشين في عصر تسود فيه الاساطير وتتسلط فيه الخرافات على عقول البشر لما كانت هذه الحادثة مجردة من المؤوات الشعبية والعلامات السماوية ، وقد قال المسيو دي لاس كاس • « إن والدة نابوليون كانت قوية جسما وعقلا وقد اشتركت في الحرب ، ولما كانت حاملا به أرادت أن تمضي الى الكنيسة لسماع القداس وحضور حفلة العيد ، ولكنها اضطرت الى الاسراع في العودة الى البيت حين شعرت بابتداء المخاض ، ولم تقدر على الوصول الى غرفتها ، بل قضت عليها الحال بوضع الطفل على طنفسة قديمة العهد مرسومة عليها أشكال شتى من الصور والتزاويق الممثلة أبطال الحكاية أو الالياذة ، وكان ذلك الطفل نابوليون بعينه »

وكان بعض الكتبة يغتنمون الفرصة من بلوغ نابوليون منصب القنصلية ثم صعوده الى عرش الامبراطورية ليختلقوا له أصلا شريفاً متناسقاً في القدم زاعمين أن جدوده كانوا ملوكا في الاقاليم الشمالية ، إلا أن الجندي الذي كان يشعر بنار الثورة تتمشى في مفاصله ، والذي لم ينس قط أن أهليته وحدها رقته في عصر المساواة من مراتب الجيش السفلى الى المنصب الأسمى أوعز الى الصحف بأن شرفه لم يكن يستند إلا إلى الخدم التي أداها إلى وطنه وأن هذا الشرف لم يكن يتجاوز مونتينوت

وحصل والد نابوليون العلم في بيزة ورومية ، وكان رجلا واسع المعارف قوي العارضة أظهر في مواقف عديدة خطورة كثيراً من الحدة والحمية ولا سيما في مداولة فوق العادة تتعلق بخضوع جزيرة كورسيكا لفرنسا . وجاء شارل بونابرت فيما بعد إلى مرسيليا برأس الوفد المنفذ من مقاطعته في أثناء الخلاف الطارىء بين القائدين الفرنسويين في كورسيكا وهما المسيو دي ماربوف والمسيو دي نربون بيليز

إلا أن ما كان لهذا الاخير من النفوذ في البلاط لم يجده شيئاً في مقابل شهادة شارل بونابرت المبنية على الصدق ، فهذا الرجل آثر الدفاع عن دي ماربوف رغبة في النطق بما يؤيد جانب الحقيقة والعدالة

وهذا هو السبب الوحيد الذي من أجله بسط المسيو دي ماربوف من ذلك الحين لواء حمايته فوق أسرة بونابرت

ان نابوليون مع كونه ثاني أنجال شارل بونابرت كان معتبراً كبير الاسرة . فعمه لوسيان كبير الشمامسة وقد كان مرشداً لجميع ذويه وعضدا لهم منحه هذا اللقب وهو راقد على سرير الموت وأوصى يوسف بكر اخوته بألا ينسى ذلك الامر ، وهذا ما جعل نابوليون يقول فيما بعد . ان هذا العمل كان حرماناً حقيقياً من الميراث ، وهو يمثل مشهد يعقوب وعيسو

ولم يصب نابوليون ذلك التفوق الا بما أوتيه من الخلق الرحب والرزانة والتروي وسلامة الذوق وجودة العقل ، وقد بدت تباشير هذه الصفات فيه من نعومة أظفاره

وفي سنة ١٧٧٧ أدخل [illegible] مدرسة بريان ، فأكب بنوع خاص على دراسة

التاريخ والجغرافية والرياضيات ، فكان بيشغرو معلمه ودي بوريان رفيقه ، ونال خصل السبق على أقرانه في الرياضيات ، وأبدى ميلا شديداً الى الشؤون السياسية ، وولوعاً عظيما بتحرر وطنه واستقلاله ، وأحب باولي محبة تقرب من العبادة ، ودافع عنه دفاعاً قوياً مخالفاً في ذلك ميل والده

وقد أخطأ الذين زعموا ان نابوليون كان في أثناء الأيام التي قضاها في المدرسة ميالا الى الانفراد والصمت والابتعاد عن الأصدقاء والرفقاء ، ولا ينطبق أيضاً على الحقيقة ما قاله عنه دي بوريان حين فقد ثقته به انه كان فظاً في أحاديثه ينفر الناس منه ، ولكن هي رزانته السابقة أوانها وأخلاقه القاسية التي جعلت الناس يخطئون في نسبتهم اليه الابتعاد عن مخالطة معاشر البشر واتهامه بقساوة الفؤاد . على ان الحقيقة كانت خلاف ذلك فقد كان نابوليون لطيف المعاشرة رقيق القلب . ولم يطرأ التغيير على أخلاقه ، ولم يصبح مكفهر الجبين عبوساً إلا عند ادراكه سن البلوغ كما يستفاد من الكلام الذي فاه به عن نفسه في جزيرة القديسة هيلانة

وزعم بعضهم أيضا ان ميله الى الاعتزال عن الناس ورغبته في فن الحرب جعلاه يؤثر الانفراد في حديقته ويتحصن فيها هربا من ازعاج أرفاقه له ، الا أن واحداً من أولئك الرفاق كذب هذه الرواية بسرده قصة الحصن الذي بنوه من الثلج وحاصروه ودافعوا عنه بكرات الثلج

« في شتاء سنتي ١٧٨٣ و ١٧٨٤ كثر تساقط الثلج وتجمع في الطرق والشوارع وأفنية المنازل وعلى السطوح ، فألفى نابوليون في ذلك الامر معاكسة لرغائبه اذ لم يبق لديه حدائق صغيرة يبهجه منظرها ، ولم يكن ميسوراً له الانفراد فيها على ما كان يشتهي ويريد وكثيرا ما كان يضطر في أوقات التنزه الى مخالطة رفاقه وترويح النفس معهم في التنزه ذهاباً وإياباً في ردهة كبيرة . واقترح نابوليون عليهم ان يقصي عنهم الضجر والملالة باستعمال الرفوش لاختراق معابر في الثلج واقامة خنادق وأسوار واستحكامات ومرابط ، وقال لهم حين نفرغ من هذه الاعمال ننقسم الى فرق ونجري حركات الحصار ، ولما كنت أنا مخترع هذا النوع الجديد من اللعب فانا أدير حركات الهجوم . فكان لكلامه وقع حسن عند رفاقه الطلبة وعمدوا الى وضعه موضع العمل ، وبقيت هذه الحرب دائرة بينهم خمسة عشر يوماً ، ولم تقف أرحيتها

الا حين صارت الحصى والتراب تخالط الثلج المصنوعة منه الكرات المقذوفة . وكان من نتيجة هذه الحرب اصابة عدد كبير من المحاصرين والمحاصرين بجروح بالغة . واذكر اني كنت من جملة الطلبة الذين ذاقوا أكثر من غيرهم مرارة هذا القتال . »

ولا يخفى انه لو كان نابوليون كما يصفه بعضهم فظ الاخلاق شرس الطباع لما تمكن مع ما كان هو عليه من الميل الى الوحدة من اقناع الجميع باجراء ما اقترحه لو لم يكن له عندهم كلمة مسموعة

ولم يكن مكتفياً باحراز ميل ارفاقه اليه بل كان نائلا عطف أساتذته أنفسهم وكثيرون منهم يزعمون انهم تنبأوا عما سيصير اليه هذا الفتى في مستقبل حياته وقد أكد المسيو دي لغويل استاذه في التاريخ ، بعد صيرورة نابوليون امبراطوراً ، انهم يجدون في خزانة المدرسة سجلا فيه مذكرة أودعها ما كان يتوسمه في تلميذه من مخايل النباهة وعلائم الذكاء ، وقد قال فيها . « ان هذا الفتى الكورسيكي الاصل والطبع سيبلغ غاية بعيدة من المجد إذا أسعده الحظ »

وكان دومارون استاذه في علم الادب يشبه كتاباته بحجارة الصوان المحماة في البركان .

وسنة ١٧٨٥ جرت مباراة بين الطلبة نال فيها نابوليون خصل السبق على أقرانه فاختاره الشفاليه دي كراليو للمدرسة الحربية في باريس غير مبال بما كانوا يعترضون به عليه من أن هذا الطالب الحدث لم يكن بعد قد بلغ السن المطلوب ، وانه لم يكن نابغاً إلا في الرياضيات فأجابهم ، أنا عارف ما أنا فاعله ، وإن كنت أتجاوز في هذا الامر حدود القاعدة الموضوعة فليس ذلك مراعاة لخاطر أحد ، فأنا لا أعرف أسرة هذا الفتى ، ولم أفعل ما فعلته إلا مكافأة له على نباهته لاني ناظر فيه شرارة تظل كامنة إن لم يتيسر لها من يقتدحها

ولما دخل نابوليون المدرسة الجديدة تعجب وحزن في وقت واحد من طريقة التعليم الجاري العمل بموجبها فيها ، ولا سيما من معيشة التخنث والرخاوة التي يعيشها شبان يعدون لتحمل شظف معيشة الجندية الشاقة . وكانت هذه الملاحظات موضوع رسالة كتبها لرئيسه المسيو برتون ، وهذه خلاصتها .

«ان تلامذة الملك الذين هم أهل الفاقة لا يستطيعون أن يحرزوا الا حب

الجاه أو عواطف المجد الباطل بدلا من صفات القلب ، فانهم حين يعودون الى منازلهم يحتقرون علة وجودهم في هذه الدنيا ويأنفون من مساكنهم . فبدلا من تعيين خدام عديدين لخدمتهم يحسن ان يقدم لهم الطعام في كل يوم لونين ، وان يقتصد بما يمكن اقتصاده ان من جهة الخيل وان من جهة المعينين لخدمتها . أفلا يحسن ان يكونوا قادرين على قضاء حاجاتهم بأنفسهم من دون ان يقطعوا مجرى دروسهم؟ وحيث انهم ليسوا من اصحاب الغنى وحيث ان جميعهم معدون للخدمة العسكرية ، أفلا يكون هذا النوع من التهذيب والتربية أفضل من سواه ؟ ومتى تعودوا هذه المعيشة الاجبارية والعناية بشؤونهم الشخصية أصبحوا أشداء وصاروا قادرين على احتمال التقلبات الجوية ومشاق الحروب ، وصيروا الجنود الخاضعين لهم يحترمونهم احتراماً يقرب من العبادة ويطيعونهم طاعة عمياء »

وعلى هذه الصورة كان نابوليون وهو حدث يضع أساس نظام وضعه موضع الاجراء لما قبض بيده على أزمة السلطة العليا .

وكان في الامتحانات التي اطاقها في باريس يتفوق على أقرانه كما كان شأنه معهم في بريان . وسنة ١٧٨٧ خرج من المدرسة الحربية برتبة ملازم ثان وانتظم في سلك فرقة مدفعي لافير حامية غرينوبل



الفصل الثاني

— من دخول نابوليون بونابرت الجندية حتى حصار طولون —

وتعرف نابوليون بونابرت في أثنـاء اقامته بباريس وهو في الثامنة عشرة من عمره بالأب رينال ، فكان يجاذبه أطراف البحث في المسائل التاريخيـة والقضايا الشرعية والشؤون السياسية باسلوب يدل على تعمقه في هذه العلوم وطول باعه فيها .

ولما أرسل الى فالنسـه للانضمام الى احـدى فصائل فرقته تعرف بأكرم أسرها وأفضل بيوتاتها ولا سيما أسرة عقيلة دي كولومبيه ، وهي سيدة ممتازة بآدابها ولطف أخلاقها ، ومعروفة باحيائها روح الالفة الاجتماعية . وتعرف في منزلها بالمسيو دي منتاليفه الذي جعله وزيراً للداخلية عنـد صيرورته امبراطوراً . وكان لعقيلة كولومبيه ابنة متناهية في اللطف وآية في الجمال ، وهي أول من أضرمت في قلب نابوليون بونابرت نار الحب ، وشاطرته هذه العواطف الطاهرة . فكانا يجتمعان في الخلوة ويتشاكيان لوعة الغرام ، وقد قال نابوليون فيما بعد ان أكل الـكرز كان كل ما فعلاه في خلوتهما

ولم يفتكر أحـد من الفريقين بالاقتران بالآخر حتى أن ألام نفسها مع ما كانت تبديه من العطف نحو هذا الشاب الذي كانت تقدره حق قدره لم يخطر في بالها البتة أمر زواج ابنتها به خلافا لما زعمه بعضهم . وقد تنبأت هذه المرأة عن مستقبله المجيد ، وحين كانت على سرير الموت تجود بنفسها جـددت هذه النبوءة لمـا أطلق عقال الثورة الفرنسوية الـكبرى وانفتح فى وجه نابوليون طريق لاحب يستطيع المسير عليه للانتهاء الى الغاية التي كان يرمي اليها .

الا أن مشاغل بونابرت القلبية ونجاحه في الالفة الاجتماعية لم تحل دون استئنافه مزاولة دروسه الجدية والتعمق في البحث في قضايا الاقتصاد الاجتماعي المهمة . وقد زعم بعضهم أن بونابرت نال باسم مستعار الجائزة التي عينتها ندوة ليون العلميـة للمسألة التي اقترحها الأب رينال وهي : « ما هي المبادىء والقوانين التي يجب غرسها فى أفئدة البشر ليصيبوا أعلى درجة من السعادة ؟ »

فأجاب بونابرت على هذه المسألة جواب تلميذ من تلامذة القرن الثامن عشر ، على أن الحقيقة هي ان القائلين انه نال تلك الجائزة قد ضلوا عن جادة الصواب. وفضلا عن ذلك لم يكن يسر في المستقبل بتلك الذكرى . فذات يوم في عهد الامبراطورية قدم له المسيو دي تاليران دفتراً منسوخاً فيه جوابه الآنف الذكر فبادر في الحال الى تمزيقه وطرحه في النار

ولما أصلت سيف الفتنة الفرنسوية الكبرى كبر لها جميع الشبان المتنورين، ولم تكن هذه الفتنة سوى ابراز المبادىء الفلسفية المشربة منها أدمغة دهاة ذلك العصر الى حيز العمل ووضعها موضع الاجراء . إلا أن النبلاء المفاخرين بامتيازاتهم والمتباهين بألقابهم ، وهم كثيرون في الجيش ، لم يكونوا يرون ذلك الرأي ، على أن ذلك الروح أي روح الافتخار بالعظم الرميم لم يسعه أن يحرم ذلك العصر دهاء شاب كان باولي قد أصاب في وصفه بقوله عنه . « انه مجبول من طينة الأقدمين وانه من أمثال الرجال الذين يصفهم بلوطرخوس »

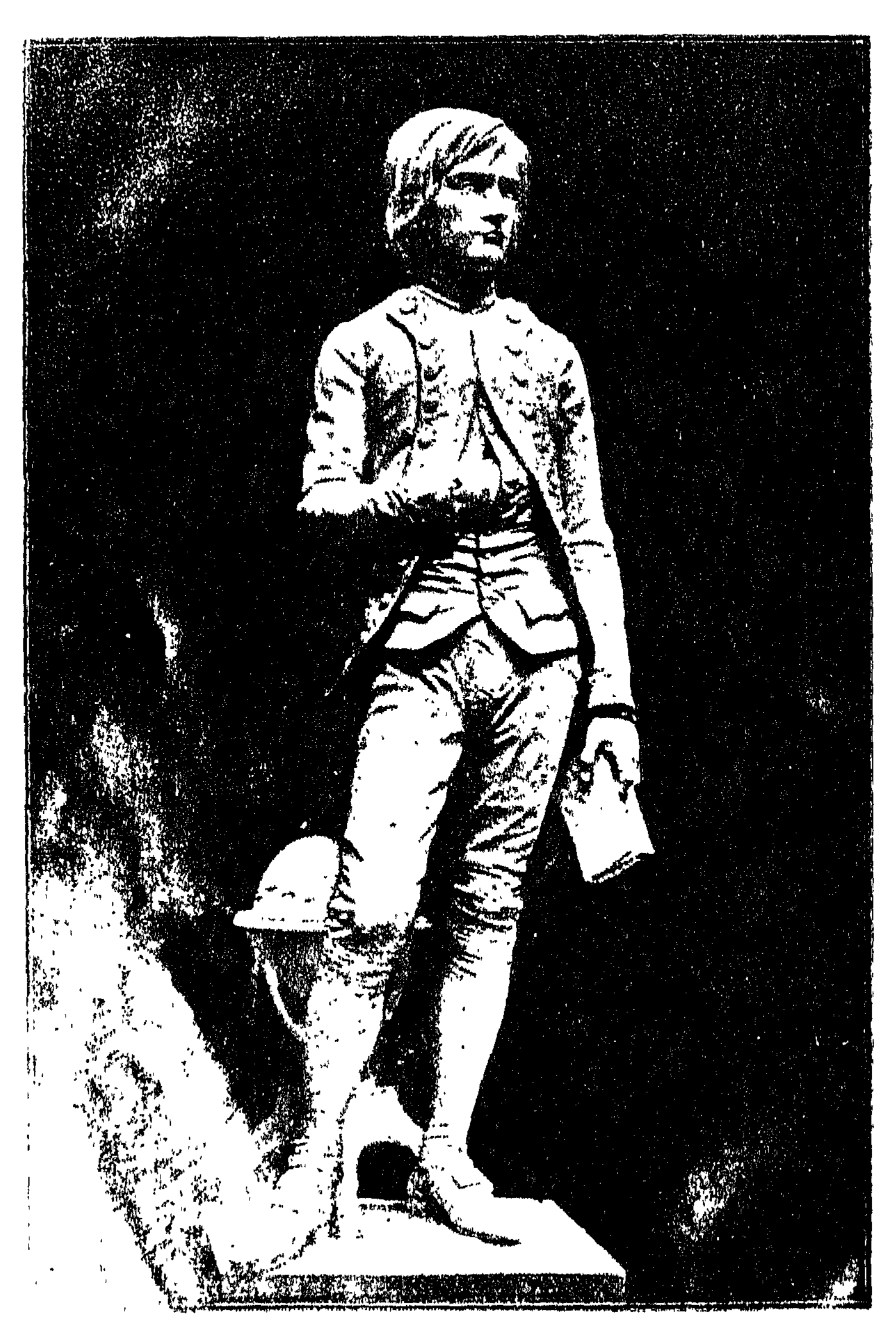
ولم يجر بونابرت مجرى السواد الاعظم من رفقائه الذين شخصوا الى البلدان الاجنبية وأقاموا النكير على مريدي اصلاح شؤون وطنهم . على أن اعتبار حالة ثروته ومجده ساعد نفوذ آرائه ومبادئه ، وقد قال لرئيسه عند انضمامه الى حزب الاصلاح « ان الفتنة من أفضل الذرائع التي يتذرع بها الجنود الحاصلون على الحزم والاقدام » ولكن هل يكون هـذا الكلام داعياً لنا لأن نجرد من كل غاية سياسية نبيلة محبته الشديدة لوطنه التي أظهرها قبل انفجار بركان الفتنة في أحاديثه وكتاباته ؟ ومن شاء التسلط على عواطف البشر والعمل على تحسين حظوظ الناس وجب عليه الا يباشر الشؤون العامة كما يباشرها أصحاب المذهب الفكري المجرد أو النساك المتصدون بأهداب الزهد ونكران الذات . ولا يستطيع الانسان اتيان المشاريع الخطيرة وتحريك عوامل الهيئة الاجتماعية بتسببه بأسباب التجرد المطلق المبني على قواعـد العجز . وقد أسعد الحظ فرنسا ان وجـد فيها بين المشترعين والجنود المخلصين لاصلاح سنة ١٧٨٩ نفوس طامحة الى المجد الذي لا يقتنى الا بالخدم الجليلة ، وقلوب طامعة بالسلطة التي تسهل للدهاء تحقيق المقاصد . وقد أسعد فرنسا الحظ أيضا بأن يكون بين أولئك الطامعين الذين لا تكون بدونهم مأساة الثورة المجردة عن الحركة والمعراة من الحياة سوى

اجتماع من اجتماعات الكويكرس أو احتفال من احتفالات الجنسينيست جندي مشترع قادر على نيل الشهرة والسلطة الساميتين باجرائه أعمالا كبيرة تعود بالحظ الجليل من المغنم على المدنية الاوربية .

ولما انتصر بونابرت للحزب الشعبي كان يجري بموجب اعتقاده وبحسب ماكان يتوسمه في المستقبل من يمن طالعه . الا أن محبته الشديدة لوطنه لم تكن تحول دون نفوره الغريزي من الفوضى ، فكان يشهد والحنق يغلي في صدره الاجتماعات المقامة لمناوأة السلطة التي كان مقدراً له أن يرثها يوماً من الايام . وقد حدث في ٢٠ يونيو سنة ١٧٩٢ أنه كان في قصر التويلري على السطح المشرف على النهر ، فابصر رجلاً من سوقة الناس يدنو من الملك لويس السادس عشر ويضع على رأسه القبعة الحمراء ، فاحتدمت في بونابرت نار الحمية وصاح بصوت عال . وكيف أباحوا لهذا الوغد دخول هذا المكان ، أما كان يجب أن تطلق المدافع على أربع مئة أو خمس مئة من نظرائه فنكفى شر الباقين ؟

وشهد بونابرت حوادث اليوم العاشر من شهر أوغسطس ، وقد كان يتوقع حدوثها كنتيجة مقررة لحوادث اليوم العشرين من شهر يونيو الآنف الذكر ، ومع أنه كان من أحلاف الثورة ظل ميالا الى المحافظة على النظام واحترام السلطة ، ففصل عن عاصمة فرنسا ميمما جزيرة كورسيكا ، فوجد باولي يعيث فيها فساداً ويمخرق مدفوعاً الى ذلك بدسائس بريطانيا فاستاء من ذلك الامر كل الاستياء ولم يحجم من ذلك الحين عن السعي لتحطيم المعبود الذي كان يحترمه كل الاحترام . فتولى زعامة احدى الفرق في الحرس الوطني وأصلى ذلك الشيخ الذي كان يعلن له الاكرام حرباً عواناً

ولما فاز الحزب البريطاني وختم فوزه بحريق مدينة أجاكسيو اضطرت أسرة بونابرت بعد اتهام النار لبيتها أن تهاجر الى فرنسا ، واتخذت مدينة مرسيليا محلاً لاقامتها . ولم يطل بونابرت مكثه في هذه المدينة بل أسرع في العودة الى باريس حيث كانت الحوادث تجري تباعاً بعنف وسرعة ، وكانت كل يوم بل كل ساعة تبدو علائم لمعضلة جديدة . وجاهرت الانحاء الجنوبية بالتحالف وأسلم الخونة مدينة طولون للبريطانيين . ففوض الى القائد كارتو



نابوليون بونابرت فى مدرسة بريان

ولد فى اجاكسيو ١٧٦٩ وتوفى فى جزيرة القديسه هيلانه ١٨٢١


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن ينطلق الى البروفانس ويعيدها الى الحكومة الجمهورية منزلا أشد العقاب بالعصاة المارقين

ولما دخل هذا القائد مدينة مرسيليا يجر ذلال التيه والخيلاء أمر بمحاصرة مدينة طولون ، فمضى اليها بونابرت بصفة قائد المدفعيين . ونشر في أثناء ذلك الحين كتيباً تحت عنوان «عشاء بوقير» لم يذكر شيئاً عنه في «مفكرة القديسة هيلانة» ولكن المسيو دي بوريان يقول أنه تلقاه من بونابرت عينه عند رجوعه من طولون . ويحتوي هذا الكتيب زبدة آرائه التي كان يجاهر بها كوطني شديد الصريمة وجندي باسل ، ويتضمن أيضا حكمه على الاضطرابات والقلاقل الجارية في الجهات الجنوبية ، وعلى مسألة التحالف المار ذكره ، مما يدل على ما كان عليه هذا الضابط الشاب من قوة العارضة وسلامة الذوق وهما الخلتان اللتان ظهرتا في بونابرت بمظهر جلي عند ارتقائه الى عرش الامبراطورية



الفصل الثالث

حصار طولون وفتحها ـ ابتداء حروب ايطاليا ـ العزل

ولما وصل بونابرت الى أمام اسوار طولون وجد جيشاً مؤلفاً من المتطوعين الاشداء ولكنه لم يجد قائداً هاماً يليق بأن ينهض بإعباء الزعامة عليهم ، فان القائد كارتو المتظاهر بالابهة والعظمة اللتين لاتنطبقان على مبادىء الجمهورية كان على غاية الجهل ، وقد كان فتح طولون يفوق طاقته ، بيد أنه لم يكن يفقه هذا الامر . وكان بعكس ذلك يدعي انه ذوفكر سام ومقدرة عظيمة على اجراء ماتقتضيه الاحوال وهذه الدعوى جعلته يدبر خطة حربية قضت بان دعته السلطة الى باريس ودونكم خلاصة هذه الخطة :

« مواظبة قائد المدفعية على اطلاق المدافع على مدينة طولون ثلاثة أيام ، والهجوم بعد ذلك على المدينة من ثلاث جهات وفتحها »

وكان من حسن حظ ذلك القائد ان قد وجد الى جانبه ضابط أدنى منه منزلة بيد أنه يفوقه في الدهاء وفن الحرب . وكان هذا الضابط فى الرابعة والعشرين من العمر . ولم يكن هذا الشاب يستطيع مع خمول ذكره وبساطة مركزه كتمان ما يشعر به من الاحتقار لمعظم الذين يقضي عليه النظام العسكري بأن يعتبرهم زعماءه مع ماكان في بلاهتهم من وخامة المغبة على الجمهورية . وقد جرأه ذلك الاحتقار وشعوره بأفضليته على جميع المقيم هو بين ظهرانيهم على مفاوضة زعمائه أنفسهم وتبصيره اياهم بسوء عواقب الأعمال التي يبتغون اتيانها . وكان من نتيجة مفاوضاته اليومية للقائد كارتو وانكاره الخطة التي رسمها قول زوجة القائد لرجلها . « دع هذا الشاب يعمل ما يرى عمله ملائماً فهو أوسع خبرة منك في الشؤون الحربية ، وهو لا يتقاضاك شيئاً ، ومرجع الفخر كله اليك »

وكان بونابرت من وصوله الى المعسكر أمام مدينة طولون قد فهم بما أوتيه من سرعة الخاطر وبعد النظر في الشؤون الحربية أن طولون لاتؤخذ الا من جهة مدخل الميناء . فقال وهو يشير بيده في المصور الجغرافي الى هذا المدخل

« هذه طولون » . ولكنه عانى مشقة عظيمة لاقناعهم بالعمل برأيه ، ولم يكن أحد يرى رأيه سوى قائد فرقة المهندسين ، ومع ذلك لم يكن هذا الامر كافياً لاقناع القائد الاكبر واتفق أنه كان بين نواب الشعب رجل ذكي الفؤاد رأى بعقله فطنته تحت شكل قائد المدفعية البسيط قائداً هماما يركن الى رأيه ويعول على معارفه الحربية الواسعة . وكان من نتيجة ميل النائب الى قائد المدفعية البسيط وتقديره أهليته حق قدرها منح بونابرت سلطة واسعة كان محتاجاً اليها لضمان نجاح خطته ، فدعي كارتو الى باريس وطرد الاجنبي من طولون . وتذكر الظافر فيما بعد أن مرجع الفضل في القسم الاكبر من ظفره هذا الى النائب الشعبي ، وقال ان غسباران (اسم النائب) هو الذي فتح في وجهه باب المستقبل

وكان بونابرت في أثناء الحصار مثالا لرباطة الجأش والاقدام ، فلم يكتف باظهار معرفته وبراعته في المجالس بل كان يلم بها في ساحة القتال حتى أن الجنود كانوا يعجبون ببسالته وصلابة عوده بقدر ما كان القواد يعجبون بحدة ذهنه وقوة عارضته . وكانت جرأته تحمله على خوض غمرات الحرب حتى أنه قتل تحته عدة جياد ، وقد جرح في فخذه اليسرى جرحاً بالغاً خيف بسببه على ساقه من البتر

وكان طبعه ينفر من معالجة القضايا العلمية المجردة ، ويعتبر تصور الشيء ووضعه في موضع الاجراء أمرين متلازمين ، ولو لم تكن له نفس كبيرة وصدر رحب وذراع متينة تعينه على قضاء حاجاته لكان فكره الواسع يثقل حاذه ويضيق صدره ويغل يده . وكان أبي سار يشعر بالحاجة الى العمل ، وقد بدأ من حداثته يشعر بهذا الامر ، وظل يشعر به في جميع أدوار حياته . ولما خانه الحظ في ابراز هذا الشعور من حيز الفكر الى حيز الفعل فارقته الحياة ، ولما ألفي ذاته مضطراً الى حصر تلك القوة الفكرية في دائرة ضيقة بعد ما كان قد ملأ أوربا بآثارها الهائلة قال على الدنيا السلام

ولم يكن عمل تلك الهمة الناهضة مقصوراً على مزاولة الشؤون الكبيرة بل كان يمد يده الى الشؤون الصغيرة نفسها حين كانت الاحوال تقضي عليه بذلك من دون أن يأنف من تمرسه بمثل هذه الامور . فكان ذات يوم في ابان حصار

طولون واقفاً بين بطاريات المدافع يلاحظ بنفسه اجراء حركاتها فحدث أن أحد المدفعيين قتل ، ولما لم يكن على مقربة منه من يقوم مقام القتيل عمد بذاته الى اطلاق اثنتي عشرة قنبلة من المدفع ، وقد سرت اليه في ذلك الحين عدوى داء الجرب الذي كان المدفعي مصاباً به . وبعد ما جعل هذا الداء حياة نابوليون في خطر سبب له هزالا ظل ملازماً له في خلال البعثة الى مصر وحروب ايطاليا ولم يبرأ منه إلا على يد كرفيزار بعد صيرورته امبراطوراً

ولم يكن جميع رؤسائه حسداً وبلهاً نظير كارتو ، فان القائدين دوتايل ودوغوميه أظهرا له احتراماً شديداً واكراماً عظيماً لم يتعودا اظهارهما للأدنى ، وقد كان ذلك نتيجة معارفه الواسعة ودهائه الممتاز وتعجب دوغوميه من سماعه إياه يقول له بثقة تامة بعد فتح « جبل طارق الصغير » . « اذهب وخذ قسطك من الراحة ، فقد أصبح سقوط طولون في أيدينا أمراً مقرراً ، وسيتسنى لك الرقاد فيها بعد غد »

وحل الدهش محل التعجب لما تمت بالتدقيق هذه النبوءة ، وقد تذكر بونابرت في وصيته القائدين دوتايل ودوغوميه كما تذكر غسباران . وطلب دوغوميه من لجنة الأمن العام ترقية الضابط بونابرت الى رتبة أمير لواء ، ومن جملة ما كتبه في الرسالة التي سيرها الى اللجنة المذكورة « كافئوا هذا الشاب وقدموه ، فاذا عاملتموه بنكران الجميل استغنى عنكم وتقدم من ذاته . »

ونظر نواب الشعب بعقلة الاعتبار الى هذا الطلب ورقوا بونابرت الى رتبة أمير لواء . فانضم بونابرت الى القائد دومربيون زعيم البعثة الفرنسوية في ايطاليا ، وأبلى بلاء حسناً في فتح ساورجيو وفي انتصارات طانارو وأونايل .

ان بونابرت مع اعتصامه باهداب مبدأ الجمهوريين المتطرفين الذين كانوا يعملون في ذلك الحين على خلاص البلاد بصريمة مقرونة بالعنف والارهاب ، كان ينظر بطرف دهائه الى العواطف والآراء المتصادمة ويسعى للتسلط عليها ، ومن ثم لم يكن يستعمل نفوذه وثقة القوم به الا لوقاية خصومه السياسيين من الاضطهاد ولانقاذ المهاجرين الذين ألقتهم العاصفة على سواحل فرنسا ، وكان من جملتهم أسرة شابريليان . ولما انزلت حكومة الكنفنسيون انتقامها بحلفاء الجنوب وضربت عميد تجار مرسيليا وأوسعهم ثروة وهو المسيو هوغ ذلك

الشيخ الجليل البالغ من العمر أربعاً وثمانين سـنة بات بونابرت كالمنزول به وصاح قائلا . « ظننتني بازاء هذا الحادث عند انتهاء العالم »

وكان بونابرت مع استفظاعه لتلك الأعمـال الهمجية يبرز أحكامه بكل سكينة وترو على أعمال المتسلطين في ذلك العهد لانهم لم يكونوا يرتوون من شرب الدم . وجاء في « مفكرة القديسة هيلانة » ان الامبراطور كان قد جعل روبسبيار يقول انه اطلع على رسائل ضافية الأذيال أنفـذها نابوليون الى أخيه روبسبيار الشاب في جيش الجنوب ، وفيها ينكر بحـدة تلك الأعمال الخارجة عن حد الاعتدال ويزعم أنها تسود صحيفة الثورة وتخنقها

وكان روبسبيار الشاب قد عرف كما عرف غسباران من قبـله ذلك الرجل العظيم الحديث النشأة واعجب به كل الاعجاب ، وبذل المجهود عند دعوته إياه الى باريس ليقنعه بالمجيء معه اليها ، وكان ذلك قبل ٩ ترميدور بقليل من الحين . وقد قال بونابرت فيما بعد . « لو لم انبذ طلبه فمن كان يعلم المصير الذي قيض لي المصير اليه بعد الخطوة الأولى ، والحظ الذي كان يتوقعني ؟ »

وتعرف في حصار طولون بدوروق وجونو وجعلهما يتعلقان به . فمنح الأول من ذات نفسه ، وأحب الثاني للحادثة الآتية :

كان أول شيء فعـله قائد المدفعيين فور وصوله الى طولون تشييد طابية ، وكان يضطر الى الكتابة وهو في العراء قائم على ملاحظة مجرى الأعمـال . فطلب سرجاناً أو كابورالاً ليكتب له ما يمليه عليه ، فجاءه أحد الجنود لاجراء ما يبتغيه ، ولم يكد يفرغ من كتابة الرسالة حتى سقطت على مقربة منه قنبلة أطلقها العدو فحثت التراب على الورقة فقال ذلك الجندي برباطة جأش وثغر بسـام . « لقد كفتني مؤونة تجفيف هذا المكتوب بالرمل . » وكان هذا الجندي يدعى جونو ، وقد كان ثبات جنانه كافياً لتوصية القائد به . ولم يكن فتح مدينة طولون وقد تم على يد بونابرت ليجعله بمعزل عن القلق الذي كان رجال الجندية يشعرون به من جراء تحامل رجال الكنفنسيون عليهم .

وكان قد صـدر أمر بدعوة بونابرت واستجوابه عن بعض أعمال أجراها في تعزيز حصون مرسيليا ، الا أن هذا الامر لم يعمل بموجبه . وكان أحد نواب الشعب مستاء من طباع بونابرت فقد كانت تأبى الخضوع لنير الضيم ،

ومنكراً انفته من الانقياد لاهوائه وأمياله ، فأصدر بحقه تلك الكلمة القتالة التي كان صدورها في ذلك العهد كافياً لاهلاك الصادرة بحقه أي رفع حماية القانون عنه ، ولكن هذه الكلمة بقيت هذه المرة باطلة وخالية من المعنى .

وكان جميع أركان الجيش يميلون الى خطب مودة بونابرت حتى أن أحدهم ، وهو مقترن بامرأة ذات جمال رائع وأخلاق لطيفة أبدى له تعلقاً شديداً وعامله في منزلة معاملة ذوي القربى . ويقال أن بونابرت هام بحب هذه المرأة الحسناء وكان بينه وبينها شأن يذكر حتى أنها كانت أول من لفتت أنظار حكومة الكنفنسيون الى أهلية فاتح طولون في ١٣ فندميار .

ولقي بونابرت بعد ارتقائه الى عرش الامبراطورية هذه السيدة وكانت الاحداث والنكبات قد ذهبت بتلك المسحة من الجمال التي استهوت نابوليون في ماضى ، فقال لها الامبراطور . لماذا لم تستغنمي الفرصة من تعرفنا في نيس لتأتي الي ، فلي أصدقاء كثيرون أعرفهم من عهد بعيد ، وقد أصابوا جميعهم منزلة رفيعة ولم يقطعوا علاقاتهم بي . فأجابته « واحسرتاه يامولاي، لم يبق بيننا معرفة منذ حللت في المركز الاسمى ، ومنذ صرت منكودة الطالع . » وكانت قد فقدت بعلها وباتت في حالة من الشقاء يرثى لها ، فمنحها نابوليون سؤلها .

ولما كان نابوليون يتذكر تلك الايام كان يقول . كنت في عنفوان الشباب وكنت أتباهى باستمالة تلك الحسناء الي ، ولذلك كنت أحب أن أظهر ذلك بكل مايمكنني اظهاره وستعلمون مما سأرويه لكم مايكون من العواقب الوخيمة لمن يسيء استعمال السلطة ومايكون من حظ البشر . كنت ذات يوم اتنزه معها في الموضع المبنية فيه استحكاماتنا في ضواحي مضيق طند بغية تفقد الاحوال . فخطر لي بغتة أن أجعلها تشهد صورة حرب صغيرة ، وأمرت بالهجوم على المقدمة . فانتصرنا ولكن لم يكن لنا من وراء هذا الامر من نتيجة ، فقد كان الهجوم هوى من الأهواء ومع ذلك قتل في أثنائه بضعة جنود، وكلما كنت أذكر هذا الحادث فيما بعد كنت احيل على نفسي باللائمة لاجرائي اياه »

ان حوادث ٩ ترميدور أوقفت بونابرت وقتياً في الطريق الذي كان قد تخير انتهاجه وأصاب فيه بعض النجاح . وسواء أكانت علاقاته مع روبسبيار الشاب قد جعلت بعض الناس يسيئون الظن به أو أن حاسدي مجده التليد قد

تذرعها بهذه الذريعة أو بغيرها ليهلكوه ويتخلصوا منه فقد كفت يده عن العمل وألقي القبض عليه بأمر أصدره ألبيت ولابورت وساليستي فانهم اعتبروا رحلته الى جنوى جرماً كبيراً بحسب الانباء التي وردت اليهم من رصيفهم ريكور .

ولما أعلن أن القائد بونابرت غير جدير بثقة الجيش به وتقرر مثوله أمام لجنة الامن العام لم يذعن بونابرت لهذا الاعلان وهذه التهمة ، فحبر في الحال مذكرة رفعها الى النواب الذين أصدروا الأمر بالقبض عليه ، وكانت هذه المذكرة مكتوبة بعبارة مقتضبة يشم منها رائحة الانفة والشدة ، وهي تعتبر توطئة للخطب والكتابات التي عود نابوليون الناس سماعها وقراءتها فيما بعد . ودونكم بعض فقرات من المذكرة .

« كففتم يدي عن العمل ، والقيتم القبض علي ، وقذفتموني بالتهمة

« وها ءنذا أصبحت ملطخ بردة الشرف من دون أن أمثل أمام القضاة للمحاكمة ، وقد حكم علي من دون ان تسمع مدافعاتي

« في البلاد المنفتحة فيها أبواب الثورة فئتان من الناس . المشتبه بهم والوطنيون . . . فمن أي فئة تريدون أن تعتبروني ؟

« أو لم أكن شديد الاعتصام بمبادىء الثورة من نشأتها ؟

« أولم يروني دائما في ساحة القتال أواقع الاعداء الداخليين وأنازع الاعداء الخارجيين ؟

« ضحيت بلذة المقام في مسقط رأسي ، وهجرت مقتنياتي ، وفقدت كل شيء في سبيل الجمهورية . ؟

« وخدمت بلادي من ذلك الحين أمام مدينة طولون خدمة جرت اليّ أسباب الافتخار ، واستوجبت في جيش ايطاليا شطراً من غار المجد المحرز في فتح ساورجيو واونايل وطانارو . . .

« ولما حسر القناع عن مكيدة روبسبيار سلكت مسلك رجل لا يجري الا الى غاية مبادئه .

« فلا يستطيع أحد والحالة هذه أن يضن علي بلقب « وطني »

« فلماذا اذن يعلنون أني من المشتبه فيهم قبل أن يسمعوا مدافعاتي ؟

« انا بريء ووطني وموشي بي ، وكيفما كانت التدابير التي تتخذها اللجنة بحقي لا يسعني الا التظلم منها .

« فاذا شهد ثلاثة شهود بأني أتيت جناحاً فلا أستطيع الشكوى من القضاة الذين يبرزون الحكم عليّ

« وهل يليق بنواب الشعب أن يسوقوا الحكومة الى ارتكاب المظالم والجنوح عن الخطة السياسية المثلى ؟

« انصتوا اليّ ، وحطموا قيود الحيف التي تكبلني ، وأعيدوا الي احترام أبناء واطني .

« واذا طلب الاشرار حياتي بعد ذلك بساعة من الزمان بذلتها لهم مرتاحاً ولم أعتبرها شيئاً مذكوراً ، وقد سبق لي في مواقف عديدة أن غررت بها . . . على أن التصور الوحيد الذي يجعلني أعتقد بأن الوطن لا يزال محتاجاً اليها يحملني على تحمل عبئها بالشجاعة والصبر الجميل . »

وكان ان هذا الاحتجاج المبني على قواعد الأنفة والنبالة مع ما هو مقرون به من البساطة جعل النواب يتأملون ويعلمون أنهم تمرسوا برجل راجح الحصاة شديد الصريعة ، وانهم لا يتسنى لهم اخضاعه لنير الاستبداد والاضطهاد من دون أن يستهدفوا لنبال مقاومة شديدة منه . وحينئذ أهاب التعقل بألبيت وساليستي بالاتفاق مع الجنرال دومربيون الى الغاء قرارهم وقتياً واصدار الأمر باطلاق سراح الجنرال بونابرت المأمول أن يكون من وراء معارفه الحربية والوطنية فائدة للجمهورية .

وألقت حادثة ترميدور في أثناء ذلك بمقاليد ادارة الشؤون الحربية الى قائد من قواد المدفعيين يقال له أوبري ، ففوض الى بونابرت قيادة المشاة المعينين للخدمة في الفنده . فاستاء بونابرت كل الاستياء من هذا الأمر وبادر عند وصوله الى باريس الى رفع ظلامته الى اللجنة الحربية باسطاً لها شكواه بكلام شديد اللهجة ، الا أن أوبري أصر على رأيه وقال لبونابرت انه لا يزال شاباً وانه يجب عليه أن يجعل القدماء يتقدمونه من باب « ان الفضل للمتقدم » فأجابه بونابرت . ان الانسان يشيخ في وقت قريب في ساحة القتال وانه قد أدرك هذا الأمر . ولم يكن رئيس اللجنة الحربية قد شاهد نيران الحرب في حياته .



نابوليون بونابرت ملازم فى المدفعية فى التويلرى « ١٠ اغسطس سنة ١٧٩٢ »



الا ان هذا الاحتجاج العنيف لم يجعل أوبري يرعوي عن غيه بل جعله يزداد تشبثاً برأيه . وحينئذ لم ير الشاب الثابت العزم مندوحة عن الاستقالة ، فآثرها على الاذعان لمقتضيات الظلم .

الفصل الرابع

— الاستقالة — ١٣ فنديميار — جوزفين — الزواج —

انه لأمر غريب أن نرى هـذا المرء الذي دوخ فيما بعـد أوربا يثبط عن مواصلة السير على المنهاج الذي اختطه لنفسه ، وأن يضطر الى الاستقالة فيحذف اسمه من جدول القواد الفرنسويين العـاملين بموجب قرار وقعه مرلين ودواي وبرليه وبواسي دانغلا وكمباساريس الذين صاروا فيما بعـد يتزاحمون على نيل ابتسامة رضى من هذا الضابط الشاب الذي أساؤوا معاملته .

إلا أنه كان بين مدبري حوادث ترميدور رجل لم يشأ أن يدع الدهاء الذي أظهره بونابرت في طولون يذهب سـدى ، وكان اسم ذلك الرجل بونتيكولان وقد خلف أوبري في منصبه ، فانه من دون أن يبالي بملامة الحزب السائد وانكاره عمله فوض الى بونابرت وضع الخطط الحربية .

وكان ذلك المركز الخامل الذي لا يلائم أخلاق جندي يري الحركة والجد والضوضاء شروطاً لازمة لوجوده معتـبراً مركزاً عالياً لذلك الضابط الشاب الذي شاؤوا الوقوف في وجه حظه رغبة في تثبيطه عن المسير في جادة العلياء .

وحدث بعد ذلك أن جعل ليتورنور دي لامانش خلفاً لبونتيكولان في رئاسة اللجنة الحربية ، وكان هـذا الرئيس الجديد يبغض بونابرت بغضاً شديداً ، فحينئذ فقد بونابرت مركزه ، وقنط من التغلب على ما كانوا يظهرونه له من الحسد والبغض ، فحول أنظاره عن الأرض الأوربāوية الى الشرق مؤملا أن يلقى فيه مجالا فسيحاً لدهائه وأهليته .

ونظم مذكرة بين فيها للحكومة الفرنسوية انه من مصلحة الجمهورية عضد الباب العالي وتوفير وسائل الدفاع لديه ليتمكن من الوقوف في وجه مطامع

دول أوربا ، وكان من جملة ما قاله في هذه المذكرة . « ان الجنرال بونابرت خدم المدفعية من حداثته وتولى شؤونها في حصار طولون وفي معركتين في ايطاليا وهو يقدم ذاته للحكومة لينطلق الى بلاد الدولة العثمانية بمهمة من لدن حكومته . . .

وسيكون من وراء عمله هذا جر مغنم لوطنه ، واذا تمكن من تعزيز قوة الترك واحكام الدفاع في حصونهم المنيعة ، وبناء قلاع جديدة فيكون قد أدى « خدمة جديدة لبلاده » .

وقال المسيو دي بوريان . « لوكان أحد كبار رجال الجندية قد ذيل مذكرة بونابرت بكلمة « فليعمل بموجبها » ، لكانت هذه الكلمة قد غيرت وجه أوربا . ولكن لم تذيل المذكرة بالكلمة المذكورة ، فان مشاغل الاحزاب السياسية الداخلية وتطاحنها حالت دون اهتمام الحكومة بهذه الخطة الحربية لانها لم تكن على ثقة من نجاحها . فلم يجد بونابرت بداً من البقاء في باريس بلا عمل .

الا أن الثورة لم تجعله ينتظر مدة طويلة ، فان الحزب الملكي هب من سباته وقد جرأته حوادث ترميدور ، فتدخل مع الاحزاب الباريسية محرضاً اياها على التمرد على حكومة الكنفنسيون فأصاب الثائرون الظفر في بدء الامر لان الجنرال مينو المتهم بالخيانة والعجز عن النهوض باعباء مهمته سهل للثائرين سبيل الفوز وقد كان مفوضا اليه أمر مقاتلتهم وتمزيق شملهم . وتذكر رجال حكومة الكنفنسيون أنهم أبعدوا عدداً كبيراً من الوطنيين الملتهبين بنار الغيرة الوطنية ، وفصلوا من مناصبهم فريقاً آخر منهم ، والقوا في ظلمات السجن جماعة أخرى منهم ، ومع ذلك لبى الجمهوريون المضطهدون نداء مضطهديهم وهبوا الى حمل السلاح لدفع الخطر العام ، ولكن كان الجيش المتألف فجأة يعوزه قائد بعد اخفاق مينو والقاء القبض عليه . فاختير باراس قائداً الا أنه لم يكن قادراً أن يتولى الا قيادة أسمية ، وكان هو نفسه يدرك هذا الامر ، فاتخذ له معاوناً قائداً خبيراً بفن الحرب ، وكان هذا القائد نابوليون بونابرت . فاجاز الكنفنسيون هذا الاختيار باصداره قراراً سمعه بونابرت وهو قاعد في المجلس في الموضع المخصص لعامة الناس . وجاء في « مفكرة القديسة هيلانة » ان بونابرت

بقي نحواً من نصف ساعة يفكر في أمر قبوله أو رفضه المنصب الذي انتدبوه اليه . فلم يكن ميالا الى مقاتلة رجال الفنده أو فاقداً عروة عزمه بلا تردد على محاصرة الباريسيين ولكنه قال في نفسه . لو سقط الكنفنسيون فماذا يكون من أمر مبادىء ثورتنا الكبرى ؟ فان انتصاراتنا العديدة ودماءنا الغزيرة المسفوكة في معارك كثيرة لا تبقى معتبرة سوى أسباب تجر الينا الذل والعار ، فالأجنبي الذي ظفرنا به غير مرة ينتصر في نوبته ويجرعنا كؤوس المهانة والاحتقار . . . وعليه فان فشل الكنفنسيون ينيل الاجنبي فوزاً مبيناً ويكبل الوطن بأداهم العبودية والصغارة . وحينئذ صمم بونابرت على خدمة الكنفنسيون مدفوعاً الى ذلك بعوامل شبيبته وثقته بنفسه واستسلامه الى حظه

وكان عزم بونابرت على الانتصار للحكومة وخيم التبعة على مثيري القلاقل ، فتقطع نظام الجيش الباريسي بعد عراك دام بضع ساعات وأخمدت نائرة الفتنة

وكافأ الكنفنسيون مخلصه بتسميته اياه قائدا أكبر للجيش الداخلي ومن ذلك اليوم صار بونابرت يرى ان القوة الجندية في فرنسا أصبحت في قبضة يده وانه ابتدأ يصعد أول درجة من السلم التي ارتقى عليها الى العرش بتوليه القيادة العليا في العاصمة

فما كان أعظم ما طرأ على حظه من التغير في أربع وعشرين ساعة ! فقد كان في ١٢ فنديميار من المغضوب عليهم وقد ألم به القنوط لاضطراره الى حصر قوة عقله في داخله ، وجعلته المصاعب والعراقيل يشك في أمر مستقبله . ورزح تحت اثقال المتاعب السياسية فاستهوته راحة الحياة البيتية ولذتها . ولما انتهى اليه نبأ اقتران أخيه يوسف بكريمة أكبر تاجر في مرسيليا قال . هنيئاً ليوسف !

وفي ١٤ فنديميار تغلبت قوة ارادته على ضعفها وثابت اليه شدة صريمته ، فان المغضوب عليه بالامس أصبح صاحب الامر والنهي في الغد ، وصار النقطة المركزية لجميع الدسائس والمطامع كما كان روحاً لجميع الحركات . ولا يخفى ان الظافر بالاحزاب الباريسية كانت فرنسا الجديدة ترفع رايته ، وحيث لم يكن فوقه سوى جماعة شاخ أفرادها بسرعة باتيان الحركات الخطيرة وتسخير المقصلة

لاهوائهم وأميالهم علق على طالعه الميمون حظ الثورة التي لم يبق نجم الكنفنسيون المائل الى الافول يهديها بمثل البهاء الذي كان يهديها به في صدر عصر الحرية

وكان أول أمر باشره بونابرت انقاذ حياة مينو وقد كانت الاحزاب تريد اهلاكه. ومع ما كان عليه بونابرت من الاعتدال في أعماله لم يستطع المغلوبون ان يغضوا النظر عن فشلهم ويصفحوا عنه لانه كان المسبب لخذلانهم ، وقد اقتصر انتقامهم منه على اطلاقهم عليه تهكما لقب « المدفعي »

وكان الشعب الباريسي قد جرحت عواطفه وأصابه ذل شديد وتلت تلك الحوادث مجاعة زادت في طنبور استيائه نغمة وجعلته ينفر من رجال الجندية لأنهم أوصلوه الى هذه الغاية . وروى المسيو دي لاس كاس انه حدث ذات يوم أن توزيع الخبز قل عن العادة المألوفة فتجمهر القوم على أبواب الافران ، وكان بونابرت ماراً ومعه بعض نفر من أركان حربه تفقداً للراحة العامة ، فاحتشد حوله جمع غفير ومعظمه من النساء ووقفوا في طريقه طالبين منه الخبز ، وكان الهياج يزداد والجماهير تكثر وفي الافواه الفاظ التهديد ، فحسب بونابرت لذلك الامر الف حساب ، وقد استازت من بين تلك الجموع امرأة بصخبها وبذآءة لسانها ، وكانت على جانب عظيم من السمن فجعلت تصيح بملء شدقيها وهي تشير بيدها الى بونابرت ورجاله وتقول « ان جميع هؤلاء الجنود يهزأون بنا . فحسبهم ان يأكلوا ويشربوا ويتنعموا ويسمنوا ولا يهمهم شيء سواء أعاش الشعب أو مات من الجوع » فانتهرها بونابرت قائلا لها «ياخالة انظري الي ، من من الاثنين أسمن من الآخر ؟ » وكان بونابرت هزيلا عاري الاشاجع ،وقد قال هو عن نفسه « انه لم يكن فيه سوى الجلد والعظم . »ولما سمع القوم كلام بونابرت قهقهوا ضحكا وتفرقوا ، واستأنف بونابرت ورفاقه مسيرهم

وكانت خطورة الحركات الثورية في شهر فنديميار ووفرة التذمر الذي كان يرتفع من كل جهة من جميع الاحزاب ضد حكومة الكنفنسيون داعياً الى نزع السلاح من القوم . وبينا هذه الامور تجري جاء فتى في نحو الثانية عشرة من عمره والتمس من القائد الاكبر ارجاع سيف أبيه اليه . وكان أبوه من قواد جيوش الجمهورية . واسم الفتى أوجين دي بوهارنه فأجاب بونابرت طلبه وأحسن معاملته . فبكى الفتى من فرط سروره وأخبر والدته ما كان من صنيع

ذلك القائد معه ، فرأت من باب اللياقة أن تمضي اليه وتسدي فروض الشكر له.

وكانت عقيلة دي بوهارنه فتية وحسناء . فلم تخبىء في تلك الزيارة المحاسن التي كان القوم يقدرونها حق قدرها في جميع الاندية الباريسية . فكان لتلك الزيارة وقع عظيم في قلب بونابرت حتى انه صمم على توثيق عرى المودة بينه وبين تلك السيدة ، فكان يقضي عندها جميع سهراته ، ويجتمع في ناديها بكثيرين من بقايا النبلاء الذين كانوا يسرون كثيراً بعاشرة ذلك الشاب ، ويلقبونه بالمدفعي الصغير . ولما كان الساهرون يبرحون منزل عقيلة دي بوهارنه ويبقى فيه بعض الاصدقاء الحميمين كالمسيو دي منتسكيو الشيخ والدوق دي نيفرنه كانوا يديرون رحى الحديث سراً على البلاط القديم وينتقلون بالفكر الى فرسايل . ومن الغريب أن يكون بينهم ذلك الشاب ، ولكن يتعجب الذين لا يعلمون ما كان يجريه منذ ذلك الحين من جهة الرسميات مع أنه لم يكن قد تغير عما كان يشعر به من الاحتقار الذي أوحته اليه الفلسفة لمثل تلك الاشياء ، وكان يقذف الذعر على فؤاد الارستوقراطية الاوربية بصفة كونه ممثل الثورة الفرنسوية الكبرى .

ولم تكن علاقة بونابرت بجوزفين دي بوهارنه علاقة صداقة محضة ومعرفة بسيطة ، فقد دخل على قلبه حب شديد لتلك السيدة ، واعتبر زواجه بتلك المرأة التي كانت يحبها مجلبة للهناء اليه . فاقترن بها في ٩ مارس سنة ١٧٩٦ . وكانت احدى الزنجيات قد تنبأت لجوزفين بأنها تصير ملكة ، وهذا ما كانت جوزفين تحب دائماً أن ترويه من دون أن تظهر أنها لا تعتقد صحته . وكان اقترانها ببونابرت خطوة أولى أدنتها من تتميم تلك النبوءة .



الفصل الخامس

— حرب ايطاليا الأولى —

وكان شيرار القائد الاكبر لجيش ايطاليا قد عرض قوة الجمهورية وشرفها للفشل بما أبداه من سوء الادارة والضعف في ميدان الحرب ، فهلك ما كان عنده من الجياد لنفاد العلف ولاحتياج الجيش الى كل شيء ، ولم يبق قادراً على البقاء في جنوى . فعمد الديركتوار الى اصلاح ذاك الخلل بارساله اليه قائداً جديداً يغنيه عن المؤونة والمال وكثرة الرجال ، وكان ذلك القائد نابوليون بونابرت ، فسد دهاؤه مسد كل شيء

وخرج بونابرت من باريس في ٢١ مارس سنة ١٧٩٦ تاركا قيادة جيش الداخلية لقائد طاعن في السن يقال له هاتري

وكانت خطته الحربية مدبرة ، فأزمع دخول ايطاليا بطريق الوادي الفاصل بين جبال الاب وجبال الابنين ، والتفريق بين الجيش النمسوي السرديني باكراهه الجنود الامبراطورية على الدفاع عن ميلانو ، والعساكر البيامنتية على الذود عن عاصمتهم . ووصل الى مدينة نيس في آخر شهر مارس ، فنقل الى البنغا مركز أركان الحرب العام الذي كان في نيس منذ ابتداء القتال . ولما عرض بونابرت الجيش للمرة الاولى خاطبه قائلا .

« أيها الجنود ، أنتم عريانون وجائعون ، الوطن مدين لكم بأشياء كثيرة ولكنه عاجز عن امدادكم بشيء . فصبركم وما أظهرتموه من البأس بين هذه الصخور يقضيان بالعجب العجاب ، الا انهما لا يستطيعان ان يجرا اليكم شيئاً من الفخار . وقد أتيت لامضي بكم الى أخصب أرض في المعمورة ، وستقع في أيدينا أقاليم غنية ومدن عامرة فتصيبوا فيها ثروة واسعة وشرفاً سامياً ومجداً أثيلا . فياجنود ايطاليا هل تعوزكم البسالة والشجاعة ؟ »

فكان لذلك الكلام هزة طرب ورنة ابتهاج في الجيش ، وأحيا موات الامل في الافئدة . فاغتنم نابوليون الفرصة من تلك الحماسة ليخاطب مجلس الشيوخ في جنوى بلهجة عنيفة طالباً منه الترخيص لرجاله بعبور البختا وتسليم مفاتيح غافي . وفي ٨ ابريل كتب الى الديركتوار ما يأتي :

« لم أجد الجيش محتاجاً الى كل شيء فحسب بل وجدته خالياً من روح النظام ومتمرداً على رؤسائه . وقد بلغ منـه الاستياء مبلغاً عظيما جعل بعض الاوشاب يدخلون عليه مبادىء مخالفة لمبادئنا . فانشئت بينهم فصيلة سميت باسم ولي العهد ، وصاروا يتغنون بأناشيد مخالفة للروح الجمهوري . . . وثقوا الآن بأن السلام والنظام سيعودان الى مجراها . وحين يصل اليكم هذا الكتاب نكون قد أصلينا نار الهيجاء . »

وجرى كل شيء على ما زعمه بونابرت وجاهر به ، وكان جيش الاعـداء يقوده بوليو وهو قائد هام أصاب شهرة بعيدة في حروب الشمال . فلما انتهى اليه أن الجيش الفرنسوي الذي كان حتى ذلك الحين قد لازم بجهد وعناء خطة الدفاع انتقل فجأة الى خطة الهجوم وتهيأ للعبور بجرأة بمداخل ايطاليا ، بادر الى مغادرة ميلانو والاسراع الى نجدة جنوى . فنزل في نوفي حيث أقام أركان حربه ، وقسم جنوده الى ثلاثة فيالق . وأذاع نشرة أرسل القائد الفرنسوي نسخة عنها الى الديركتوار قائلا انه سيجاوب عليها في غد اليوم الذي تنشب فيه المعركة بين الجيشين .

ووقعت تلك المعركة في ١١ ابريل في منتنوت ، ونال فيها القائد الجمهوري انتصاره الاول المنتمي اليه أصل شرفه .

ولم تكن المعارك الاخرى التالية سوى سلسلة انتصارات باهرة . ففي ١٤ ابريل انتصر في مليسيمو، وفي ١٦ منه في داغو ، وقد أصاب ثلاثة انتصارات في أربعة أيام . ونظم في مساء اليوم الذي جرت فيه واقعـة داغو تقريراً بين فيه للديركتوار وقائع أعماله المجيدة والسريعة منوهاً بالاعمال الخطيرة التي أتاها رفاقه كجوبير وماسينا وأوجرو وميناد ولاهارب ورامبون ولان الخ ، ومن جملة ما جاء في ذلك التقرير الفقرات التالية .

« أسرنا في هذه الموقعة ٧ آلاف الى ٩ آلاف مقاتل بينهم ليوتنان جنرال وعشرون أو ثلاثون كولونيلا أو ليوتنان كولونيل .

« ويتفاوت عدد قتلى العدو بين الفي محارب والفين وخمس مئة محارب.

« وسأبسط لكم في أول فرصة تفصيل حوادث تلك الموقعة المجيدة ذاكراً أسماء الابطال الذين امتازوا فيها »

« وأنفذ الجنرال كولي قائد ميمنة الاعداء كتاباً الى بونابرت يطلب به منه اطلاق سراح سفير كان قد أرسله اليه، وهو مهاجر فرنسوي يدعى مولان، وتوعده بأن ينتقم لذلك المهاجر من الضابط برتلمي الذي سقط أسيراً في أيدي النمساويين. فأجابه الجنرال الفرنسوي قائلا . « ان المهاجر يعتبر مرتكباً جناية القتل بحق أبيه الذي هو وطنه، وعليه فلا تدفع عنه العقاب أدنى صفة من الصفات ولعمر الحق ان من أنفذ المسيو مولان سفيراً له يكون قد خالف أصول الشرف . ولم يرع حرمة الشعب الفرنسوي . فأنت خبير بقوانين الحرب، ولا أعتقد انك تضع موضع الاجراء تهديدك إياي بالانتقام من الضابط برتلمي أسيركم . وان أنت تجاوزت من هذه الجهة حدود الشرائع المسنونة للحرب أنزلت أنكأ العقوبة بجميع النمسويين الاسرى عندنا، وإن أكن أحترم جميع ضباطكم احترامي للجنود الشجعان »

ولم يكن تهديد بونابرت كلمات فارغة، فقد كان في حوذته عدد كبير من النمسويين الاسرى . وكان جوابه لكولي في ١٨ ابريل

وكان من نتيجة الاعمال الباهرة التي اشتهرت فيها للمرة الاولى اسماء جوبير وماسينا وأوجرو تقطيع نظام مؤخرة الاعداء التي يتولى قيادتها بروفيرا واجبارها على التسليم، والحيلولة دون انضمام النمسويين الى البيمنتيين، وفتح طريقي ميلانو وطورينو في وجه جنود الجمهورية

ولما بلغ القائد الفرنسوي الاكبر مرتفعات منتيزيموتو التي احتلها أوجرو في اليوم نفسه الذي اضطر فيه سروريه القائد كولي الى مغادرة سيفا التي كان قد اتخذها معسكراً له، دل جيشه من ذلك المكان على القمم الشامخة المغطاة بالثلج والمشرفة على سهول البيامنت الخصيبة، وقال وهو يشير بيده الى تلك القمم . « حنيبعل اجتاز جبال الالب ونحن درنا حولها . »

وفي ٢٢ ابريل انتصر بونابرت انتصاراً جديداً، فعبر نهر طانارو واستولى على حصن بيكوك وغنم مندوفي ومخازنها . وفي ٢٥ منه سقطت شيراسك في أيدي الجيش الفرنسوي، وكان فيها مدافع فعززوا حاميتها . وفي ٢٨ منه تم توقيع هدنة حربية

وكان الجنرال بونابرت قد جاوب في ٢٤ منه الجنرال كولي بهذا الكتاب :



نابوليون بونابرت قائد جيش ايطاليا



« ان حكومة الديركتوار الاجرائية قد احتفظت لنفسها حق عقد الصلح ، فبناء عليه يجب على المندوبين المفوضين من لدن الملك مولاك ان ينطلقوا الى باريس أو ان ينتظروا في جنوى وصول المندوبين الذين ترسلهم اليها الحكومة الفرنسوية

« ان موقف الجيشين الحربي والأدبي يجعل توقيف رحى القتال توقيفاً مجرداً وبسيطاً في حكم المستحيل ، واني مع اعتقادي بأن حكومتي تمنح ملككم شروطاً شريفة للصلح لا أستطيع توقيف زحفي بجنودي استناداً الى تخمينات مبهمة . ومع ذلك لدينا واسطة تمكننا من الانتهاء الى غايتك وهي ملائمة لمصلحة حكومتك ومن شأنها حقن الدماء التي أصبح سفكها على غير جدوى وصار مخالفاً لاسباب الحرب وقوانينها . وذلك بأن تسلمني حصنين من الحصون الثلاثة وهي حصون كوني والاسكندرية وطرطون ، ولك الخيار في ذلك . »

وكان بعد ذلك ان قد أسلم حصنا كوني وطرطون للجمهوريين وأضيف اليهما حصن سيفا ، وحينئذ عقدت الهدنة .

ما أكثر الحوادث التي جرت في خلال شهر من الزمان ! فلم تبق الجمهورية خائفة على ثغورها وحدودها ، بل صارت تقذف الذعر على الملوك الذين كانوا يهددونها في ماضي الحين . وساقت اليهم الرعب وهم في عواصمهم . وقد تم ذلك التغير بسرعة عجيبة من دون ان يمد بونابرت بنجدات جديدة ، فانتصر بذلك الجيش الذي كانت المشقات قد أنهكته والذي لم يكن عنده مدافع وفرسان وذخائر ومؤن كافية . وكان ذلك الامر بمثابة معجزة أتاها دهاء ذلك الرجل العظيم ، وحسنة من حسنات الحرية التي قدمت له جنوداً وقواداً جديرين به

وبهت الاجانب عند رؤيتهم تلك الأعمال الكبيرة . وكان الجيش الفرنسوي المعجب بقائده الشاب قلقاً من جهة مستقبله مع جره ذلاذل الانتصار الذي لم يسبق له نظير ، وقد فكر بضعف الوسائل التي لديه والتي يقضى عليه باتخاذها لاستئناف المسير على الطريق الذي خطه له الحظ ، ومعالجة فتح ايطاليا مع ما يصحب تلك الحال من المصاعب التي لا تذلل . فعمد بونابرت الى ازالة تلك المخاوف واضرام نيران الحماسة في قلوب رجاله ، فأذاع وهو في شيراسك النشرة الآتية .

« أيها الجنود ، لقد أصبتم في خمسة عشر يوماً ستة انتصارات ، وغنمتم احدى وعشرين راية وخمسين مدفعاً ، وفتحتم مواقع عديدة حصينة ، واستوليتم على أخصب بقعة من قطعة البيامنت ، وأسرتم خمسة عشر ألف جندي ، وقتلتم وجرحتم أكثر من عشرة آلاف مقاتل ، ولكنكم لم تحاربوا حتى الآن الا لاحراز صخور صماء لاتفيد الوطن شيئاً ، وقد ضارعتم ببسالتكم الجيش الذي دوخ هولندا وأنحاء الرين . ومع احتياجكم الى كل شيء استغنيتم بجرأتكم عن كل شيء . انتصرتم في المعارك ولا مدافع معكم ، عبرتم الأنهار وليس عليها جسورة ، جريتم مسافات طويلة وأنتم حفاة ، نزلتم المعرّس وليس عندكم خمر وفي غالب الأحيان لم يكن عندكم خبز ، ولا يستطيع ان يحتمل مثل هذا النوع من شظف المعيشة إلا جنود الجمهورية وجيش الحرية

« الوطن المعترف بالجميل مدين لكم بشطر من هنائه وراحته . وان كنتم عند فتحكم مدينة طولون قد أملتم نيل انتصار باهر كالذي اصبتموه في معركة سنة ١٧٩٣ وقد خلدت اسمكم ، فانتصاراتكم الحالية تجعلكم تملؤون النفس بأمل الحصول على انتصارات أعظم وأكبر

« ان الجيشين اللذين كانا في ماضي الحين يقاتلانكم بكل جرأة وبسالة يهربان الآن أمامكم وهما لايلويان على شيء . وان اللئام الذين كانوا يهزأون بشقائكم ويسرون في قلوبهم بانتصار اعدائنا خذلوا وباتوا والرعب ملء جلودهم ولكن اعلموا أيها الجنود أنه لاينبغي لي أن أكتم عنكم شيئاً ، فأقول لكم انكم لم تفعلوا شيئا حتى الآن ، فقد بقي أمامكم أشياء كثيرة لامندحة لكم عن قضائها . فلاطورينو ولاميلانو تخصانكم . ولا يزال سفاحو باسفيل يدوسون بأقدامهم رفات قاهري تركينوس

« وقد كنتم في بدء هذه الحرب مفتقرين الى كل شيء ، فأصبح الآن كل شيء متوفراً عندكم ، فالمخازن التي غنمتموها من أعدائكم كثيرة ، وقد وصلت اليكم مدافع الحصار ومدافع القتال . أيها الجنود يحق للوطن أن ينتظر منكم أموراً خطيرة ، فهل تحققون انتظاره ؟ أجل . ان اعظم المصاعب ذللت ، ولكن بقي عليكم معارك عديدة لابد لكم من خوض غمراتها ، ومدن كثيرة يجب عليكم فتحها ، وانهار يقضى عليكم عبورها . فهل بيننا من يرق جانبه ، وهل بيننا

من يؤثر الرجوع الى قمم الأبنين والالب لتجرع كؤوس المذلة من ايدي أولئك الجنود الاجلاف ؟ لا لعمري ، ما من احد من مثل هؤلاء بين المنتصرين في معارك منتنوت ومليسيمو وداغو ومندوفي . فالجميع على السواء ملتهبون بنار الرغبة في حمل مجد الشعب الفرنسوي الى الاقاليم البعيدة المزار، والجميع يميلون الى تحقير اولئك الملوك المتغطرسين الذين تجرأوا على التفكير باعداد قيود العبودية لنا ، والجميع يريدون أن يجبروا العدو على ابرام أسباب صلح مجيد يكون فيه تعويض للوطن عما ناله من فادح الخسارة . أيها الاصحاب اني اعدكم بنيل هذا الفتح المبين ، ولكن تحت شرط لابد لكم من التقيد به . وهو ان تحترموا الشعوب التي تنقذونها من نير العبودية ، ولا تأتوا شيئاً من السلب والنهب شأن الاوشاب الذين يحرشهم اعداؤكم على اتيان مثل هذه الاعمال المنكرة وان انتم فعلتم غير ذلك لا تكونون مخلصين لاولئك الشعوب بل تكونون ضربات شديدة عليهم ، ولا تكونون فخرا للشعب الفرنسوي بل تجعلون هذا الشعب يتبرأ منكم فنفقد جميع ثمار انتصاراتنا الباهرة وبسالتنا المشهورة ونجاحنا الممتاز ودماء اخواننا المسفوكة في ساحة الوغى وشرفنا وفخرنا اللذين نضن بهما . وانا والقواد الذين أحرزوا ثقتكم تحمر وجوهنا خجلا من تولي قيادة جيش نبذ النظام وراء ظهره ولم يعرف له حدا يقف عنده وقانونا يسير عليه غير قانون القوة . وسأتدرع بالسلطة الوطنية واستمد القوة من العدالة والشريعة واجعل تلك الفئة الصغيرة من الناس الخالين من الشجاعة ونبالة المقاصد تحترم شرائع الانسانية وقوانين الشرف التي كانت تدوسها بأقدامها . فلا اطيق ابدا ان اشاهد الاوغاد تدنس غبار المجد الذي اصبتموه ، ولا اتردد عند مسيس الحاجة في وضعي موضع الاجراء القانون الذي سننته . فالنهابون ينصبون هدفا للرصاص وقد اجريت حكم هذا القانون بحق اشخاص جنحوا عن الطريقة المثلى ، فتسنى لي ان الاحظ والبهجة تفيض من فؤادي ان الجنود الاباسل كانوا يتسابقون لاجراء الاوامر الصادرة لهم بهذا الشأن

« ياشعوب ايطاليا ، قدم اليكم الشعب الفرنسوي لتحطيم الاغلال التي ترسفون بها . فهو صديق لجميع الشعوب فخفوا بكل ثقة لملاقاته واكرام وفادته ، فتحترم املاككم وديانتكم وعاداتكم . ونحن نحارب كاعداء كرام ولا نتعمد الاذى الا

للطغاة الذين يستعبدونكم ويستذلونكم »

وكانت هذه اللهجة تدل على ان بونابرت كان اكثر من قائد عظيم فانه كان داهية من دهاة السياسة المحنكين يشعر بانه مقدر له ان يكون فاتحاً ومشترعا ، وان يبذل المجهود لاستثارة الميل اليه في أفئدة الشعوب بمقدار ما كان يستثير فيها من التعجب منه والاعجاب به ، وذلك بأن يذيع ان جلّ غايته من تلك الحرب انقاذه اياهم من أيدي الظلام ، ومعاقبته العتاة ، واحترامه لديانتهم وعاداتهم

وكان بونابرت على بعد عشرة فراسخ عن مدينة طورينو حين كان يتكلم بمثل هـذا الكلام المعتبر بمثابة مفتاح فتح في وجهه أبواب ايطاليا . فأثر في فؤاد ملك سردينيا حتى انه فاوضه مفاوضة علنية بعقد الصلح ، وقد ابتدأت تلك المفاوضة عند سلماطوريس قيم قصر الملك . ولما صار نابوليون امبراطوراً جعل سلماطوريس قيما لقصره . وعقدت في شيراسك الهدنة التي مر الكلام عليها ، ومن جملة شروطها ان ملك سردينيا ينسحب في الحال من المحالفة ويرسل الى باريس سفيراً مفوضاً اليه ابرام أسباب الصلح النهائي . فأجرى ملك سردينيا ذلك الشرط بالحرف ، لان جيش الجمهورية كان يضايقه عن كثب ولا يدع له مجالا للاخلاف بوعده . فأنفذ الكونت ريفل الى باريس مزودا اياه تعليمات سلمية . وأمضى بونابرت من قبله الضابط مورات الى باريس مفوضاً اليه ابلاغ أخبار الانتصارات المعتبرة مقدمة للحرب . وكتب الى الديركتوار

« اعقدوا الصلح مع ملك سردينيا بشروط الغالب على المغلوب . . . فان نويتم خلعه عن العرش فألهوه عدة أيام توقفوني في أثنائها على ما تكونون قد صممتم على اجرائه ، وأنا أفتح فالنسه وأزحف الى طورينو . وحين أظفر بيوليو أسير اثني عشر الف مقاتل الى رومية . . . »

واستقبل نواب الأمة هذه الرسالة بمنتهى الابتهاج والارتياح ، وقرروا للمرة الخامسة في خلال ستة أيام ان جيش ايطاليا استوجب الشكر والمنة من الوطن . وزاد في الفرح العام عقد الصلح مع ملك سردينيا في ١٥ مايو بشروط ملائمة كل الملائمة للمصالح الفرنسوية

ولما لم يبق أمام بونابرت سوى الجنود الامبراطوريين ليصليهم الحرب

راجع رأيه فيما اذا كان يجب عليه ان يحفظ خط تيزين أو ينتقل الى الاديج بالسرعة والجرأة اللتين القتا اليه بمقاليد أفضل المقاطعات في مملكة سردينيا في بضعة أيام وقد ذكر في «مفكرة القديسة هيلانة» الاسباب التي كانت عواملها تتجاذبه من كل جهة من الجهتين المذكورتين. فالرأي الاول مع ابتنائه على قواعد الحكمة والتعقل لم يكن ملائما لموقف الجمهورية الحديثة النشأة التي لم تكن تلقى منتدحاً عن التهويل على المحالفة الا بضربات متوالية، واتيان معجزات حربية متواصلة، ولا لموقف القائد الشاب الذي كانت أخلاقه ومطامعه تجعله يعقد عرى العزم على اتيان أمور تقتضي همة عالية واقداماً شديداً، وتسهل له تمهيد العقبات القائمة في وجهه. وزحف بونابرت بجنوده الى الامام بعد ما كتب للديركتوار. «غدا سأزحف لمقاتلة بوليو، وسأضطره للعودة على أعقابه واجتياز نهر البو، وسأعبره على أثره، واستولي على لمبارديا كلها. والامل اني سأصل الى جبال الطيرول قبل شهر من الزمان للانضمام الى جيش الرين والعمل معه على محاربة بافاريا.»

وكتب في ٩ مايو الى كارنو أحد أعضاء الديركتوار

«عبرنا نهر البو، وباشرنا الموقعة الثانية، فتوزعت بوليو المخاوف وصار يخطىء في حسابه، وينشب اني سار في الفخاخ المنصوبة له. وقد يكون ان هذا الرجل يريد ان يوقد سعير معركة جديدة، لان لهذا الرجل جرأة الحنق وليس جرأة الدهاء.... ومتى أوتينا النصر هذه المرة أيضاً نكون قد استولينا على جميع ايطاليا... وما غنمناه من العدو لا تحصى قيمته ولا يحصر ثمنه... وهاءنذا مرسل اليك عشرين صورة من صنع الكوريج وميكال انجلو

«أسدي لك الشكر على عنايتك الخاصة بزوجتي، فانا أوصيك بها لانها معروفة بصدق وطنيتها واخلاصها، وأنا أحبها محبة تقرب من الجنون.»

وأصاب بونابرت في غد اليوم الذي خط فيه هذه الرسالة الانتصار الذي كان يتوقعه والذي كان ينتظر من ورائه امتلاك ايطاليا. وقد صير هذا الانتصار اسم لودي أشهر من نار على علم

وكان هذا الانتصار بمثابة مقدمة لفتح لمبارديا. فسقطت في بضعة أيام في

أيدي الجنود الفرنسويين بتزيغيتون وكريمونا وجميع المدن الكبيرة في مقاطعة ميلانو.

وكان بونابرت وهو يسمع في معسكره قعقعة السلاح يهتم بالفنون من دون أن يرزح تحت أثقال الاعمال الحربية والسياسية ، ويطلب من الديركتوار ارسال مفوض من الصناع ليسلمه الكنوز الفنية الثمينة التي دخلت بالفتح في حوزته . وقد نبذ فيما بعد هذه الكنوز التي كان يستطيع الاستئثار بها .

ولم يقصر اهتمامه على الفنون وازدهارها بل كان يعنى أيضاً بكل ما يتعلق بنتاج العقل ومزاولة الآداب والعلوم ، ويعزز العمران الحديث وبعد عبوره نهر البو بخمسة عشر يوماً بين دوي مدافع لودي ودخان معركة مانطو انسحب من بين جنوده الذين كانوا يتزاحمون على تهنئته واكرامه في ميلانو وكتب للعالم أورياني المشهور بمعارفه الهندسية الرسالة التالية :

« الى الوطني أورياني »

« يجب أن يخصص محل في الحكومات الحرة للعلوم التي تشرف العقل البشري والفنون التي تزين الحياة وتنقل الاعمال العظيمة من السلف الى الخلف . فيعتبر جميع أصحاب الدهاء ، وجميع الذين أصابوا مكانة في جمهورية علم الادب اخواناً بقطع النظر عن البلاد التي نشأوا فيها

« لم يكن العلماء في ميلانو متمتعين بما يستوجبونه من الاكرام بل كانوا معتزلين في مختبراتهم ، وكانوا يعدون أنفسهم سعداء حين كانوا ينجون من شر الملوك وخدام الدين . وقد تغيرت الاحوال الآن وأطلق الفكر من عقاله في الديار الايطالية ، وأصبح ديوان التفتيش والاستبداد والتعصب الديني أثراً بعد عين . فادع العلماء الى الاجتماع وبسط آرائهم في الذرائع المقضي عليهم التذرع بها ، أو الحاجات التي يفتقرون اليها لاحياء موات العلوم والفنون الجميلة ولينهجوا منهاجاً جديداً . وجميع الذين يميلون منهم الى انتجاع فرنسا تستقبلهم حكومتها على الرحب والسعة ، فالشعب الفرنسوي يؤثر نيله عالماً رياضياً ومصوراً بارعاً ورجلاً ممتازاً مهما كانت الحرفة التي يزاولها على امتلاكه مدينة مشهورة بالعمران وكثرة السكان .

« فكن ياحضرة الوطني ترجمانا لهذه العواطف للعلماء الاعلام الذين في مقاطعة ميلانو — بونابرت — »

وكان القابضون بأيديهم على أزمة الشئون في الحكومة الجهورية ينظرون بعقلة التحذر الى ما كان بونابرت قد أوتيه من الحكم الصائب والذوق السليم والاستعداد الطبيعي الممتاز والهمة العالية مما يتناول كل شيء ويدل على دهاء واسع ، مع ان أصدقاء فرنسا كانوا ينظرون الى تلك الصفات بطرف الاعجاب وأعداءها بعين التعجب . وكان الديركتوار يرى خلفاً له في ادارة الاحكام في شخص المنتصر في منتنوت ولودي ، ويبذل المجهود لابعاد العهد الذي يتم فيه ذلك الامر وجرى في وهم الديركتوار انه يدرك غايته بضمه قائداً ثانياً الى ذلك القائد الداهية الذي برهن بسلسلة انتصارات غير منتظرة انه يستطيع العمل والانتصار وحده . ولم يخطيء ظن بونابرت في ما كان الديركتوار ينويه بتعيينه كلرمان معاوناً له ، وقد جاهر باستيائه من هذا الامر بكتاب سيره الى عضو من أعضاء الديركتوار كان هو يحترمه ويقدر أخلاقه وخدمه ومعارفه حق قدرها . ومن جملة ما كتبه في هذا الكتاب الذي أنفذه الى كارنو ماياتي،

« لا أمتري البتة في أن ضم كلرمان الي في ايطاليا يفضي الى فقدان كل شيء ، فلا أستطيع أن اضطلع بالخدمة مختارا بالاتحاد مع رجل يزعم أنه أول قائد في أوربا ، وفضلا عن ذلك اعتقد أن قائدا واحدا ضعيفاً يفوق قائدين محنكين فالحرب كالحكومة مسألة حكم صائب وذوق سليم »

وظل بونابرت بعد ارساله هذه الرسالة يعمل بما توحيه اليه افكاره ، ويجري مايرى اجراءه ملائما . ودخل مدينة ميلانو في ١٥ مايو باحتفال باهر نادر المثال حين كانوا يوقعون في باريس وثيقة الصلح التي أكرهت حكومة سردينيا على عقدها بعد معارك منتنوت وداغو ومليسيمو ومندوفي

ولم يجرؤ الديركتوار على وضع مقاصده موضع الاجراء بضم كلرمان الى بونابرت في تولي قيادة الجيش بل سمى كلرمان حاكما للاقاليم التي ضمت الى فرنسا بالوثيقة المبرمة بين الجمهورية الفرنسوية وملك سردينيا وبقي بونابرت وحده مستقلا بقيادة جيش ايطاليا

وكان اول أمر صرف بونابرت العناية اليه نقل مركز الحركات الحربية الى

الآديج واقامة الحصار حول مانطو . ولم يكن عدد الجنود الفرنسويين يزيد على ثلاثين ألفاً بيد أن جرأة قائدهم قذفت الذعر على افئدة رجال الحكومة النمسوية ، ففكرت حكومة فينا في الايعاز الى ورمسر بترك ضفاف الرين والانطلاق الى ايطاليا بنجدة قوامها ثلاثون الف جندي من أفضل جنوده

ولم يكن بونابرت يجهل ان المعارك اليومية والامراض المختلفة تودي بحياة فريق كبير من جيشه وتقلل عدده وتضعفه ، فكان يبسط بالاسهاب واقع الحال في التقارير التي يمضيها الى الديركتوار طالباً منه ارسال مدد اليه ، واصدار الاوامر الى جيش الرين باجراء حركات حربية خطيرة تلهي النمسويين عنه . وكتب بونابرت بعد انتصاره في لودي الى كارنو . « كنت أظن ان رحى القتال دائرة على الرين ، ولو طال اجل الهدنة لهلك جيش ايطاليا على بكرة ابيه ، فيجدر بالجمهورية ان توقع الصلح في قلب بافاريا او النمسا المدهوشة مع الجيوش الثلاثة المنضمة »

وكان يحق لبونابرت ان يطلب مناصرة جيشي الرين وسامبر وموز له لانهم كانوا قد وعدوه عند مغادرته لباريس بأن ذينك الجيشين لا يقومان بهذه المناصرة في منتصف شهر ابريل ولكنهما لم يتحركا الا في أواخر شهر يونيو ، على أنه لو أجرى ذانك الجيشان حركاتهما الحربية قبل ذلك الحين لما تسنى لورمسر أن يبرح المانيا ويصل الى ايطاليا بالنجدات التي قدمت معه .

ولم يصل الى بونابرت ما طلبه من المدد ، ويعزى السبب في تأخره الى عجز حكومة الديركتوار عنه أو الى سوء نيتها ، وحينئذ لم يلق القائد الفرنسوي ندحة عن مقاتلته بثلاثين الفاً جيشاً مؤلفاً من مئة الف محارب ، وقضت الحال عليه بأن يجد الوسائل التي تمكنه من اضعاف قوة العدو الكثير العدد ، فالفى في دهائه وحظه أكبر نصير في مثل ذلك الموقف الحرج . فتفنن في خطته الحربية من زحف وانسحاب وهجوم وتقهقر وحركات تدل على الجرأة والسرعة كان يأمل أن يفرق بها بين الجيوش الثلاثة ثم يضم اليه متفرق شمله ويقاتل كل جيش منها على حدة فيظفر به . وكان الفوز التام نتيجة لتدابير ذلك القائد الكبير وتحقيقاً لآماله . وقد عضده في أعماله القواد والجنود الجمهوريون بما أوتوه من الدهاء والشجاعة . وبينا ورمسر يظنه أمام مدينة مانطو خلى حصار



صورة رمزية للنصر يكلل نابوليون بونابرت



هذه المدينة وانتقل بسرعة البرق من البو الى الاديج ومن الكيازا الى المنشيو ، فكأنه يتوزع ويوجد في الوقت عينه على التقريب في مصادمة جميع فرق العدو. وقد وفق الى تمزيق شملها والظفر بها ظفراً مبيناً في وقائع متوالية أطلق عليها اسم « حرب الايام الخمسة » وجرت في صالو ولونادو وكستليونه الخ . وكان كوزنادوتش قائداً للنمسويين في معظم هذه الانكسارات ، وقد انكسر ورمسر عينه في وقعة كستليونه

واليك تفصيل هذه الحرب على ما لخصها القائد الظافر وهو في ساحة القتال وأرسلها الى الدير كتوار في ١٩ ترميدور من السنة السادسة (٦ أوغسطس سنة ١٧٩٦)

« وصل من أيام العشرون الف رجل المرسلة من جيش الرين النمسوي نجدة لجيش ايطاليا ، فأصبح هذا الجيش منيع الجانب بانضمام هذه الجنود اليه والى عدد كبير من الفصائل القادمة من النمسا . وقد قام في ذهن السواد الاعظم من الناس ان النمسويين لا يلبثون أن يدخلوا مدينة ميلانو . . .

« ولما انحدر الاعداء من الطيرول بطريق بريسيا والاديج أحاطوا بي من الجانبين ولا يخفى أن الجيش الجمهوري وان يكن ضعيفاً الى درجة لا يتسنى له معها مصادمة فرق العدو كان يستطيع أن يواقع كلا منها على حدة . فقضت علي الاحوال أن يكون مركزي في الوسط . وكان ميسوراً لي بتقهقري بسرعة تطويق فرقة الاعداء النازلة من بريسيا وأسرها والظفر بها ، والعودة من هناك الى المنشيو لمقاتلة ورمسر واجباره على العودة الى الطيرول الا أن اجراء ذلك كان يقتضي رفع الحصار عن مانطو بمدة اربع وعشرين ساعة وكانت هذه المدينة قد اوشكت أن تسقط فى حوذتنا ولم يكن من سبيل للتأخر ست ساعات . وكان ذلك الأمر يقتضي عبور المنشيو في الحال والحيلولة دون تمكين فرق العدو من الاحاطة بي . وآتى الحظ ذلك التدبير فكان من نتيجته معركة دتزنتزانو ومعركة صالو ومعركة لونادو ومعركة كستليونه . . .

« والتقينا بالعدو في ١٦ منه عند الفجر . وتلقى الجنرال غيو في ميسرتنا أمراً بالهجوم على صالو . وكان مقضياً على الجنرال ماسينا في الوسط ان يهجم على لونادو وأوعز الى الجنرال أوجرو في الميمنة بأن يهجم على كستليونه .

وهجم العدو على طليعة ماسينا في لونادو بدلا من ان ينتظر الهجوم عليه . وكانوا قد أحاطوا بها وأسروا الجنرال ديجون وغنموا منها ثلاثة مدافع من البطاريات التي تجرها الخيل ، فتألفت حينئذ من نصف الفصيلة الثامنة عشرة والفصيلة الثانية والثلاثين كتيبة متلازة ، و بينا نحن نهجم على العدو مبتغين خرق صفوفه كان هذا العدو يمتد شيئاً فشيئاً ليكتنفنا ، وقد بانت لي حركاته ضامناً حقيقياً لنيل الغلبة ، وسير ماسينا بعض الرماة الى جناحي العدو ليثبطه عن التقدم ووصلت الكتيبة الأولى الى لونادو وأغارت عليه ، وهجمت الفصيلة الخامسة عشرة من الدراغون عليه واسترجعت منه مدافعنا . وما عتم ان أصبح ممزق الشمل ، فأراد ان ينسحب الى المنشيو ، فأمرت في الحال جونو حاجبي بأن يتعقبه زاحفاً اليه بفصيلة الهداة حتى يدركه في دترنتزانو ، فالتقى بالكولونل بندر وقسم من فصيلته وهجم عليه ولكنه لم يشأ ان يضيع الوقت بالهجوم على مؤخرة العدو بل دار حوله من جهة اليمين وأغار على المقدمة فجرح الكولونل بندر وهم باسره ولكنه أبصر العدو يحيط به ، فتلقاه بقلب كالجلمود وقتل منه بيده ستة جنود ، وخانه الجد فسقط في أحد الخنادق مصاباً بستة جروح بالسيف ، وقد أخبرت انه لا يزال حياً يرزق .

« وكان العدو ينسحب نحو صالو ، وحيث ان صالو كانت في حوذتنا تمكنا من أسر تلك الفصيلة الهائمة على وجهها في الوهاد والآكام . وكان أوجرو في أثناء ذلك الحين يزحف الى كستليونه فاستولى عليها وظل سحابة نهاره يواقع عدواً تفوق قوته ضعفي قوته . وقد قام المدفعيون والمشاة والفرسان خير قيام باعباء الواجب عليهم ، وانكسر العدو شر كسرة في كل جهة في ذلك اليوم المشهور ، وفقد عشرين مدفعاً ، والفي رجل الى ثلاثة آلاف رجل بين قتيل وجريح ، وأربعة آلاف أسير بينهم ثلاثة قواد . .

« وكان ورمسر سحابة اليوم السابع عشر مهتماً بلم فلول جيشه ، وايصال الجند الاحتياطي ، واخراج ما يمكن اخراجه من مدينة مانطو ، وصف رجاله للقتال في السهل بين قرية سكانلو حيث كانت ميمنته والكيازا حيث كانت ميسرته

« ولم يكن حظ ايطاليا قد تقرر بعد نهائياً ، فجمع فيلقاً قوامه خمسة

وعشرون الف محارب ، وعدداً كبيراً من الفرسان ، وتوهم انه لايزال قادراً على التمرس بالبخت . فأصدرت الأوامر بضم متفرق جميع كتائب جيشنا .

« وتوجهت بذاتي الى لونادو لارى ما يمكنني أخذه منها من الجيش. ولشد ما كان دهشي عنـد دخولي هذا المكان حين وافاني مندوب من قبل العدو يدعو قومندان لونادو الى التسليم مهولا عليه باحاطة جيش العدو به من كل جهة . والحق يقال ان ديادبة فرساننا أخبروني ان عدة كتائب من الاعداء كادت تتمرس بخفرائنا ، وان طريق بريسيا عندلونادو كان مسدوداً في جهة جسر سان ماركو . فجال في خاطري على الفور ان أولئك الجنود لم يكونوا سوى فلول الفصيلة المتقطع نظامها وانهم بعد ما تاهوا ضموا متصدع شملهم وعمدوا الى اختراق صفوفنا مجتازين الى الوجهة التي توخوا المسير اليها

« وأبهم عليّ الأمر لانه لم يكن معي في لونادو سوى الف ومائتي رجل ، فأمرت بالمندوب ان يمثل أمامي وعلى عينيه عصابة ، وقلت له . اذا كان قائدكم يطمع بالقبض على قائد جيش ايطاليا فما عليه الا أن يسرع في التقدم ويجب عليه ان يعلم اني أنا الآن في لونادو لان جميع الناس يعلمون ان جيش الجمهورية فيها، وان جميع قوادكم وضباطـكم مسؤولون عن الاهانة الشخصية التي وجهها قائدكم الاكبر اليّ . وقلت له أيضاً ، اذا لم تسلم فرقتكم سلاحها في خلال ثماني دقائق فلا أشفق على أحد منها .

« فدهش المندوب من رؤيتي في ذلك المـكان ، وما كان الا دقائق حتى سلمت تلك الفرقة سلاحها، وكانت مؤلفة من أربعة آلاف جندي معهم مدفعان وخمسون فارساً ، وقد قدمت من غافاردو باحثة عن معبر تنجو به . ولما لم يتيسر لها العبور بطريق صالو في الصباح تخيرت العبور بطريق لونادو .

« وقابلنا الاعداء عند فجر اليوم الثامن عشر وكانت الساعة السادسة صباحا ومع ذلك لم يكن أحد يتحرك . فجعلت جميع الجيش يتقهقر رغبة بجر العدو الينا ، وجاء في خلال ذلك الحين من مركاريو الجنرال سروريه وكنت أنتظر قدومه ، ودار حول ميسرة ورمسر . وكان من وراء تلك الحركة قسم من النتيجة المنتظرة فـكان ورمسر يميل الى ميمنته ليراقب حركاتنا .

« ولما لمحنا فصيلة الجنرال سروريه بقيادة الجنرال فيورلا تهجم على الميسرة

أمرت الجنرال فردیار بالهجوم على حصن شيده العدو في وسط السهل دفاعاً عن ميسرته . وأوعزت الى مرمون حاجي أن يصوب على الاعداء عشرين مدفعاً من المدافع الخفيفة ، ويضطرهم الى ترك ذلك الموقع الخطير . واضطرت ميسرتهم الى الانسحاب بعد اطلاق القنابل عليهم اطلاقاً عنيفاً وهجم أوجرو على وسط جيش العدو الحامي ظهره ببرج سلفرينو ، وهجم ماسينا على الميمنة ، وزحف الجنرال لكلرك بنصف الفرقة الخامسة لنجدة نصف الفرقة الرابعة .

« وزحف جميع الفرسان بقيادة الجنرال بومون الى الميمنة لنجدة المدفعية الخفيفة والفرسان ، وكان النصر محالفاً لنا في كل مكان

« وغنمنا من الاعداء ثمانية عشر مدفعاً ومئة وعشرين صندوقاً من الذخائر، وتقدر خسارتهم بألفي رجل بين قتيل وأسير . وقد انكسروا انكساراً تاماً ، الا أن جنودنا الرازحين تحت أثقال الاعياء لم يتمكنوا من تعقبهم أكثر من ثلاثة فراسخ . وقتل من جيشنا الجنرال فرونتان وهو يبلي بالاعداء بلاء حسناً

« وانجزنا أيضاً حرباً جديدة في مدة خمسة أيام ففقد ورمسر في أثنائها سبعين مدفعاً وجميع صناديق مشاته ، وأسر من رجاله أثنا عشر الفاً الى خمسة عشر الف جندي ، وقتل وجرح منهم ستة آلاف ، وفقد على التقريب جميع الجنود الذين قدموا من الرين وفضلا عن ذلك تمزق شمل عدد كبير منهم ، ونحن نعثر عليهم في أثناء تعقبنا لهم وقد أبدى جميع الضباط والجنود والقواد شجاعة عظيمة في موقفنا الحرج . . . »

واثارت تلك الحوادث الغريبة دفين الحماسة في قلوب الايطاليين الذين اظهروا ميلا شديداً الى الثورة الفرنسوية . وانخلعت قلوب انصار النمسويين الذين جاهروا بالابتهاج عند قدوم ورمسر ، وشاطروا الامبراطوريين تشامخهم واتكلوا على وفرة عددهم وجعلوا يحتفلون قبل الميعاد بظفرهم واخراج الفرنسويين من ايطاليا . وكان الكردينال ماتاي رئيس اساقفة فراري من جملة اولئك المغترين ، فلم يقف عند حد الابتهاج بقدوم النمسويين وانكساراتنا الوهمية التي كانوا يعللون النفس بها بل جعل القوم الممتدة فوقهم ألوية سلطته السامية يأتون اعمالا عدائية نحو الجيش الفرنسوي . وبعد معركة كستليونه امر بونابرت بتوقيفه وارساله الى بريسيا . ولما أخفقت مساعي ذلك الكردينال الثورية

واندحر أصحابه تذلل أمام الظافر وطلب منه الصفح والمغفرة . فمنحه بونابرت سؤله واكتفى بحبسه ثلاثة أشهر في مدرسة أكليريكية ، وكان ذلك الكردينال قد ولد أميراً رومانياً . وخوله الكرسي الرسولي من ذلك الحين سلطة واسعة في طولنتينو .

ولم يكن كبار رجال الدين في ايطاليا ينظرون الى فرنسا بالعين التي كانت الامة الايطالية تنظر بها اليها ، وقد لقيت الثورة الفرنسوية عدداً كبيراً من الانصار في البيامنت ولمبرديا والليغاسيون ، وأظهر الميلانيون ميلا شديداً الى الراية المثلثة الالوان ، فقابل القائد الفرنسوي الاكبر ذلك الميل بالشكر وكتب اليهم ما يأتي :

« لما انسحب جيشنا الى الوراء توهم بعض مريدي النمسا وأعداء الحرية انه هلك ولم يبق من أمل بنجاته . وحين لم يكن مستطاعاً لكم أن تتوهموا بأن ذلك الانسحاب لم يكن سوى خدعة حربية أبديتم تعلقاً بفرنسا وحباً للحرية ، وغيرة ومروءة استوجبتا لكم الاحترام من الجيش والحماية من الجمهورية الفرنسوية ، ويزداد استحقاق شعبكم للحرية كل يوم ، ويقتبس نشاطاً كل يوم ، وسيظهر يوماً من الايام بمجد عظيم على ملعب العالم . فاقبلوا فائق رضائي وتمنيات الشعب الفرنسوي الصادقة ليشاهدكم راتعين في بحبوحة الحرية والغبطة »

ولم يقف بونابرت عند هذا الحد بمجاهرته لهم بالتهانيء بل استفاد من حماستهم وحسن استعدادهم حباً لمصلحتهم ومصلحة الجمهورية الفرنسوية ومصلحة التحرير العام بتنظيمه الثورة في ما وراء الالب وأنشأ جمهوريتين في هاتيك الاصقاع . ولم تثبطه هذه الانشاءات المهمة التي كان يجريها على عجلة بانتقاله من ميدان الى آخر عن مواصلة الحرب بشدة عظيمة . ولم يكد ينجو من الجيش اللهام الذي فوضت اليه حكومة فينا طرد الفرنسويين من ايطاليا حتى شدد في محاصرة مانطو من دون أن يتمكن ورمسر من نجدتها بالجنود والذخائر إلا في اليوم الذي استولى فيه الفرنسويون على ليغنياغو (في ١٣ سبتمبر) بعدما اندحر في عشر وقعات . وهي في ٦ أغسطس في بسشيارا ، وفي ١١ منه في الكورونا ، وفي ٢٤ منه في برغو فرتي وغوفرنالو ، وفي ٣ سبتمبر في سرافالي ، وفي ٤ منه

في روفيريدو، وفي ٥ منه في ترنتي ، وفي ٧ منه في كوفولو، وفي ٨ منه في باسانو، وفي ١٢ منه في سركا .

وفي غد اليوم الذي دخل فيه ورمسر مانطو تمزق شمل بقايا جيشه في دوي كستلي ، واجهزت معركة سان جورج في ١٥ سبتمبر على ما بقي من الجيش الامبراطوري .

ولم تهمل حكومة فينا ورمسر في موقفه الحرج فقد كان العاهل النمسوي يعده من أشد قواده حنكة وأكثرهم خبرة ، وكان يعلم أيضاً أن مانطو مفتاح ولاياته ، وبذلوا من جراء ذلك في فينا منتهى الجد للتعويض عن النكبات التي توالت على البعثة الاولى ، وأرادوا أن يدبروا بتخليص مانطو وورمسر ما كان يسميه الملوك وأنصار الارستوقراطية في أوربا « خلاص ايطاليا » .

وتألف جيش امبراطوري جديد قوامه ستون الف مقاتل خف لنجدة مانطو بقيادة المارشال دالفنزي .

ولما انتهى الى بونابرت نبأ زحف ذلك الجيش جعل يتذمر بمرارة من عدم اكتراث حكومة الجمهورية للعمل بآرائه في جهات الرين حيث كانت قوات الجمهورية كافية لالهاء الامبراطوريين . وكان قد كرر طلب ارسال النجدات اليه من دون أن يستجاب طلبه . ورأى مع دوام ثقته بنفسه وبجنوده أنه يجب عليه أن يوقف الديركتوار على مخاوفه من نتيجة الحرب الجديدة ليفهم الحكومة الفرنسوية بصريح العبارة تقصيرها الفاضح نحو جيش ايطاليا باهمال أمره وهو في عنفوان انتصاراته العديدة :

« من المقضي عليّ أن أؤدي لكم حساباً عن الحركات التي جرت من اليوم الحادي والعشرين من هذا الشهر ، فان لم تجدوا ذلك على ما تبتغون فلا ينبغي لكم أن تنسبوا سبب التقصير الى الجيش ، ان قلة عدده وهلاك عدد كبير من رجاله الاشداء يحملاني على الخوف عليه ، وقد نكون أوشكنا أن نفقد ايطاليا ، فلم تسافر نصف الفرقة الثالثة والثمانين حتى الآن ، وبقيت جميع النجدات الآتية من الولايات في ليون وخصوصاً في مرسيليا . وهم يظنون انه لا بأس من بقائهم هناك ثمانية أيام أو عشرة أيام ، ولا يعلمون أن حظ ايطاليا وأوربا يتقرر هنا في أثناء الوقت المذكور . فقد تحركت الامبراطورية جميعها

ولا تزال متحركة ، وتجعلنا الهمة التي صرفتها حكومتنا في مفتتح الحرب نتصور ما هو جار الآن في فينا . فلا يمضي يوم الا ويصل فيه الى هنا خمسة آلاف جندي من النمسويين، وقد بسطت من شهرين حقيقة حالنا وحاجتنا الى المدد ومع ذلك لم يصل اليّ سوى فصيلة واحدة من الكتيبة الاربعين مؤلفة من جنود لم يتعودوا خوض غمار الحرب ، وأما جميع جنودنا الأقدمين الذين أوقدوا سعير الهيجاء في ايطاليا فانهم يقضون أوقاتهم في الراحة في الفصيلة الثامنة . أنا أقوم باعباء ما يجب عليّ ، والجيش ينهض بما انتدب اليه . ونفسي تتوزعها المخاوف بيد ان ضميري مستريح . المدد ، المدد ! أرسلوا الي مدداً . لم يبق من وجه للاستخفاف بالامر ، فنحن لا نحتاج الى جنود ليس لهم من الجندية سوى الاسم ، بل نحن محتاجون الى جنود تعودوا لقاء الاعداء . تنبئوني انكم مرسلون اليّ ستة آلاف رجل ووزير الحرب ينبيء أيضاً انه مرسل ستة آلاف جندي عاملين وثلاثة آلاف جندي تحت السلاح وسيصبح عددهم عند وصولهم الى ميلانو الفاً وخمسمائة رجل ، وعليه لا يزيد عدد نجدة الجيش على الف وخمس مئة رجل .

« الجرحى نخبة الجيش ولم يبق ضباطنا وقوادنا المجربون قادرين على مباشرة القتال ، وجميع الذين ترسلونهم الينا متناهون في البلاهة ، والجنود الذين عندي غير واثقين بكفاءتهم . وكاد جيش ايطاليا بعد ما نقص عدده نقصاناً عظيما يصير الى الفناء ، واغتالت المنية فريقاً من الابطال الذين اشتهروا في لودي ومليسيمو وكستليونه وباسانو فقضوا شهداء في سبيل الوطن ، والفريق الآخر ملقى على الاسرة في المستشفيات ، ولم يبق عندنا منهم سوى شهرتهم وأنفتهم وقد جرح جوبير ولانولانوس وفكتور وموراتوشارلوت ورمبون ودوبوي وبيجون وميناروشبران . وتركنا في أقصى ايطاليا ، وكان لي جرمنهم من وراء الدعوى بأننا أشداء ، وينشرون في باريس نشرات رسمية تدل على اننا لسنا سوى ثلاثين الفاً

« فقدت في هذه الحرب عدداً نزراً من الناس ولكنهم جميعهم من نخبة الرجال ويتعذر علينا ان نلقى من يسد مسدهم . والذين بقوا من الشجعان ينظرون الموت قادماً اليهم ولا محالة في المعارك المتواصلة [illegible] من القرانات [illegible] .

وربما دنت ساعة أوجرو الشجاع وماسينا الباسل وبرتيه و . . . فماذا يلم بهؤلاء الاسود ؟ ويجعلني هذا التصور كثير التحفظ ويثبطني عن التغرير بنفسي ومصادمة الحمام لئلا يكون مصرعنا سبباً لقنوط ونكبة الذين التمس منهم امدادنا بالنجدات اللازمة

« وسنفرغ بعد أيام مجهودنا في مقاتلة الاعداء ، فاذا افتر لنا ثغر الحظ سقطت في أيدينا مانطو ومعها ايطاليا . ولا أدع شيئاً من الاشياء الا وأعالجه بمعاونة جنودي المحاصرين . ولو كانت الفصيلة الثالثة والثمانون قد وصلت الي وقوامها ثلاثة آلاف وخمس مئة جندي وجميعهم من الرجال المجربين لكنت بلغت بهم غاية أماني ، وقد لا تكفيني بعد أيام قليلة نجدة مؤلفة من أربعين الفاً »

الا ان المخاوف التي كانت تجول في خاطر بونابرت لم تتحقق ، فشاء الحظ ان يخالصه هذه المرة أيضاً

وقد سهل على بونابرت ان يهدم في بضعة أيام صروح الامال التي بنتها المحالفة الجرمانية على شهرة دالفنزي وكثرة عدد جنوده فتسعرت مواقد معركة دامت ثلاثة أيام وانتهت بالانتصار الباهر في أركول ، وقد امتاز الجنود الفرنسيون بشجاعة فشل من توخى فل حدها من قواد وجنود النمسا الذين شابت نواصيهم في ساحة القتال . ورأى بونابرت رجاله في هذه المعركة يترددون هنيهة من الزمان في اقتحام نيران العدو المحتل مراكز منيعة ، فترجل وتناول راية واندفع على جسر أركول المتكدسة فوقه جثث القتلى وصاح بملء فيه . « أيها الجنود أولستم أبطال لودي ؟ الحقوني ! » وحذا أوجرو حذوه . ولم يكن عمله هذا خالياً من التأثير في جنوده ، فغنموا من العدو ثلاثين مدفعاً وأسروا منهم خمسة آلاف جندي وقتل من رجال دالفنزي ستة آلاف مقاتل . وأجبر داويدتش على التقهقر الى التيرول ، وورمسر على العودة الى مانطو .

وها نحن نبسط كيف كان ذلك الظافر في جميع الحروب الالمانية يبدي مسرته وابتهاجه بأعماله ، وكيف كان يروح الخاطر من متاعبه وعناء انتصاراته باظهاره لزوجته حناناً شديداً . وهذا ما كتبه الى جوزفين وهو في فيرونا

« ياجوزفين المحبوبة ! قد تمكنت آخرا من الانتعاش ولم يبق الموت نصب عيني بل صار المجد والشرف يفعمان فؤادي ، فقد انكسر العدو في اركول ،



نابوليون بونابرت على جسر اركول



وسنصلح غداً ماأفسده فوبوى بتركه ريفولي . وستصبح مانطو بعد ثمانية أيام في حوذتنا ، وسأبرهن لك عن قريب بأنواع شتى وأنا بين ذراعيك عن محبتي الشديدة لك ولا أتأخر عن التوجه الى ميلانو حالما تمكنني الاحوال . أشعر بشيء من التعب ، وقد انتهت الي رسالة من أوجين وهورتنس ، فهما ولدان متناهيان في اللطف . وحين ينضم الي أعضاء بيتي المتبدد شملهم أبادر الى ارسالهم اليك »

« لقد أسرنا خمسة آلاف رجل ، ولا يقل عدد قتلى الاعداء عن ستة آلاف . الوداع ياجوزفين المحبوبة ، أكثري من الافتكار بي ، فان أنت لم تحبي اخيلك ، وان بردت محبتك له استوجبت النفور وركبت مركب الظلم ، ولكنني موقن بأنك ستظلين خليلتي كما أني سأظل خليلك . فالموت وحده يستطيع أن يصرم أسباب الاتحاد التي ابرمها بيننا الوداد والحب ولطف العواطف ، واصليني بأخبارك ، واقبلي مني ألف وألف قبلة »

وأنفذ ذلك القائد الظافر في اليوم عينه وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر برومار (في ١٩ نوفمبر) أي في اليوم الذي نشبت فيه معركة أركول رسالة الى الديركتوار أوقفه فيها على ماجرى في ذلك اليوم المشهور :

« ظن العدو ان مصلحته تقتضي اخلاءه قرية اركول ، فتوقعنا عند تبلج الفجر أن يهجم علينا جيشه برمته لتوفر الوقت له لاخراج امتعته ومدافعه والرجوع الى الوراء لملاقاتنا .

« واشتبك القتال عند تباشير الصبح في كل جهة بعنف شديد ، فهزم ماسينا الذي كان في الميسرة العدو وتعقبه حتى أبواب [illegible] الجنرال روبير الذي كان في الوسط بفصيلته الخامسة والسير نحو العدو [illegible] وقطع نظامه بعد ما غطى وجه الارض بالجثث وأمرت الماجور فيال أن يسير على شاطىء الاديج بنصف فصيلة ليدور حول ميسرة العدو ، ولكن لقينا في هذه البلاد مصاعب يعز تذليلها ، فقد غاص هذا الضابط الشجاع في الماء الذي كان يغمره حتى العنق من دون أن يجني من وراء ذلك الامر فائدة تذكر ، ومن دون أن يلهي العدو كما كان المأمول منه . وأمرت في ليل ٢٦ الى ٢٧ ببناء جسورة على الترع والمستنقعات ، فعبر عليها الجنرال أوجرو بفصيلته . وانضم شملنا في

الساعة العاشرة صباحاً فكان الجنرال ماسينا في الميسرة ، والجنرال روبير في الوسط ، والجنرال أوجرو في الميمنة . وحمل العدو حملة صادقة على الوسط فتزلزلت أقدام جنودنا ، فأخذت الفصيلة الثانية والثلاثين من الميسرة وأقمتها كميناً في الاحراج . ولما هجم العدو بشدة على الوسط وكاد يحيط بميمنتنا خرج الجنرال غردان من كمينه حاملا على كشح العدو وقتل منه مقتلة عظيمة . وأما ميسرة العدو فانها كانت مستندة الى مستنقعات ، وكانت كثيرة العدد ، فتهيبتها ميمنتنا . فأوعزت الى الوطني هرقل ضابط هداتنا بأن ينتخب خمسة وعشرين رجلا من فصيلته ويسير على شاطىء الآديج مسافة نصف فرسخ دائراً حول جميع المستنقعات المستندة اليها ميسرة العدو ، ويهجم عليه من الوراء شاناً الغارة ونافخاً بأبواق عديدة . فكان من وراء تلك الخدعة نجاح باهر ، فتضعضع المشاة وتمكن الجنرال أوجرو من اغتنام الفرصة من تلك الحركة ، ومع ذلك ثابروا على الدفاع وهم ينسحبون ، وكنت قد سيرت من بورتو ليناغو فصيلة مؤلفة من ثماني مئة رجل الى تسع مئة رجل ومعها أربعة مدافع وأوعزت اليها أن تحتل موقعاً وراء العدو ، فأجهزت هذه الفصيلة عليه وهزمته .

« إلا أن الجنرال ماسينا الذي حمل على وسط العدو زحف تواً الى قرية اركول واستولى عليها ، وتعقب العدو حتى قرية بونيفاسيو ولكن حال دخول الليل دون مواصلة توغلنا

«وأبدى قواد وضباط أركان الحرب إقداماً وبأساً نادرين . فقتل منهم اثنا عشر رجلا أو خمسة عشر رجلا . وكانت تلك المعركة هائلة جداً ، وقد تمزقت ثيابهم بالقنابل . »

وعالج دالفنزي النهوض من كبوته ، فعاد ومعه بروفيرا بطريق مضايق الطيرول إلا أن هذه الحركة الجديدة لم تكن سوى وسيلة أخرى لانتصار الجيش الفرنسوي وقائده . فظل النصر في معركة ريفولي ووقعتي سان جورج والفافوريت موالياً للراية الجمهورية ، فأكره بروفيرا وفيلقه على التسليم أمام عيني ورمسر الذي سلم مدينة مانطو بعد قليل من الحين وخرج منها .

واليك ما كتبه بونابرت بهذا الشأن الى أركان حربه في روفوربلو بتاريخ ٢٨ و ٢٩ نيفوز سنة ٥ (١٧ و ١٨ يناير سنة ١٧٩٧) .

« مدّ العدو فجأة في ٢٤ نيفوز جسراً على انغياري ، فعبرت عليه طلائعه على مسافة فرسخ من بورتو ليناغو . وأخبرني الجنرال جوبير ان كتيبة كثيرة العدد من كتائب الاعداء كانت تزحف بطريق منتانا مبتغية الاحاطة بطليعة فصيلة في الكورونا . وبانت لي دلائل عديدة جعلتني أدرك غاية العدو الحقيقية ، فلم أبق مرتاباً البتة في انه طامع بالهجوم بقواته العظيمة على خط ريفولي ليتمكن من الوصول الى مانطو ، فسيرت في الليل معظم فرقة الجنرال ماسينا وسريت بنفسي الى ريفولي فبلغتها بعد نصف الليل بساعتين . وجعلت في الحال الجنرال جوبير يحتل موقع سان ماركو المنيع ، ونصبت المدافع على بطاح ريفولي ، وهيأت كل شيء يسهل علي عند طلوع النهار الهجوم على العدو هجوماً هائلا

« والتقت ميمنتنا عند تباشير الصباح بميسرة العدو على مرتفعات سان ماركو فكان القتال عنيفاً . وكانت رحى الحرب قد دارت من ثلاث ساعات ولم يقابلنا العدو بجميع قواته . فزحف تواً الى ريفولي للاستيلاء عليها فيلق من العدو سار على ضفة الآديج تحميه مدافع عديدة ، وهددنا بأن يحيط بميمنتنا وسطنا ، فأمرت لكارك قائد الفرسان بأن يهجم على العدو اذا تمكن هذا من الاستيلاء على بطاح ريفولي ، وأرسلت لاسال بخمسين فارساً من الدراغون لمهاجمة كشح مشاة العدو وكانوا يقاتلون وسطنا وأنزل الجنرال جوبير من مرتفعات سان ماركو بضع فصائل كانت منتشرة على بطاح ريفولي ، فرأى العدو وقد أوغل في تلك البطاح انهم يهاجمونه من كل جهة ، وانه خسر عدداً كبيراً من القتلى وشطراً من مدفعيته ، فعاد الى وادي الآديج وتهيأ في الحين عينه للقتال وراءنا الفيلق الذي كان يزحف من وقت طويل ليحيط بنا ويقطع علينا خط الرجوع من كل جهة . وكنت قد ادخرت الكتيبة الخامسة والسبعين للاحتياط فلم تكتف بالقاء الهيبة في قلوب الاعداء بل هجمت على ميسرتهم لما تقدمت وهزمتها في الحال ووصلت في أثناء ذلك الحين نصف الفصيلة الثامنة عشرة وكان الجنرال راي قد احتل به موقعاً من المواقع خلف الفيلق المحيط بنا . فأطلقت لساعتي على العدو مدافع من عيار ١٢ ، وأمرت بالهجوم ، فأسر ذلك الفيلق المؤلف من أربعة آلاف رجل في أقل من ربع ساعة .

« وكنا في كل جهة نتعقب الأعداء المتضعضع نظامهم ، فكانوا كل الليل

يأتوننا بالأسرى ، وقد هرب بطريق الغاردا الف وخمس مئة رجل فالتقاهم خمسون رجلا من الفصيلة الثامنة عشرة ، ولما عرفوهم حملوا عليهم بجرأة وأمروهم بطرح سلاحهم

« وكان العدو باقياً في الكورونا بيد اننا لم نكن نخشى شره ، وكانت الحال تقضي علينا بالاسراع في الزحف الى فصيلة الجنرال بروفيرا وقد عبرت نهر الآديج في ٢٤ عند انغياري . فأمرت الجنرال فكتور بالمسير بالفرقة السابعة والخمسين المشهورة بالبسالة والاقدام ، وجعلت الجنرال ماسينا ينسحب ، وكان قد وصل في ٢٥ الى روفربلو بقسم من فصيلته

« وأمرت الجنرال جوبير عند انطلاقي بأن يهجم عند طلوع الفجر على العدو حين يرى ان الجرأة تدفعه الى البقاء في الكورونا

« وسرى الجنرال مورات الليل كله ومعه نصف فرقة من المشاة السريعي السير ليتمكن من الوصول عند الصباح الى مرتفعات منتيبالدو المشرفة على الكورونا . ودحر العدو بعد عراك عنيف وأسر منه من نجوا من معركة اليوم السابق ، ولم ينج الفرسان الا باجتيازهم نهر الاديج سباحة ، وقد غرق كثيرون منهم فيه

« وأسرنا ثلاثة عشر الف مقاتل في اليومين اللذين أصلينا فيهما العدو ناراً حامية في ريفولي وغنمنا منه تسعة مدافع »

وأودع بونابرت تقريره هذا بيان ماجرى في وقعات سان جورج وانغياري والفافوريت مع الجنرال بروفيرا : « وفي معركة انغياري الثانية دنا قائد من قواد النمسويين من أحدى فرق كوكبة الدراغون التاسعة وجعله التصاف المألوف عند بني قومه يخاطب الفرنسويين صائحاً بملء فيه . «سلموا» فأوقف دوفيفيه جنوده وقال للقائد النمسوي . اذا كنت شجاعاً فادن مني وألق القبض عليّ . فوقف الجيشان ونزل القائدان للمبارزة ، فجرح القائد النمسوي جرحين بسيف القائد الفرنسوي ، فاشتبك الفريقان ودارت الدائرة على النمسويين فسقطوا أسرى بأيدي خصومهم . . .

« وهجم الاعداء على الفافوريت قبل طلوع فجر اليوم السابع والعشرين بساعة من الزمان حين كان ورمسر يهجم على خطوط الحصار من جهة سان انطوان.

وكان الجنرال فكتور وهو في مقدمة نصف الفرقة السابعة والخمسين يبطش بكل من يعثرعليه في طريقه . ولم يكد ورمسر يخرج من مانطو حتى أكره على العودة اليها بعد ماترك في ساحة القتال عدداً كبيراً من القتلى والاسرى . وأمر سروريه الجنرال فكتور بأن يتقدم بنصف الفرقة السابعة والخمسين ليتسنى له التضييق على بروفيرا في دسكرة سان جورج وابقاؤه اياه محصوراً فيها . وكان الاضطراب سائداً في صفوف الاعداء فاختلط الفرسان والمشاة والمدفعيون بعضهم بالبعض الآخر ، ولم يكن شيء من الاشياء قادراً على الوقوف في وجه نصف الفرقة السابعة والخمسين ، فغنمت من الجهة الواحدة ثلاثة مدافع ، والجأت من الجهة الاخرى كوكبة فرسان هردندي الى التسليم ، فحينئذ طلب الجنرال بروفيرا الاستسلام متكلا على كرم أخلاقنا ، فلم يخب ظنه ، وقد رضينا بالتسليم بالشروط المرسلة اليكم صورة عنها . وأصبنا في ذلك اليوم المشهور ستة آلاف أسير بينهم جميع متطوعي فينا ، وغنمنا عشرين مدفعاً

« وانتصر جيش الجمهورية في خلال أربعة أيام في معركتين منظمتين وست وقعات ، واسر نحو خمسة وعشرين الف جندي بينهم قائمقاما جنرال وجنرالان وكولونيل ، وقتل وجرح نحو ستة آلاف رجل

« ولم يلق ورمسر بداً من التسليم بعد جميع النكبات التي لقيها فعلم أن حصار مانطو سينتهي كما انتهت جميع أعمال جيش الجمهورية

« ولما دار البحث على تسليم المدينة المحاصرة أنفذ القائد النمسوي حاجبه الأول الجنرال كلينو الى مركز الجنرال سروريه في روفربلو ، الا أن الجنرال الفرنسوي لم يشأ الخوض في مجال البحث في أمر من الامور من دون استنزال القائد الاكبر عن رأيه فيه

« وشاء بونابرت أن يشهد تلك المفاوضة وهو متنكر ، فجاء الى روفربلو متجلبباً بردائه ، فجلس على منضدة وجعل يكتب وقت ما كان كلينو وسروريه يتفاوضان . وكان يكتب الشروط على الهامش مضيفاً اليها اقتراحاته على ورمسر . ولما فرغ قال للجنرال النمسوي الذي كان يظنه كاتباً من كتاب أركان الحرب . « اذا كان عند ورمسر مؤونة لاتكفيه أكثر من ثمانية عشر يوماً أو عشرين

يوماً ، وكان يطلب الاستسلام فلا يستوجب والحالة هذه أقل مراعاة في استسلامه فاليك الشروط التي أضعها له »

« قال بونابرت هذا الكلام وناول سروريه الورقة التي كان يكتب عليها » ثم التفت الى كلينو وقال له . « ستقرأ فيها أن حريته الشخصية تكون مضمونة له ، فأنا أحترم شيخوخته ومناقبه ، وأحاذر أن أجعله هدفا لسهام ذوي الدسائس العاملين على هلاكه في فينا . فاذا فتح أبوابه غدا كانت له الشروط التي كتبتها واذا تأخر عن ذلك خمسة عشر يوماً أو شهراً أوشهرين كانت له الشروط نفسها ، وعليه يمكنه من الآن أن ينتظر ريثما تنفد آخر كسرة من الخبز عنده فأنا منطلق الساعة لأعبر نهر البو زاحفاً الى رومية . وأنت تعلم اذن ماصحت عليه عزيمتي ، فامض واخبر قائدكم بكل ماتدريه من أمرنا »

فدهش كلينو من رؤيته ذاته ماثلا في حضرة القائد الاكبر ، وأبدى علامات التعجب ومعرفة الجميل مما سمعه ولم يسعه إلا الاعتراف بأنه لم يبق من المؤونة عند ورمسر الا ما يكفيه ثلاثة أيام. ولما أحاط ورمسر علماً بما جرى في مفاوضة روفربلو أكبر شهامة القائد الفرنسوي وقابل عواطفه النبيلة بالمثل بايقافه بونابرت على سر مكيدة دبرت لاغتياله في رومانية وتولى سروريه في أثناء تغيب القائد الفرنسوي الاكبر مراقبة اجراء الشروط المقررة لتسليم مانطو ، وكان ذلك في أول فبراير سنة ١٧٩٧

وطرأت بعد تسليم مانطو بثلاثة أيام أمور جعلت بونابرت يستاء من تصرف البابا ، فأرسل فيلقاً من جنوده الى رومية . وفي ٦ فبراير سنة ١٧٩٧ أصدر عن بولونيه نشرة تبتديء بالعبارات الآتية :

« ان الجيش الفرنسوي مصمم على دخول ممتلكات البابا ، وقد تحرى ان يرعى حرمة الدين ويصون كرامة الشعب»

« يحمل الجندي الفرنسوي باليد الواحدة الحسام الضامن له النصر ، ويقدم باليد الاخرى السلام والحماية والامن للمدن والقرى ، فالويل لمحتقري تقدمته والمنخدعين بسلامة قلوبهم بدهاء أهل الرئاء والشر ، فقد جلبوا على مواطنهم الحروب وآفاتها وانتقام جيش تمكن في مدة ستة أشهر من أسر مئة الف جندي

من أفضل الجنود الامبراطوريين ، وغنم أربع مئة مدفع ومئة وعشر رايات ، وبدد شمل خمسة فيالق . . »

ولم يكن الكرسي الرسولي يستطيع ان يبدي مقاومة جدية .

فلما رأى بيوس السادس ذاته مهدداً في عاصمته تجاوز عن نفوره من تلك الاعمال وأغضى جفنه عن عواطفه العدائية ، فبادر الى طلب السلام من القائد الجمهوري ، فأجاب هذا طلبه بوثيقة عقدت في ١٩ فبراير بالشروط التالية :

١ — يتنازل البابا عن جميع حقوقه بافينيون وأملاكه في فرنسا

٢ — يتخلى للجمهورية الفرنسوية تخلياً دائماً عن بولونيه وفراري ورومانيه

٣ — يتخلى أيضاً عن جميع المصنوعات الفنية التي طلب بونابرت احرازها كتمثال أبولون بلفيدير وصورة التجلي لرافايل الخ .

٤ — يعيد المدرسة الفرنسوية في رومية ، ويؤدي اعانة حربية قدرها ثلاثة عشر مليون فرنك نقوداً وتحفاً

وأضاف بيوس السادس الى هذه الوثيقة براءة باباوية ممتازة أطلق فيها على بونابرت لقب « ابنه العزيز »

ان النكبات المتوالية التي نالت الجيوش النمسوية ذللت المحالفة وأدخلت عليها الخشية من دون ان تستأصل شأفة القلق الشديد الذي كانت تشعر به نحو الثورة الفرنسوية ، ومن دون ان تجعلها تميل الى السلم . وكانت تلك المحالفة المنهوكة القوى بالحروب المتواصلة مصرة على اقتحام الاهوال والمتالف بما بقي لها من الجيوش الجرارة ، ومواقعة الدولة المنتصرة التي مزقت شملها بسهولة وضعضعت أركانها وقت ما كانت في أوج عظمتها وشمخ سطوتها . فأوفدت الارشيدوق شارل الى ايطاليا ليتولى قيادة الجيوش الامبراطورية ويعالج اصلاح ما أفسده الذين تقدموه في الزعامة . وكان القائد النمسوي الجديد يعتقد ان بونابرت انطلق بشطر كبير من جنوده لمحاربة البابا ومعاقبته على نقضه وثيقة بولونيه ، فعزم على انتهاز الفرصة من تغيبه ليهجم على رجاله ، وأمر الجنرال غويو بعبور نهر البرنتا . الا انه ما عتم ان عرف انه في ضلال مبين ، فعاد بونابرت الى البرنتا ولم يكن قد أخذ الى رومية سوى أربعة آلاف أو خمسة آلاف مقاتل وجعل في أول شهر مارس مركزه في باسانو ، وأذاع النشرة الآتية

« أيها الجنود

« ان فتح مدينة مانطو أنجز حرباً خولتكم ألقاباً خالدة يعترف لكم بها الوطن . قد انتصرتم في أربع عشرة معركة منظمة وسبعين وقعة ، وأسرتم أكثر من مئة الف رجل ، وغنمتم من العدو خمس مئة مدفع من مدافع البر والفي مدفع ذات عيار كبير وأربعة أجهزة من أدوات الجسورة

« ان الضرائب التي وضعت على البلدان التي فتحتموها أنفقت على غذاء وحاجات الجيش في أثناء الحرب ، وفضلا عن ذلك أرسلتم ثلاثين مليوناً من الفرنكات الى وزارة المالية اعانة للخزينة

« وأغنيتم متحف باريس بأكثر من ثلاث مئة تحفة من المصنوعات الثمينة المعتبرة نتاجاً للفن في ايطاليا القديمة والحديثة ، والمقتضي إيجادها نحواً من ثلاثين قرناً من الزمان .

« وفتحتم للجمهورية أجمل الاقاليم في أوربا ، فالجمهوريتان اللمباردية والترانسبادانية مدينتان لكم بحريتهما ، والراية الفرنسوية تخفق للمرة الاولى فوق شواطىء بحر أدريا بازاء مقدونية القديمة وعلى بعد أربع وعشرين ساعة بحراً عنها . وقد انفصل ملكا سردينيا ونابولي والبابا ودوق بارما عن محالفة أعدائنا وجدّوا وراء صداقتنا . طردتم الانكليز من ليفورنو وجنوى وكرسيكا . . ولكنكم لم تنتهوا الى الغاية التي تتوخونها ، فأمامكم مجال كبير تتبارى فيه جياد الحظ ، وقد علق الوطن عليكم أعزّ آماله فكونوا جديرين به .

« لم يبق أمامكم من بين الاعداء الكثيرين الذين تحالفوا لخنق الجمهورية في مهدها سوى الامبراطور الذي هبط عن مقامه كصاحب دولة عظيمة مستسلماً لتجار لندرة . ولم تبق له ارادة أو سياسة إلا ارادة وسياسة أولئك الجزائريين الذين تفتر ثغورهم برؤيتهم مصائب الحرب تتوالى على القارة الاوربية مع بقائهم بعيدين عنها .

« ولم تدخر حكومة الديركتوار الاجرائية شيئاً لالقاء السلام في أوربا ، ولم يكن لاعتدالها في اقتراحاتها تأثير في قوة جيوشها ، فلم تستثر شجاعتكم بل اقتصرت على استثارة عواطف الانسانية والرغبة في إعادتكم الى مواطنكم . ولم يكن لصوتها صدى في فينا ، وعليه لم يبق من أمل في الصلح إلا بمعالجة



نابوليون بونابرت، عند سفره الى مصر



في مدى أربع وعشرين ساعة ، وينبغي لكم ان تعلموا اننا لسنا في عصر شارل الثامن وان أنتم خالفتم رغائب الحكومة الفرنسوية وألجأتموني الى محاربتكم فلا يقع في نفوسكم ان الجنود الفرنسويين يتصيرون الجنود الذين سلحتموهم ويعيثون فساداً في أرض شعب آمن منكود الحظ ، فأنا أذود عنه واجعله يبارك اليوم الذي أحرجتم فيه الجيش الفرنسوي ليأتي أعمالا فظيعة تنجي هذا الشعب من نير حكومتكم الجائرة »

وفي ٧ ابريل عقدت هدنة حربية في جودنبورغ ، وكان البرنس شارل قد الفى ذاته عاجزاً عن مداومة القتال والاحتفاظ بمضايق نيومارك وهندمارك التي احتلها ماسينا ، وعلم ان اصرار حكومته على موالبة الجيوش الفرنسوية لم يكن صواباً . وكان قد انتهى الى بونابرت المتكل على موافاة جيش سامبر وموز لمناصرته نبأ يفيده ان هذا الجيش لم يتحرك ولن يتحرك من مركزه ، ومن ثم لم يتجرأ على تجاوز سيمرنغ لئلا يتوغل في البلاد الالمانية من دون ان يكون له ما يستند اليه فيها . ولما وردت اليه رسالة من الديركتوار تنبئه رسمياً بأن جيشي الرين وسامبر وموز لا يستطيعان الهاء الاعداء على ما بين ضرورة ذلك الامر وأهميته بادر الى امضاء رسالة الى الارشيدوق شارل يقترح عليه فيها مشاطرته الفضل بالقاء السلام في أوربا ووضع حد لما تتجشمه النمسا وفرنسا من الخسارة الفادحة الناشئة عن الحرب الطاحنة . وقد قال له في رسالته « ان الجنود الشجعان يباشرون القتال مع رغبتهم في السلم . أفلا يكفينا ما قتلناه من البشر ، وما جلبناه من الشر على الانسانية التاعسة ؟ . . فأنت الذي يدنيك أصلك وفصلك من العرش ، وأنت الذي تترفع عن الاهواء الحقيرة التي تعبث بالوزارات والحكومات هل تشاء ان تستحق لقب المحسن الى الانسانية جمعاء ومخلص ألمانيا الحقيقي ؟ . . واذا كان اقتراحي هذا يا حضرة القائد الاكبر من شأنه ان ينقذ حياة انسان واحد فاخرت بذلك التاج السلمي الذي استحققت نيله على مفاخرتي بالمجد الزائل الذي أجني ثماره من دوحة الانتصارات الحربية »

وما عتمت الاقتراحات السلمية التي حواها ذلك الكتاب ان اشتهرت في فينا ، فسكنت قليلا مخاوف القوم لدنو الراية الجمهورية منهم ، وبادر العاهل الى انفاذ غالو النابوليتاني سفيراً الى بونابرت ، فكانت هدنة جودنبورغ نتيجة

لمفاوضتهما . واغتنم بونابرت الفرصة من الهدنة ليتظلم للديركتوار من تصرف جيوش ألمانيا في خلال محاربته في ايطاليا بعساكر قليلة العدد جميع قوى الدولة النمسوية المتألبة . على ان بونابرت مع قلة اكتراثه الماضي وكان يذكره بلا تأسف كان يهتم بالمستقبل ويزيد الحاحاً بطلب مناصرة مورو له طمعاً بنيله شروطاً أفضل من وثيقة الصلح ، أو فوزاً مضموناً عند تجديد القتال بين رجاله والعساكر النمسوية . وهذا بعض ما جاء في رسالته للديركتوار

« حين يتعمد الانسان مباشرة القتال لا يستطيع شيء من الاشياء تثبيطه عنه ، ولم يرو لنا التاريخ قط أن نهراً من الانهر صد جيشاً من الجيوش عن التقدم . فلو شاء مورو اجتياز نهر الرين لاجتازه ، ولو كان قد اجتازه لكنا قد صرنا الى موقف يمكننا من التحكم في شروط الصلح تحكم الغالب بالمغلوب ، ولكن الذي يخشى أن يضيع المجد يضيعه ولا محالة . عبرت جبال الألب اليوليانية والنورية سائراً فوق ثلوج تبلغ سماكتها ثلاث أقدام الخ . ولو لم تكن الغاية التي أرمي اليها سوى راحة الجيش ومصلحتي الشخصية لكنت خيمت في ماوراء الايزنزو بيد اني أوغلت في المانيا طمعاً بتخليص جيش الرين ومنع العدو من مهاجمته . وصلت الى أبواب فينا وقد أرسلت الى الحكومة النمسوية المتعظمة المتغطرسة مفوضين من لدنها . ان جيش الرين ليس في عروقه دم ولا محالة ، فاذا ظل معرضاً عني وتاركا اياي وحدي اضطررت الى العودة الى ايطاليا وحينئذ يبرز الملأ الاوربي طراً حكمه على الفرق بين الجيشين »

وبوشرت المفاوضات في ليوبين في ٢٦ جرمينال ووقعت مقدمات الصلح في ٢٩ منه . وقال بونابرت للمفوضين النمسويين « ان حكومتكم أرسلت قبلا لمقاتلتي أربعة جيوش بلا قائد ، والآن ترسل الي قائداً بلا جيش . » ولما أراد المفوضون أن من جملة مندرجات الوثيقة المنظمة اعتراف عاهلهم بالجمهورية الفرنسوية ، قال لهم بونابرت بصوت جهوري . « احذفوا هذا البند ، فان وجود الجمهورية كالشمس في رائعة النهار ، ولعمر الحق ان مثل هذا البند يوضع للعميان »

وكانت الساعة قد دنت للافتكار بجمهورية البندقية ، فان هذه الجمهورية سعت من تلقاء نفسها الى المتالف التي كانت تتوعدها . وكان نبلاؤها الموالون

للنمسا ينتظرون مكافأتها ونجاتها من ذلك الفاتح العظيم الذي ظفر بكل من واقعه . وانضم اولئك النبلاء الى خدام الدين الايطاليين ، وأثاروا السكان الجهال المقيمين على شواطىء بحر ادريا ، وقتلوا في فيرونا في أثناء الاحتفالات بعيد الفصح مقتلة عظيمة من الفرنسويين وكان خدام الدين قد نسوا مهمتهم السلمية والحبية وحرضوا القوم على القتل مزينين لهم ان قتل أشياع الفتنة الفرنسوية فعل من الافعال التي يثاب عليها فاعلوها

وأسرع بونابرت في الشخوص الى فيرونا لحقن الدماء وإخماد نائرة الفتنة ومعاقبة حكومة البندقية أزجر عقوبة . وقال بونابرت لبوريان كاتبه الخاص في مساء اليوم الذي هب فيه الشعب على الفرنسويين : « قر عيناً فسنقتص من هؤلاء الطغام ، وقد قضي على جمهوريتهم » وبعد أيام كتب للديركتوار : « ان المنهاج الوحيد الذي لابد من الجري عليه هو تقويض أركان تلك الحكومة الهمجية السفاحة ، ومحو اسم البندقية عن سطح المعمورة »

وذهبت سدى مساعي الحكام في بريسيا وبرغام وكريمونا لاثارة خواطر القوم وحملهم اياهم على الاعتقاد بأن الفرنسويين كانوا سبباً للنكبات التي دهمتهم فكذبهم بونابرت تكذيباً صريحاً بنشرة كانت ضربة قاضية على الارستقراطية البندقية وقد ختمت هذه النشرة بالعبارة الآتية :

« ان القائد الأكبر ينذر وزير فرنسا لدى جمهورية البندقية بالخروج من المدينة المذكورة ، ويأمر مندوبي جمهورية البندقية في لمبرديا وجميع أملاك البندقية بأن يخرجوا منها في مدى أربع وعشرين ساعة ، ويأمر جميع قواد جيشه بأن يعتبروا جنود جمهورية البندقية أعداء لهم ، وأن يحطموا أسد القديس مرقس في جميع مدن هذه الجمهورية . »

وقد وضعت هذه الاذاعة موضع الاجراء من جميع أطرافها ، فدخل الرعب على مجلس البندقية الأكبر فاستقال وألقى بمقاليد السلطة الى الشعب وهذا أسند الاحكام الى المجلس البلدي . وفي ١٦ مايو نصب الجنرال باراغواي ديليه الراية المثلثة الالوان فوق ساحة القديس مرقس . وحدثت فتنة ديمقراطية شديدة في جميع الاقاليم التابعة لحكومة البندقية ، فانتدب للزعامة في أثناء

تلك الفتنة دندولو محامي البندقية وأحد الشخصين الفاضلين اللذين عثر عليهما بونابرت في ايطاليا . ونقل أسد القديس مرقس وخيل كورنثوس الى باريس لتزيين قوس النصر في ساحة كروسل

وفي إبان المفاوضات الدائرة مع النمسا انتهى الى بونابرت أن هوش ومورو اجتازا نهر الرين ، بعد ما كان الديركتوار قبل ذلك الحين ببضعة أيام أنبأه بأن عبور هذا النهر قد لا يمكن أن يتم . ولما كان تمنع جيش الرين عن مناصرته قد حداه على توقيف رحى الحرب والوقوف أمام أسوار فينا ألفى ذاته مقضياً عليه بأن يشهد ، وسيفه في غمده وقد قيدته شروط الهدنة ، الحركات الحربية التي التمسها على غير طائل مدة شهرين ، وكان من شأنها أن تساعده على رفع الراية الجمهورية فوق عاصمة النمسا . ولا يخفى أن انتصاراته السريعة أقلقت خاطر الديركتوار فصار اعضاؤه الخمسة يرون شخص العاهل في شخص فاتح ايطاليا . وهو ذاته اعترف في جزيرة القديسة هيلانة بأنه منذ اليوم الذي اصاب فيه النصر في لودي جال في خاطره انه يمكنه ان يصير ممثلا فعلياً على ملعب السياسة ، وقال في هـذا الصدد . « في ذلك الحين نشأت في الشرارة الاولى للمطامع البعيدة المنال »

وكان أن رجال حكومة الديركتوار الذين لمحوا تلك الشرارة وأوجسوا خيفة من امتدادها والتهامها صرح الجمهوريين المتربعين هم في قمته ، عمـدوا الى الحيلولة دون امتدادها مدفوعين الى ذلك العمـل بعوامل الحسد الشخصي والدفاع عن مبادىء الديمقراطية . وكان يشق عليهم أن يشاهدوا اعتراف الوطن بالجميل واعجاب أوربا ينحصران في شخص واحد ، ولم يشاءوا أن يوجدوا لهذا الشخص السبيل المؤدي الى تعلق الناس به بدخوله فينا وهو يجر ذلاذل الانتصار في مقدمة جميع جيوش الجمهورية وعرفهم بونابرت كما عرفوه فلم يكتم استياءه من ذلك الأمر بل جاهر به في رسائله وأحاديثه . وتمكن الديركتوار من كتمان الاسباب الحقيقية التي جعلته ينهج ذلك المنهاج حتى أن الجنرال بونابرت الذي أسندت اليه قيادة جيش الداخلية بعد شهر فنديمبار رسم خطة حربية تعين مدة الحرب وعقد الصلح على قمة سيمرنغ ، وقد بقي رسم تلك الخطة محفوظاً في وزارة الحرب . وبنى هو نفسه الحاجز الذي يطمع

الآن باجتيازه ، الا أن قاهر البرنس شارل كانت له أفكار أوسع وأنظار أبعد من أفكار وأنظار قاهر الشعب الباريسي

وكان بونابرت في جزيرة في التاليامنتو لما جاءه البريد بنبأ عبور مورو لنهر الرين ، فقال دي بوريان . « لا يستطاع وصف التأثر الذي اصاب الجنرال عند قرآءته تلك الرسائل . . . فقد بلغ منه الاضطراب مبلغاً عظيماً حتى انه خطر له ان يعبر الى ضفة التاليامنتو اليسرى وينتحل له عذراً لقطع اسباب المفاوضات السلمية . . . وكان يقول : ماكان اعظم الفرق بين المقدمات لو كان هذا الامر قد حدث قبل الآن »

ومن المحقق ان بونابرت ما كان ليظهر تلك الاميال السلمية التي ابداها في رسالته للبرنس شارل لو كان يستطيع الاعتماد على مناصرة جيوش المانيا له . فكان فتح فينا يبتسم له على ان فتح رومية لم يكن ليستغويه كثيراً . ولم تكن خيانة الديركتوار مع ما يخامرها من الحسد والظنون السيئة تمكنه هذه المرة من ارواء غليل مطامعه

وكان في المفاوضات السلمية مماطلات ومماحكات ، فاغتنم القائد الاكبر الفرصة من الهدنة الحربية ويمم لمبرديا وولايات البندقية لتنظيم الحكومة فيها . وكان يبحث على غير طائل عن الرجال الاكفاء ليسند اليهم المناصب ، ويقول : « يا لله ما اندر الرجال ؟ ففي ايطاليا ثمانية عشر مليون نسمة ومع ذلك لا القى بينهم سوى رجلين وهما دندولو وملزي »

ولما ضاق صدر بونابرت عن احتمال دسائس الجمهورية ومساعيها لاحباط اعماله ، وتبرم من مفاوضة المماطلين النمسويين ، قال انه يبتغي الاستقالة من قيادة جيش ايطاليا والاعتزال عن معاشر البشر ليذوق في الوحدة طعم الراحة التي كان يحسب زعمه شديد الاحتياج اليها . على أن ذلك الزعم لم يكن سوى تهويل وهمي لا يشاء البتة وضعه موضع الاجراء . ولم يعتقد أنهم يستطيعون الاستغناء عنه بعد الخدم التي أداها لبلاده ، وأسرار المقدرة الغريبة التي تم بها ، والميل الشعبي الذي تمكن من اصابته . وكان متحققاً ان نبأ استقالته سيكون له شأن سياسي مهم ينكر الشعب على الحكومة التي سببته باعتسافها وقبلته مدفوعة اليه بعوامل نكران الجميل والحسد ، الا أن ذلك الامر لم يكن

سوى مخاوف فارغة . فاقتصر على التظلم بشدة متخذاً لهجة العنف والاستعلاء في رسائله الرسمية . وبعد ماقال انه بالنظر الى واقع الحال اصبحت المفاوضات مع عاهل النمسا حركة من جملة الحركات الحربية مما يجعل السلم والحرب رهن اشارته ويعده لذلك الموقف الخطير مع اعتبار حظ الجمهورية متعلقاً بحظه ، زعم أنه شبع من المجد وهو يرمي بذلك الكلام الى اقناع المعجبين به وخصومه واعدائه بان المحرك الوحيد للهمة العالية التي ركب مركبها كان مصلحة فرنسا وليس مصلحته الشخصية ومن اقواله فى ذلك الصدد «زحفت الى فينا واصبت من الفخر اكثر مما يلزمني لاظفر بالسعادة ، وغادرت ورائي سهول ايطاليا الخصيبة كما فعلت في مفتتح الحرب الاخيرة حين كنت اطلب الزاد للجيش الذي لم تكن الجمهورية قادرة على القيام بأوده

وكانت سياسة فرنسا الداخلية تعضد الديركتوار في حسده الذميم ومخاوفه المنكرة ، فان حركة ترميدور أحيت موات الأمل في افئدة الملكيين وقد نهضوا في الانتخابات من العثار الذي اصابوه في شهر فنديميار . وكان من الطبيعي ان يحسب حزب الارتجاعيين الف حساب لنفوذ القائد الذي خلص الجمهورية بانتصاراته الخمسين التي نالها ، وكانت اسباب شهرته ومجده وكيانه مقرونة بخلاص الثورة ونجاحها

وانتهز خطباء هـذا الحزب وكتابه الفرصة من حرية اللسان والقلم المطلقة لينشروا جميع الاراجيف ويلقوا في القلوب الظنون المختلفة عن أخلاق بونابرت ومطامعه ، على ان الديركتوار مع ما كان بينه وبين حزب الملكية من الخصومة الشديدة أغضى الطرف عن أقوال هذا الحزب وأفعاله بحق بطل لودي وأركول بعد ما ساءت شهرته السريعة أعضاء حكومته وأعضادها . فأذيع في الصحف وفي منشورات خاصة ، وكثر تحدث القوم في الاندية الخاصة والعامة ان حكومة البندقية ذهبت فريسة لخيانة القائد الفرنسوي ومساعيه السرية ، وان جميع تلك المجازر التي قام وقعد لها الملأ السياسي وأنزلت بفاعليها عقوبة زاجرة لم تكن سوى حوادث دبرها دهاء القائد الجمهوري وأركان حربه . وألقى دومولار أحد زعماء الحزب الملكي خطبة دس فيها عبارة تشتم منها رائحة الظنون التي خالجت قلوب أعضاء مجلس الشيوخ عن الأسباب التي دعت الى



نابوليون بونابرت قائد اكبر لجيوش الجمهورية الفرنسوية



اهتضام حقوق الامم في البندقية . ولما وقف بونابرت على جميع تلك الدسائس والمفاسد المراد بها الغض من كرامته وتحقير منزلته وسوق الأذى اليه كتب الى الديركتوار يقول « يحق لي بعدما عقدت الصلح خمس مرات وضربت المحالفة ضربة قاضية ان أقضي عيشة راضية واستذري بكنف كبار الحكام في الجمهورية، هذا اذا لم يكن يحق لي التمتع بالانتصارات السلمية ، والآن أراني وقد حل بي الاذى ، ونزل بي الاضطهاد ، وسودت صحيفتي بجميع الوسائل المصحوبة بالخزي مما تجره السياسة الى ايقاع المضرة . . .

« لقد فتك بنا الخونة فهلك منا أكثر من أربع مئة رجل ، ولعمر الحق ان كبار حكام الجمهورية يجنون عليها لاعتقادهم ان أولئك الرجال من مرتكبي الجرائم .

« وأنا أدري ان قوماً يقولون « وهل هذا الدم حر ؟ » لا أشكو من الطغام وممن ماتت في نفوسهم عواطف الوطنية والمجد الوطني لتفوههم بمثل هذا الكلام ولا أكترث لهم ولكن يحق لي ان أتظلم من كبار حكام الجمهورية لتحقيرهم مكانة من عظموا مجد الاسم الفرنسوي وشرفوه

« يا أعضاء الديركتوار ويا أركان الوطن ، أكرر عليكم تقديم استقالتي ، فأنا محتاج الى قضاء عيشة راضية ساكنة على شريطة ان تنبو عن حياتي مدى كليشي

« فوضتم الي أمر المفاوضات السلمية وأنا لا أصلح لها »

وكان قبل ذلك الحين بمدة قصيرة قد كتب الى كارنو بطريقة خاصة ما يلي .

« ياحضرة العضو ، انتهى الي كتابك وأنا في ساحة القتال في ريفولي فعلمت ما كان من شقشقة لسانهم بحقي فرثيت لهم . وكل منهم يجعلني أنطق على هواه ، وأظن انك تعرفني حق المعرفة ، وانك لاتتصور البتة أني أرضى بأن يتسلط أي كان على أفكاري . لقد سبق لك ان جعلتني أطيل دائماً لسان الثناء على علائم الصداقة التي أبديتها نحوي ونحو ذوي ، وسأدخر لك شكراً حقيقياً عليها . ان قوماً لايلقون لهم بداً من البغض وحيث لايتسنى لهم هدم صرح الجمهورية يكتفون بالقاء بذور الشقاق والخلاف أيان ساروا ، ومهما قالوه عني فلايستطيعون الحاق السوء بي فلا يهمني سوى احترام بعض نفر من الناس ممن هم على شاكلتك

وإكرام رفاقي والجنود ،وفي بعض الاحيان اعتقاد الاجيال الآتية بي ، وفوق ذلك كله راحة ضميري وسعادة وطني »

وقد شاء بونابرت انيجيب بذاته على ما كان حزب الملكية يبثه من الاراجيف عن البندقية فأذاع في الجيش نشرة مغفلة ضمنها دحضاً لا كاذيب ذلك الحزب وتخرصاته وبياناً للحقيقة . ولم يكن بونابرت صادقاً في تقديم استقالته . وأما قوله بأنه لا يصلح للمفاوضات السلمية فهو مردود بالحادث الآتي في بيانه المتعلق بمفاوضات كمبيو فرميو ، وقد رواه بونابرت نفسه في جزيرة القديسة هيلانة « كان المسيو دي كوبنتزل رجل الامبراطورية النمسوية روح مقاصدها وأعمالها ومدير سياستها . وقد تولى السفارات الخطيرة في عواصم أوربا ، وأقام مدة طويلة لدى كاترين قيصرة الروس ، ونال عندها حظوة خاصة . وكان يتباهى بمقامه وأهميته ، ولا يرتاب في ان رفعة مركزه وسمو أطواره وتعوده الرسميات تجعله متفوقاً على قائد خارج من الجيوش الجمهورية

فدنا باستخفاف وخفة من القائد الفرنسوي ، الا ان هيئة هذا الأخير وكلماته الأولى جعلت ذلك الرجل يدرك خطارة موقفه ويأبي الخروج منه . وقال المسيو دي لاس كاس ان المفاوضات دارت في بدء الأمر ببطء وكان المسيو دي كوبنتزل على عادة الحكومة النمسوية يظهر براعة في المماطلة بمجرى الأحوال بيد ان القائد الفرنسوي صمم على انجازها ، وكانت الجلسة التي قرر بأن تكون خاتمة المفاوضات ممتازة عن غيرها بشدة اللهجة ، ولما أبى المفوض النمسوي العمل باقتراح بونابرت نهض هذا وفي عينيه شرر الغضب وصاح بصوت جهير . « أنتم تريدون الحرب ، فليكن ما تريدون ! » قال هذا الكلام وقبض بيده على ابريق من الخزف كان المسيو دي كوبنتزل يفتخر كل يوم بقوله ان هذا الابريق هدية من القيصرة كاترين الكبيرة ، وطرحه على الارض بكل قوته فتحطم تحطماً ، وصاح حينئذ به قائلا « هكذا تصبح مملكتكم النمسوية قبل ثلاثة أشهر » ثم انه خرج مسرعاً من الردهة ، ولبث المسيو دي كوبنتزل كالمذهول به . وكان معاونه ألطف أخلاقاً منه فصحب القائد الفرنسوي حتى مركبته وهو يعالج ابقاءه ومنعه عن الذهاب . وقال الامبراطور « انه كان يحييني بقبعته مرات عديدة بهيئة تستدعي الشفقة حتى اني مع ما كنت أشعر به من

الغضب الشديد لم أكن أستطيع الامتناع عن الضحك في الداخل » على ان الطريقة التي توخاها بونابرت في المفاوضات مع ما كان يزعمه من عدم صلاحه لها انتهت الى الغاية التي كان يرمي اليها ، فقد كان التهويل في مثل ذلك الموقف أفضل من الملاينة ، وكانت الحال تقتضي مثل ذلك التصرف ليسهل وضع حد لماطلات النمسويين ومراوغاتهم ، واضمار حكومتهم أفكار السوء وراء تلك الظواهر الخداعة ، فأراد بونابرت التعجيل للوصول الى غايته بتحطيمه على الصورة التي مر بيانها هدية القيصرة للمسيو دي كوبنتزل . وقد كانت طريقة العنف هذه المرة أجدى نفعاً للمصالح الفرنسوية وأشد فعلا من سياسة اللين التي يتحداها من شابت نواصيهم في التمرغ على أعتاب البلاط . وكان بونابرت يعرف الحين الذي يلائم فيه الظهور بمظهر الغضب ، ويمكن القول بأنه اذا كان ذلك الداهية قد تعدى حدود اللياقة وخالف أصول الرسميات المرعية فما ذلك الا لخدمة وطنه والانسانية بتعجيله في ابرام أسباب الصلح

وبينا بونابرت يتوقد من الحنق في ايطاليا من جراء المماطلة في المفاوضات السياسية ، وحالة السكون التي أوصلته اليها مقاصد الديركتوار السيئة ، والاهانات التي كانت توجهها اليه الاحزاب الداخلية من جميع الجهات بواسطة المهاجرين والمراسلين المأجورين ، كانت الاكثرية من الحزب الملكي في المجلسين تهدد كيان الديركتوار ، وكان اليوم الثامن عشر من شهر فركتيدور (٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧) يقترب .

وكان ان جيش ايطاليا المنتصر في معارك عديدة تحت ظل الراية الجمهورية ، والقائد الهمام الذي تنقل به من انتصار الى انتصار لفتا انظار الفريقين ، فأثارا دفين المخاوف في صدر هذا وانعشا ذابل الآمال في فؤاد ذلك . وقد رأى بونابرت بعد ماكان في الماضي لاينجو من وقيعة الحزب الملكي والديركتوار جهاراً وسراً ان القوم في كل جهة يبحثون عنه ويسعون وراء التقرب منه ، حتى ان طرنسون دو كودراي أحد مشاهير الخطباء الملكيين لم يأنف من اطلاق لقب « بطل » على مدفعي ١٣ فنديميار قائلا عنه انه امتاز بالمواهب التي يؤتاها من تولى المفاوضات السلمية بعد ماضاهى في فن الحرب أشهر القواد في مدة ثمانية أشهر

الا ان هـذا المديح الصادر لغايات في النفس عن رجل داهية لم يكن من شأنه ان يخبيء القلى الذي كان حزبه يشعر به نحو بونابرت وينفث سمومه على صفحات جرائده وفي أنديته ، وكان أوبري عدو بونابرت القديم زعيما من زعماء هذا الحزب ، فاستند الى مظاهرة بعض الخطباء المتطرفين وطلب فصل بونابرت من منصبه والقاء القبض عليه وقد كان ذلك الامر كافياً لحمل بونابرت على تخير الجهة التي يميل اليها ، بيد انه كان يحتقر الديركتوار ، ولم يكن يري بين أعضائه من يستحق الاكرام سوى كارنو المشهور بما أوتيه من المقدرة السياسية والادارية ، وما أداه لوطنه من الخدم الجليلة ، وما امتاز به من كرم الاخلاق وعلو الهمة

وانفصل كارنو عن الاكثرية في المجلس مراعاة للمبادىء الدستورية التي كان الحزب الآنف الذكر من أشد المعارضين لها ، ومع ذلك كان نفوذ بونابرت وقد ناله بأعماله الماضية وبعد نظره في العواقب وذكرى مآتيه أقوى من احتقاره لباراس واحترامه لكارنو

وكان حين صمم فيه بونابرت على الزحف الى باريس ماراً بمدينة ليون بخمسة وعشرين الف مقاتل ، ولو بقيت الاقدار مهادنة للملكيين في العاصمة لكان قد وضع ماقصده موضع الاجراء ، على ان الامر الذي جعله يسخر بنوع خاص حسامه لخدمة الديركتوار ومناوأة الاكثرية في المجلس هو اكتشاف خيانة بيشغرو زعيم هذه الاكثرية ، فاكتشفت علاقاته بالاجانب وقت ماقبضوا على أوراق الكونت دنتراغ أحد أصحاب الدسائس في الحزب الملكي فألقي القبض على ذلك النبيل في ولايات البندقية بعد ما كانوا أطلقوا له الحرية على ان يظل مقيما في ميلانو ، بيد انه فر الى سويسرا وطبع نشرة ضمنها من لواذع الكلام بحق بونابرت ما تنبو عنه الاسماع مع انه كان من المقضي عليه ان يطيل بحق قائد جيش ايطاليا لسان المدح بدلا من لسان القدح

وجاش صدر بونابرت غيظا من جراء تلك الامور ، وجعل يكسر الارماظ على الاجانب ، فأنفذ باسم جيش ايطاليا رسالة ملؤها التهويل على المجلسين وتسكين بال الديركتوار ، ومن جملة ما قاله في تلك الرسالة . « هل تتوهمون أن طريق باريس اوعر من طريق فينا ؟ فسيفتحه لنا الجمهوريون المحافظون

على عهد الامانة للحرية ، ومتى انضم شملنا نستطيع الذود عن حياضها والتنكيل بأعدائنا

« ان قوماً من الألى جللهم العار ، واشرأبت أعناقهم الى الانتقام ، وتخمت نفوسهم من الجرائم يتحركون في باريس وينسجون برود الدسائس ، ونحن نظفر بالاعداء أمام أسوار فينا . . . فيا من جعلتم الاحتقار والشنار والمذلة والموت من نصيب المدافعين عن كرامة الجمهورية ، ارتعدوا . فمن الآديج الى الرين والسين خطوة واحدة ، ارتعدوا . فظالمكم محصاة ، وعلى أطراف نصالنا العقاب عليها . »

واختار بونابرت لحمل تلك النشرة أوجرو وهو أحد معاونيه ، وهـذا لم يكن يخطر بباله قط أن يشغل المحل الاول ويكسف شمس القائد الاكبر . وأما المال الذي طلبه باراس بلسان بوطوكاتبه لـكي يسهل له سبيل النجاح في اليوم المنتظر فقد اكتفى بونابرت بأن يعده به من دون أن يؤديه له البتة . وأنفذ الى باريس حاجبه لافاليت متكلا على غيرته وأمانته ليوقفه على كل شيء ، ومفوضاً اليه العمل بحسب مقتضيات الأحوال

ويبتدىء من هذا الحين تاريخ العلاقات بين بونابرت وديزه ، فقد كان ديزه وهو في جيش الرين يتتبع عن بعد والتعجب بالغ منه الانتصارات التي اصابها قائد جيش ايطاليا الاكبر ، فاغتنم الفرصة من هدنة ليوبن وجاء ليتأمل عن كثب ذلك القائد العظيم . ولم تكد عين الواحد منهما تقع على الآخر حتى تفاها وتحابا . وكان في احدى محادثاتهما ان بونابرت اراد ان يستودع صديقه الجديد سر خيانة بيشغرو ، فأجابه ديزه : ولـكننا عرفنا ذلك من ثلاثة أشهر ونحن على الرين ، فقد غنمنا من الجنرال كلنغلن مركبة عثرنا فيها على الرسائل المتبادلة بين بيشغرو وأعداء الجمهورية . فقال بونابرت أولم يبلغ مورو ذلك الامر الى الديركتوار ؟ فقال ديزه . لا فقال بونابرت : لقد ارتكب جريمة فظيعة فالصمت في مثل هـذه الحال يعد مشاركة في الخيانة ومسبباً لاستهداف الوطن لسهام المخاطر . ولما صدر الامر بنفي بيشغرو بعد ١٨ فركتيدور بادر مورو الى كشف أمره بطريقة فاضحة فقال بونابرت . « انه بتأخره عن

الشكوى منه خان الوطن ، وبتكلمه عنه متأخراً جعل ذلك التاعس يرزح تحت أثقال العقاب »

وسر بونابرت سروراً عظيما لما انهى اليه نبأ فشل الحزب الملكي وصدور الاحكام العرفية بحقه ، فقال له اوجرو . ياسيدي القائد ، نهضت باعباء مهمتي وانجزت هذه الليلة مواعيد جيش ايطاليا .

ولما سقط عن الديركتوار النظر في امر الملكيين ثاب اليه حسده الخفي لبونابرت ، ومع معرفة الديركتوار ماكانت أفكار القائد عن ١٨ فركتيدور بعد جميع الرسائل التي جاءته منه وتضمنته من الالحاح الشديد بوجوب اجراء تلك الضربة العنيفة أذاع في باريس أن رأي بونابرت في حوادث ذلك اليوم كان محفوفاً بالشك ، وكان الديركتوار ينوي نشر هذا الامر بين الجيوش ، ففوض الى اوجرو أن يوجه الى جميع القواد النشرة التي كان مقضياً على القائد الاكبر أن يوجهها اليهم ، وحين وقف بونابرت على جميع تلك التدابير عمد الى اظهار استيائه وحنقه بكتابته الى الديركتوار ما يلي :

« من الثابت أن الحكومة عاملتني على التقريب بالمعاملة نفسها التي عاملت بها بيشغرو بعد شهر فنديميار من السنة الرابعة

« ارجو ان تقبلوا استقالتي وتسموا خلفاً لي ، فلا تستطيع قوة ارضية ان تجعلني اواصل الخدمة بعد ما اظهرته لي الحكومة من نكران الجميل وان لم اكن اتوقعه . فصحتي المعتلة تقتضي الراحة والسكينة . وحالة نفسي محتاجة الى معاشرة بني و ... لتتقوى ، فاري من وقت طويل سلطة عظيمة ملقاة مقاليدها الي ، وقد زاولت هذه السلطة في جميع الاحوال في سبيل مصلحة وطني . فليخسأ الذين لا يعتقدون بالفضيلة والذين يرتابون بفضيلتي . فخير جزاء لي هو راحة ضميري وماتظنه الاجيال الآتية عني . . .

« وثقوا بأنه اذا ماكان الوطن معرضاً للخطر كنت في مقدمة الناهضين للدفاع عن الحرية ودستور السنة الثالثة »

ولم يشعر الديركتوار من نفسه بمقدرة على مقاواة ذلك الجندي المنصور مقاواة ظاهرة وموجهة اليه رأساً ، فظل دافناً لسره وبادر الى ارسال الايضاحات والاعتذارات اليه تسكينا لغضبه ، وقال له « خف من المتآمرين

الملكيين فانهم وهم يدسون السم لهوش يعالجون أن يدخلوا عليك النفور والتحفظ مما يؤول إلى حرمان وطنك جهد دهائك »

ولم يكن بونابرت في الحقيقة متبرماً من قيادة الجيش كما كان يريد ان يتظاهر به . فاظهر رضاءه عن تلك الايضاحات ، وجعل يراسل بطريقة خاصة بعض الوزراء وبعض اعضاء الديركتوار عن حوادث الحرب وشروط الصلح واهم مسائل السياسة العامة . وقال انه يميل من ذلك الحين الى الاعتدال والرفق لزوال المخاطر وقتيا عن الجمهورية في الداخل والخارج . وكتب الى فرنسوى دي نوشاتو يقول له « ان حظ أوربا معلق بما تبديه الحكومة من الاتحاد والحكمة والبأس ، ففي الامة فئة صغيرة لا بد من قهرها على يد حكومة صالحة .

«ان قرار حكومة الديركتوار الاجرائية يزعزع العروش . . . فحذار ان تجعلوا الكتبة المأجورين والمتعصبين الطاعين المتسترين ببراقع مختلفة يقذفون بنا الى تيار الثورة »

وكان رجل قد امتدت شهرته منذ التئام الجمعية الدستورية ، وظلت تتعاظم من ذلك الحين بمشاطرته دهاة بلاده تأليف أنواع الحكومات التي جعلت فرنسا تنتقل من طور الى آخر ، وبتقويضه أركان تلك الحكومات حتى صارت فرنسا الى حالتها الحاضرة . وكان ذلك الرجل يقال له تاليران ولم يكن همه الا تحية الشمس المشرقة .

فسعى في ذلك الحين لفتح أبواب المفاوضات مع بونابرت . وكان يبعث اليه بتقارير سرية . وكتب اليه عدة رسائل عن ١٨ فركتيدور بلهجة تحكي لهجة رجل ثوري مغالٍ في الثورة . فذلك الرجل الذي بذل المجهود فيما بعد ليجلس على العرش فرعي سلالة البوربون ، وتظاهر بشدة الميل الى سلالة ارليان ، كان يبين بكل حماسة لامبراطوره المستقبل والمعبود الذي قدم له البخور ثم سحقه أنه قد صدر الحكم بالموت السريع الذريع علي كل من يسعى لاعادة الملكية ودستور سنة ١٧٩٣ أودستور أرليان

وانتهت الى بونابرت هذه المقدمات من زعيم الحزب الذي كانوا يسمونه « حزب الدستوريين والسياسيين » فاستقبلها وهو شديد الرغبة في اعداد

المعدات للمطامع العظيمة التي كانت رياحها تهب في صدره، وكان يشعر بأن ساعته لم تكن بعد قد دنت ، وانها أوشكت أن تدنو ، فاستفرغ الوسع لاستمالة دهاة السياسة اليه ليجعلهم يتحركون على هواه وقت ما تصير الاحوال مؤاتية له . وحين نرجع بالفكر الى الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في فرنسا قبل ١٨ فركتيدور وبعده ، ونذكر سقوط هيبة أعضاء الحكومة ، وفساد بعضهم وضعف البعض الآخر نظن أن بونابرت كان شديد التحفظ أو كثير الجبن ، وانه لم يكن معتقداً أن نفوذ اسمه وملالة الاحزاب يكفيان لأن يجعلاه يقدم على العمل الخطير الذي كان يتوخى اجراءه والذي ظفر به فيما بعد ، وكان يتراءى له أن شهرته يجب أن تتعزز بآثر جليلة جديدة وازدياد نفور سوقة الناس من مساوىء الديموقراطية . وقد يكون افتكاره بحملة مصر ينتمي الى ذلك الحين ، وهذا ما افتكر به كثيرون من الناس بعد قراءتهم النشرة التي أذاعها في ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٧ على بحارة أسطول الاميرال برويكس ، ونوه فيها بانتصار الديركتوار على الخونة والمهاجرين الذين تربعوا في دست المنبر الوطني فقال فيها لاولئك الشجعان البسل . « لا نستطيع بدونكم أن نبلغ بمجد الاسم الفرنسوي الا الى زاوية صغيرة في أوربا ، وبكم نجتاز البحار رافعين الراية الجمهورية فوق بلدان بعيدة المزار »

الا أن تحقيق تلك المقاصد الواسعة كان يقتضي عقد الصلح في أوربا فلم يبق للنمسا بعد حبوط آمالها في ١٨ فركتيدور من وسائل للمماطلة في المفاوضات السلمية ، وأبدى الديركتوار المنتفخ بانتصاراته على الملكيين محالفي الامبراطور ميلا الى الحرب فكتب الى بونابرت :

« لا تراع للنمسا جانباً فان خيانتها وعلاقاتها بالمتآمرين في داخل البلاد قد ظهرت كالصبح لذي عينين » ولم تكن مقاصد الديركتوار منطبقة على مقاصد القائد الاكبر فان الدنو من فصل الشتاء جعله يعجل في عقد الصلح . وقال لكاتبه . « وهب أقبل الآن جيش الرين لنجدتي فقد لا يصل الي قبل شهر من الزمان وستسد الثلوج الطرق والمعابر بعد خمسة عشر يوما . قضي الامر وصممت على عقد الصلح ، وستدفع البندقية نفقات الحرب ، وسنجعل نهر الرين تخماً لبلادنا . فليقل الديركتوار والمحامون ما شاءوا »



نابوليون بونابرت فى المالميزون



ووقع وثيقة الصلح في كمبو فرميو في ٢٦ فنديميار « ١٧ اكتوبر سنة ١٧٩٧ » ، وكان من أول شروطه اطلاق أسرى أولمتز وهم : لافايت ، ولاتور موبورغ ، وبورودي بوزي . وألح نابليون كل الالحاح لنيل هذا الأمر بناء على تعليمات الديركتوار .

الفصل السادس

— السفر الى راستادت — العودة الى باريس — السفر الى مصر —

ولما فرغ بونابرت من الحرب والمفاوضات السلمية لم يبق له من مسوّغ للبقاء على حدود النمسا ، فجعل يجول في الاقاليم التي فتحها ويتفقد بلاد لمبرديا وكانت قد استقبلته كمخلص لها . وكان أنى سار يكبر له الشعب ، وحين وصل اليه أمر من باريس بالمضي الى راستادت لتولي شؤون الوكالة الفرنسوية فيها استقبل بحماس واعجاب عظيمين في جميع بلاد سويسرا عند مروره بها من جنيف الى بال . وأرسل قبل مزايلته لميلانو مع جوبير الى الديركتوار راية جيش ايطاليا ، وقد كتب على أحد وجهيها خلاصة جميع المعجزات التي أتاها ذلك الجيش ، وعلى الوجه الآخر هذه الكلمات « الى جيش ايطاليا من الوطن المعترف بالجميل » وعند مروره في المرة الاخيرة بمدينة مانطو أقام جنازاً لهوش ، وألح بالاسراع في انجاز الأثر المنوي تشييده لفيرجيل .

وكان من المعجبين به في ذلك العهد رجل حاد الذهن حديد الفؤاد بعيد النظر في العواقب ، وقد نشر ما ارسله من الملاحظات الى باريس في صحيفة صدرت في شهر دسمبر سنة ١٧٩٧ وهذه فقرات مما جاء في تلك الجريدة . « شاهدت باهتمام عظيم وانتباه شديد ذلك الرجل الغريب الذي اتى امورا خطيرة ، وكأني به لم ينته بعد من مهمته . ووجدته مشابها كل المشابهة لصورته اي وجدته صغير القامة ، نحيل الجسم ، اصفر اللون ، تبدو عليه علائم التعب من دون ان يكون مريضا كما اذاعوا عنه وكأني به يصغي لمن يخاطبه بقصد التسلية اكثر مما يصغي اليه باهتمام ، وكان يهتم بما يفتكر به اكثر مما يهتم بما يقولونه له ففي هيئته ذكاء شديد ، وكأنه دائم التامل من دون

ان ينم بشيء مما يجري في داخله . ففي ذلك الدماغ المفكر ، وفي تلك النفس الصليبة العود يستحيل على المرء ألا يزعم ان فيهما أفكاراً جريئة من شأنها التأثير في حظ اوربا »

وبينا هم مجتازون سهل مورات الذي نكل فيه السويسريون بجيش شارل الجريء سنة ١٤٥٦ قال لانّ ان فرنسويي هذا العصر أفضل من فرنسويي تلك الايام في الحروب فقطع عليه بونابرت الكلام قائلا له « لم يكن البرغونيون فرنسويين في ذلك العهد »

ولما وصل بونابرت الى راستادت رأى ان منصبه الجديد لا يلائمه ، فلم يكن ذلك الرجل العجيب يلقى منصبا يليق به الا في باريس وهي الوسط الذي تدور عليه رحى السياسة ، او في مقدمة جيشه او على صهوة جواده . الا انه لم يضطر الى التماس العودة الى العاصمة فالديركتوار نفسه أنفذ اليه رسالة يدعوه بها الى باريس ، وكان المسيو دي بوريان كاتبه الخاص يخاف أن يصحبه اليها ، وهو لا يدري ان اسمه محي من جدول المهاجرين . فأراد البقاء في المانيا فقال له بونابرت . « تعال معي واعبر الرين غير هياب ، وأنا أضمن لك أنهم لا يفصلونك عني »

وكان استقبال شعب باريس لنابوليون على ما كان يتوقعه منهم في مقابل ما أحرزته له أعماله العالية، على ان الديركتوار لسان حال الأمة ونائبها في اظهار عواطف معرفة الجميل كتم مخاوفه وحسده ، وأقام احتفالات باهرة لفاتح ايطاليا في حديقة اللكسمبور ، وقدّم تاليران بطل فرنسا لهيئة الديركتوار ،وألقى في تلك الحفلة خطاباً طافحاً بالمبادىء الجمهورية الراسخة الاركان فقال . « لا بد من ان يلاحظ القوم بشيء من التعجب كل ما أبذله من الجهد الآن لاصغر مجد بونابرت ، وهو لا يستاء من ذلك ، وقد دخلت علي الخشية حيناً من الزمان وساورني القلق وهو يطرأ كثيراً في جمهورية حديثة النشأة ويجعل القوم يوجسون خيفة من كل ما يبين مناوئاً للمساواة ، ولكنني كنت مغروراً . فلا تمس العظمة الشخصية المساواة بل تعتبر فوزاً مبيناً لها . ويجب على الجمهوريين الفرنسويين في هذا اليوم ان يكونوا جميعهم رجالا عظاماً »

فأجاب بونابرت بالكلمات التالية ، وقد أطلق للمرة الاولى لقب « كبرى »

على الامة الفرنسوية

« يا أعضاء الدير كتوار الوطنيين»

« قضي على الشعب الفرنسوي بأن يحارب الملوك ليظفر بحريته ،

« وكان ينبغي له ان يناوىء ثمانية عشر قرناً من الاوهام ليصيب الدستور المبني على العقل .

فقد ذللتم بدستور السنة الثالثة جميع المصاعب القائمة في وجوهكم وان الديانة وحكومة أصحاب الاقطاعات والملكية قد تولتا على التعاقب من عشرين قرناً ادارة الشؤون في أوربا ، وينتمي عهد الحكومة النيابية الى الحين الذي عقدت فيه الصلح .

« تمكنتم من تنظيم الامة الكبرى التي لاحد لممتلكاتها الا الحدود التي وضعتها لها الطبيعة .

« وقد فعلتم أكثر من ذلك

« ولا يخفى ان القسمين الجميلين اللذين يفوقان سواهما في أوربا واللذين اشتهرا في خالي الحين بالعلوم والفنون، ونبغ فيهما رجال عظام ينظران بعين الآمال الى روح الحرية تنبعث من قبور الجدود .

« وأتشرف بأن أقدم لكم الوثيقة المعقودة في كمبو فرميو وقدوقعها جلالة الامبراطور

« وحين تبنى سعادة الشعب الفرنسوي على أفضل الشرائع المنظمة تصبح أوربا جماء راتعة في بحبوحة الحرية »

وكان بونابرت قد اتخذ لهجة الملاينة حين نسب الى الدير كتوار الفضل في عقد الصلح ، وفضلا عن ذلك كانت أحوال اللياقة تقتضي المجاهرة بمثل ذلك الاكرام الرسمي . على ان الموجه اليهم هذا الاكرام لم ينخدعوا بتلك الظواهر كما ان موجه الاكرام المذكور لم يكن منخدعاً في نوبته . ومن ذلك الحين صار بونابرت بالفعل في موقف حكومة الجمهورية بازاء السياسة الاوربية . فكانت الحكومة متجسمة فيه ، وكان يجمل فرنسا تتخذ الهيئة واللهجة اللتين تدلها عليهما مطامعه النبيلة ونهيته الحصيفة ، صارفاً النظر عن تعليمات الدير كتوار وعاملا على اعتبار تينك الحالتين جديرتين بذلك الشعب العظيم وملائمتين للمقاصد

التالية التي عقد عليها ذلك الرجل العظيم عرى عزمه فقد سعى في وقت دخوله ايطاليا ، وبعبارة أخص من وقت معركة لودي ، لتعرية السياسة الفرنسوية من الصفة العنيفة التي منحتها اياها حادثة سنة١٧٩٣ . ولم يكن يبتغي ان يصيب بظل ثورة الشعب الهائلة صلحاً مجيداً لبلاده وشهرة واسعة لنفسه ، وقد أدرك انه أزف الحين لتسكين ثائر التعصب الثوري الذي كان يرى ضرورته في الماضي ويشعر بوجوب تعزيزه ، فأظهر في المفاوضات مع ملك سردينيا والبابا والامبراطور ميلا الى المسالمة والتساهل يمتاز به الرجال العظام بترفعهم عن أهواء الاحزاب ، ولكنه شاء خصوصاً في المؤتمرات التي أفضت الى وثيقة كمبو فرميو ان يبين لملوك أوربا ان الجمهورية الفرنسوية عدو كريم الاخلاق لايدع البغض يعمي بصيرته ، ولا يجعل لمبادئه ومشوراته سبيلا لتهديد الحكومات الاجنبية في المستقبل . وقد جاهر بهذا الامر في جزيرة القديسة هيلانة حين قال « ان المبادىء التي وضعت لتنظيم شؤون الجمهورية قررت في كمبو فرميو. ولم يكن للديركتوار يد فيها » هكذا كانت القوة الحقيقية التي زاولها ذلك الرجل ولم يكن الديركتوار يجسر ان يطلب منه تأدية الحساب عن احتقاره له وجرأته عليه

ووجه اليه جهاراً بلسان رئيسه اطراء سداه الغلو ولحمته المبالغة ، مع انكار بونابرت لسلطة الديركتوار السامية واختلاسه لوظائفه . وكان مما قاله باراس في جوابه للجنرال بونابرت « ان الطبيعة التي تضن بمعجزاتها لا تنتج الا بين فترات بعيدة رجالا عظاما في الارض وقد تولتها الغيرة بأن تفتتح عصر الحرية بمثل هذا الحادث ، وكان من المقضي على فتنة الشعب الفرنسوي الكبرى التي لم يسبق لها نظير في تاريخ الامم أن تنشىء داهية في تاريخ مشاهير الرجال »

ولعمر الحق ان هذا التملق والتزلف اللذين لم يأنف منهما الحسد لدى تأثير الرأي العام يدلان على ما كان بونابرت قد أصابه من سمو المكانة عند قومه ومما يقضي بالعجب ان نرى زعيم الحكومة الجمهورية مضطراً الى مخاطبة قائد بسيط من قواد الجند باللهجة نفسها التي خاطبه بها فيما بعد رئيس مجلس الشيوخ في الامبراطورية أو كبير خدامه

وكأنا بالباريسيين من أهل النسيان، فقد محت شهرة بطل أركول ذكر مدفعي فنديميار . فكانوا أيان وقعت نواظرهم على بونابرت يكبرون له ويهللون ، حتى ان القوم في الملاعب حين كانوا يعلمون ان بونابرت بينهم يرفعون أصواتهم من كل جهة ، وتدعوه كل فئة الى الجلوس معها على ان تلك التظاهرات وان تكن تسره في الباطن كانت سبباً لافساد أمره عليه ، وقد قال ذات مرة « لو كنت عالماً بأن المقصورات في الملاعب مفتوحة على هذه الصورة لما كنت دخلت ملعباً قط »

ورغب بونابرت يوماً من الأيام في ان يشهد التمثيل في ملعب سرلي كان الناس يؤمونه زرافات زرافات ، وكان في مقدمة الممثلين والممثلات فيه عقيلة سان أوبان وأليفيو ، فطلب ان يجرى التمثيل في ذلك الملعب بقوله . « اذا كان ذلك ممكناً » فأجابه المدير برشاقة وخفة روح . « وهل من شيء غير ممكن لقاهر ايطاليا وقد نسخ من مدة طويلة لفظة « مستحيل » أو « غير ممكن » من متون اللغة »

ولا يخفى ان بونابرت مع ما كان القوم يبدونه من الاحتفاء به لم يسكر بخمرة التبجيل والاطراء ، بل نظر الى موقفه بمقلة التروي والتؤدة ، وخشي ان يكون بقاؤه مدة طويلة بلا عمل مدعاة الى نسيان ذكرى خدمه القديمة وناسخاً لتهوس الناس به ، فقال في هـذا الصدد « لا يدخر الملأ الباريسي ذكر شيء ، فان أنا مكثت هنا مدة طويلة بلا عمل لم آمن من الهلاك ولا محالة ، ففي بابل هذه الكبيرة تخلف الشهرة الحديثة الشهرة القديمة ، فلا يرونني ثلاث مرات في الملعب حتى يتبرموا مني ولا يكترثوا لي ، وعليه لا أغشى الملعب الا نادراً »

وكان يتمثل بقول كرمول حين كانوا يقولون له ان رؤيته تحرك ساكنات الحماسة في الجمهور « ان الشعب يزدحم أيضاً ازدحاماً أمامي حين يراني سائراً الى النطع » وأبى بونابرت ان يشهد حفلة تمثيل شائقة كانت ادارة الملعب تعدها اكراماً له ، ولم يكن يجلس في الملعب الا في مكان يرى منه القوم ولا يرونه

وصار أصحاب المكايد ينسجون برود الدسائس لاغتياله ، فأشعرته احدى النساء بأنهم يبتغون قتله بالسم ، فأوقف الشخص الذي حمل اليه ذلك الخبر

وساروا به ومعهم شيخ المحلة الى المرأة التي صدر عنها ذلك الانذار . ولشد ما كان تأثرهم حين شاهدوا تلك المرأة التاعسة مضرجة بدمها ، فان السفاحين لما علموا انها سمعتهم يدبرون المكيدة ، وباحت بسرهم عمدوا الى ارتكاب جريمة أخرى بالفتك بها ليأمنوا تبعة شهادتها عليهم . ولما الفى بونابرت ذاته مبعداً عن الديركتوار أراد الانتظام في سلك الندوة العلمية مع أنه كان محتاجا الى معالجة غير الشؤون العلمية والمسائل الادبية ، فقبل فيها خلفاً لكارنو بعد ما خرج هذا منها في حادث ١٨ فركتيدور ، فانضم الى الفئة التي تعنى بالعلوم والفنون . وها نحن ذاكرون صورة الكتاب الذي أنفذه بهذا الشأن الى الرئيس كاموس .

« حضرة الرئيس الوطني

« ان قبول الاشخاص الممتازين الذين يؤلفون هذه الندوة اياي بينهم يشرفني .

« وانا أشعر بأني قبل ان أصير مساوياً لهم أظل مدة طويلة معتبراً ذاتي تلميذاً لهم .

« ولو كان لي وجه آخر يفصح عن احترامي الشديد لهم لما أحجمت عن بسطه

« ان الفتوح الحقيقية التي لا يعقبها تأسف هي فتوح قلعة الجهل

« وان أشرف الاعمال وأهم المآثر التي تأتيها الامم هي العمل على توسيع دوائر أفكار البشر

« وان القوة الحقيقية التي يقضى على الجمهورية الفرنسوية بأن تبديها من الآن هي ان تعنى بأن يكون كل فكر جديد ناشئاً عنها . بونابرت »

وكانت تلك اللهجة غريبة في فم رجل بلغ ما بلغه من الفخر بأعمال حربية بحتة ، الا ان بونابرت كان يحاذر ان يدع أحداً يتوهم ان الحظ قد أبطره ، وان محبته للحرب قد شغفته . وكان بلوغ القمة التي سمت اليها مطامعه وأفكاره العالية يقتضي ان يظهر للملاء طراً انه لا يقتصر على التبجح بانتصاراته والاشتغال بالشؤون الحربية فحسب شأن الكثيرين من مشاهير القواد ، بل كان يميل أيضاً الى العلوم والتبحر فيها . وكان يهمه كثيراً ان تتعود تلك الامة العظيمة الطامح هو ببصره الى الجلوس على عرشها ان ترى فيه شخصاً لا يكتفي بقوة السلاح

للدفاع عنها بل يصون كنوزها العقلية الثمينة، ويعينها على تعزيز سيادتها العامة سواء أكان من الجهة الادبية أو من الجهة الحربية

ولقائل أن يقول : وهل حان الوقت لاظهار المقاصد السرية التي صارت تجول في خاطره من انتشاب حرب ايطاليا ؟ فنجيبه بأن بونابرت لم يكن معتقداً أن ذلك الأوان قد آن ، ففكر في وجوب الاسراع في نفض غبار الخمول عنه لئلا يستهدف لنبال العطب وتقلص ظل شهرته في مدة قصيرة . وصحت عزيمته على تأليف حملة ينطلق بها الى القطر المصري ، فوافقه الديركتوار على ذلك الامر ، لأنه لم يكن ينعم النظر في العواقب بل كان يبتغي أن ينجو من شر ذلك الرجل في القريب العاجل غير عالم بأن ما يصيبه ذلك الجندي الباسل من الانتصارات الجديدة يبهر أبصار الامة ويستميل اليه تعلقها به وميلها اليه .

وبعد ما دبر بونابرت خطة هذه الحملة تحرى أن يضعها وحده موضع الاجراء ، ووطن النفس على تجهيز جيش الحملة . واختار أيضاً العلماء والصناع لمرافقة الجنود رغبة في تسخير قوة السلاح لخدمة المدنية والعمران . ولما سئل عن مدة اقامته في مصر ، أجاب : « بضعة أشهر أو ست سنوات ، فذلك موكول الى الحوادث » وأخذ معه مكتبة مؤلفة من كتب تبحث في العلوم والفنون والجغرافية والرحلات والتاريخ والشعر والسياسة والروايات . وقد ضمّ الجدول الذي وضعه اسماء بلوطرخس ، وبوليبس ، وتوسيديد ، وتيت ليف ، وطاسيت ، ورينال ، وفلتير، وفردريك الثاني ، وهوميروس ، والطاس، وأوسيان ، وفرجيل ، وفنلون ، وروسو ، ولافنتان ، ومرمنتل ، والساج ، وغوطي ، والعهد القديم ، والعهد الجديد ، والقرآن ، والفيدا ، وروح الشرائع ، وأساطير الأولين .

ولما كان بونابرت على أهبة الارتحال عن باريس حدث خلاف بين برنادوت والحكومة النمسوية بسبب الراية المثلثة الألوان التي نصبها السفير الفرنسوي فوق داره واهانتها سوقة الناس في فينا فكادت الاحوال تقضي على بونابرت بالبقاء في أوربا . وكان الديركتوار يريد أن ينتقم لهذه الاهانة بشهر حرب جديدة يتولى قاهر ايطاليا قيادة الجنود فيها ، إلا أن هذا الاخير لم ترقه الخطة التي كان الديركتوار ينوي انتهاجها مخافة أن تحول دون انجاز ما كان قد صمم

عليه ، فقال بصواب : « للسياسة أن تدير حركات الحوادث ، وليس للحوادث أن تدير مجرى السياسة » فاضطر الديركتوار الى النظر بعين الاعتبار الى هذه الملاحظة المبنية على التعقل والتروي وبعد النظر في العواقب ، وحينئذ تمكن بونابرت من أخذ طريقه الى طولون .

ولما وصل بونابرت في ٨ مايو سنة ١٧٩٩ الى هذه المدينة المعتبرة مهداً لشهرته ومجده ، علم أن القوم ينظرون بعيون التأفف والتذمر والانكار الى خطة العنف التي يعامل بها المهاجرون ، والتي أعاد ١٨ فركتيدور وضعها موضع الاجراء .

ولما لم يكن يستطيع اصدار الاوامر بصفة قائد في اقليم لم يكن خاضعاً لسلطته ، كتب بصفة كونه عضواً من أعضاء الندوة العلمية الوطنية رسالة الى المفوضين الحربيين في الجنوب محرضاً إياهم على الاعتماد على الرأفة وعواطف الانسانية في قراراتهم . وكان من جملة ما كتبه اليهم : « انتهى اليّ بأسف شديد انكم نصبتم هدفاً للرصاص شيوخاً يتراوح سنهم بين سبعين وثمانين سنة ونساء حوامل معهنّ أطفال لوقوع التهمة عليهم بأنهم من المهاجرين .

« فهل أصبح جنود الحرية جلادين ؟

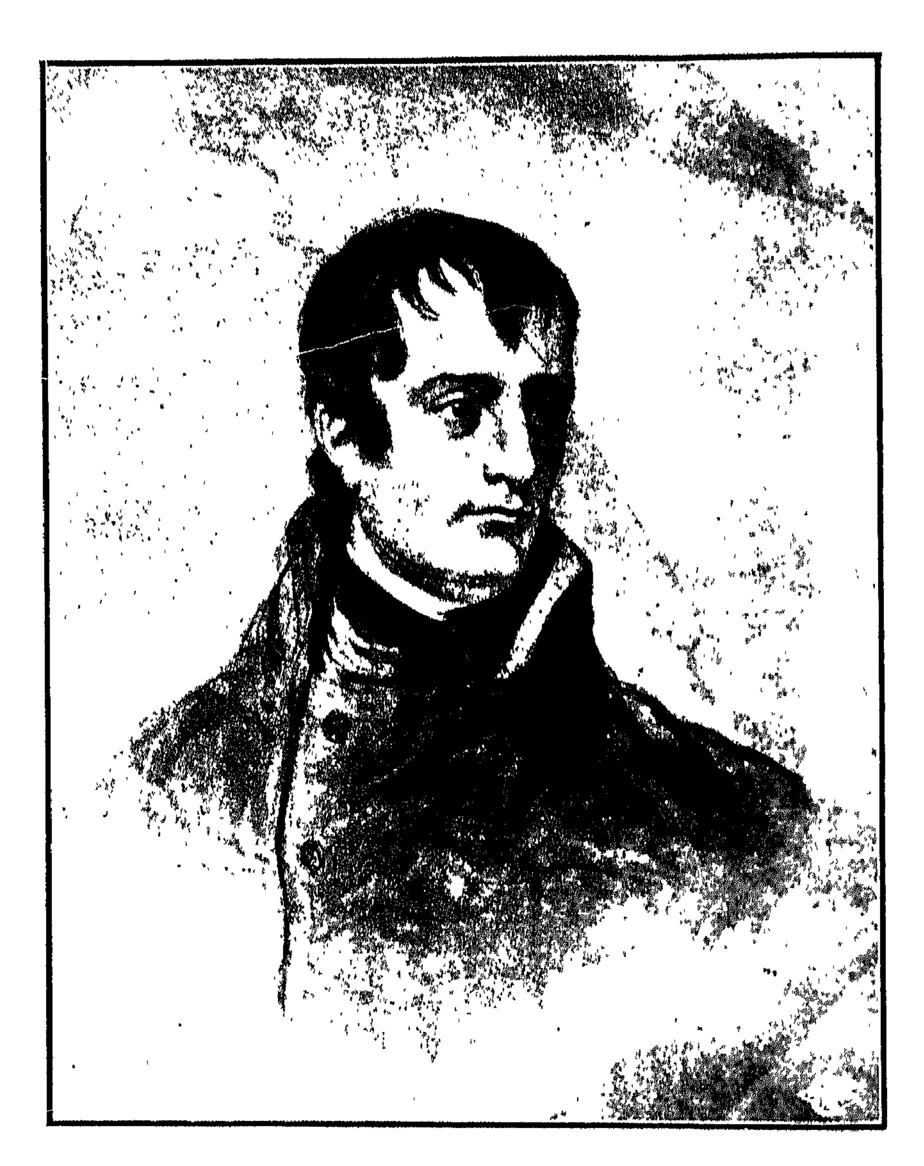
« وهل قضي على الشفقة التي كانت تصحبهم الى ميادين القتال بأن تهجر حنايا ضلوعهم ؟

« لقد كانت شريعة ١٩ فركتيدور مدرجة للخلاص العام ، وكانت الغاية التي يتوخاها واضعوها الضرب على أيدي مدبري المكايد وليس الفتك بالنساء التاعسات والشيوخ الذين مسهم الهرم

« أحرضكم يا حضرة الوطنيين أن تعلنوا على رؤوس الاشهاد ، كلما ساقت الشريعة اليكم شيوخاً يربو سنهم على الستين أو نساء ، بأنكم حين كنتم توقدون سعير الهيجاء كنتم تحترمون الشيوخ والنساء عند أعدائكم .

« فالجندي الذي يوقع حكماً على شخص يعجز عن حمل السلاح يعد نذلا جباناً »

وكان من وراء المساعي الدالة على نبالة في المقاصد وكرم في الاخلاق خلاص حياة مهاجر كان المفوض الطولوني قد أوشك أن يرسله الى المقصلة . فما كان



نابوليون بونابرت قنصل اول



أجل رؤية ذلك الجندي المتعود سفك الدم البشري في ساحة الوغى ، وهو يوصي الجنود بحقن دماء الشيوخ لعجزهم والنساء لضعفهن ، وماكان أجمل رؤية ذلك الجندي المعدود من أشهر الجنود ، وهو يذكر رجال الحرب بوجوب مراعاة ما توجبه عليهم الانسانية ، ولم يكن يستند في اظهار هـذه العواطف الكريمة الى سلطته أوشهرته الحربية بل الى المكانة التي أصابها بقدرته العقلية ومواهبه العالية ومعارفه الواسعة وأعماله السلمية . ففي الرسالة التي وجهها بونابرت عضو الندوة العلمية الوطنية الى المفوضين الحربيين في الجنوب شعور عميق بضرورة اخضاع سلطة السيف لسلطة القلم في المهمة الخطيرة التي يتحدونها للظفر بالنجاح الاجتماعي

ولما تمت معدات السفر ، ودنت ساعة الرحيل ، خاطب بونابرت جيشه بالكلام الآتي

« أيها الضباط والجنود ،

من سنتين توليت قيادتكم حين كنتم مرابطين عند نهر جنوي ، وكان الشقاء مخيما عليكم ، والحاجة ضاربة أطنابها بين ظهرانيكم ، وقد أنفقتم كل شيء حتى ساعاتكم لابتياع ما تسدون به رمقكم فوعدتكم بازالة شقائكم ، وسرت بكم الى ايطاليا حيث توفر كل شيء . . أولم أنجز مواعيدي لكم ؟ » فطبق الجنود الفضاء بهذه الكلمة « بلى »

وحينئذ استأنف بونابرت خطابه قائلا .

« ولكن اعلموا أنكم لم تفعلوا حتى الآن شيئاً مذكوراً للوطن ، والوطن لم يفعل في نوبته شيئاً مذكوراً لكم ، وهاءنذا الآن ماض بكم الى بلاد تأتون فيها أعمالا تفوق الاعمال التي يتعجب منها المعجبون بكم ، وتؤدون للوطن خدماً يحق له أن يتوقعها من خواضي الغمرات الذين لا يشق لهم غبار

« وأعد كل جندي بأنه يستطيع عند عودته من هـذه الحملة أن يشتري ست مئة قصبة مربعة من الارض

« وستستهدفون لسهام مخاطر جديدة يشاطركم اياها اخوانكم الملاحون ، ومعلوم ان اعداءنا لم يشعروا حتى الآن بثقل وطأة قوتنا البحرية . أجل ان ما تيهم لم تضارع ما تيكم لان الاحوال لم تمكنهم من ذلك ، وانما بسالة بحارتنا

مضاهية لبسالتهم ، وغايتهم التي يرمون اليها هي نيل الغلبة . وسيصيبون هـذه الامنية بالاتحاد معكم

« أوقفوهم على ذلك الامل الذي لايبارى والذي سخر لكم النصر أيان سرتم ، ومدوا لهم سواعد المساعدة ، وكونوا ، وأنتم معهم على متون السفائن ، شاعرين بالعواطف التي يمتاز بها الاشخاص الذين لا تسمع ضمائرهم الا أصوات الواجب عليهم ومحافظتهم على كرامة وطنهم ، ويحق لهم أن يتقاضوا كما تتقاضون أنتم الوطن الاعتراف بالفضل لهم في ماعانوه من الشدائد في فن الملاحة .

تعودوا مزاولة أعمال الملاحة على ظهور المراكب ، واقذفوا الذعر على أعدائكم براً وبحراً ، وتصيروا جنود الرومانيين فقد تمكنوا من تدويخ قرطاجنة في البحر والظفر بالقرطاجنيين وهم في سفنهم في عرض اليم »

فأجابه الجيش بصوت واحد « فلتحيي الجمهورية ! »

وشيعت جوزفين بعلها الى طولون ، وكانت تحبه محبة شديدة . فودعته وداعاً مؤثراً للغاية . وقد خشيا أن يكون افتراقهما أبدياً لما كان يترصد ذلك القائد الهمام من اهواء الحظ وتقلبات القضاء والقدر في الحملة التي ازمع ركوب مركبها وفي ١٩ مايو اقلع الاسطول يقل بونابرت ورجاله



الفصل السابع

فتح مصر

ولما خرج الاسطول من طولون توجه الى مالطة ، فحدث ذات يوم عند غروب الشمس حين كانوا سائرين في بحر صقلية أن كاتب القائد الاكبر توهم أنه ناظر قمم جبال الالب ، فأشعر بونابرت بما شاهده ، وهذا أظهر مايدل على الارتياب . الا أن الاميرال برويكس أخذ منظاره وبعد ماحدق النظر فيه قال ان بوريان مصيب في توهمه . فحينئذ صاح بونابرت قائلا « الالب » وبعد ما أغرق الفكر في بحر التأمل مدة من الزمان قال . لا استطيع وايم الحق أن أبصر ايطاليا من دون ان تعتريني هزة فأمامنا الشرق ونحن شاخصون اليه ، حيث تدعونا مهمة محفوفة بالمتالف ، تشرف هذه الجبال على سهول أسعدني الحظ بأن أقود اليها الفرنسويين غير مرة ليجنوا من أدواحها ثمار النصر . ونحن موقنون بأننا سنصيب بهم الغلبة ايان توجهنا »

وكان بونابرت في أثناء السفر يسر كثيراً بمحادثة العلماء وسواد الذين صحبوه . فيخاطب كلا منهم بما يروقه من الموضوعات ويكون من اختصاصه البحث فيه . وكان في غالب الاحيان يدعو اليه منج وبرتوله ويباحثهما في العلوم الدقيقة ويخوض معهما في مجال الكلام عن السياسة وعلم المعقولات . وكان يميل الى الجنرال كافارلي دوفلجا ويمنحه من ذات نفسه ، فقد كان يجد في أحاديثه التي يجاذبه أطرافها في كل يوم لذة صادرة عن توقد ذهنه وسرعة خاطره . وكان بعد الغداء يلقي على الحضور مسائل معقدة في موضوعات خطيرة ويعين لكل مسألة شخصاً يعالج حلها . وكانت غايته من هذا الامر اختبار مداركهم ورغبته في التبسط في مثل هذه الموضوعات ، وكان يمنح الافضلية للألى يصرون على مخالفة الرأي العام باسلوب يدل على الحنكة والفطنة . ولم يكن لهذه المباحثات من قيمة الا ترويض الافكار على الخوض في البحث . وكان يحب أيضاً أن يطرح قضيتي عمر العالم وانقراضه على بساط الجدل . ولم يكن تصوره وفكره يرتاحان إلا الى القضايا الواسعة الكبيرة .

ووصل الاسطول بعد سفر هادىء مدة عشرين يوماً الى جزيرة مالطة في ١٠ يونيو ، فاحتلوها بلا مقاومة . فقال كافارلي لبونابرت مازحاً بعد تفقد الحصون والاستحكامات : « لقد أسعدنا الحظ يا سيدي الجنرال بأن نجد في المدينة من فتح لنا أبوابها . » وقد أنكر نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة أن يكون الفضل في هذا الفتح السريع الداني المنال لأشخاص اتهموا بخيانة وطنهم فقال : « استوليت على مالطة وأنا في مانطو ، فمعاملتي لورمسر بالحسنى سهلت لي خضوع زعيم الجزيرة وفرسانه » إلا أن المسيو دي بوريان يؤكد بأن هذا الفتح لم يتم على هذه الصورة الا بالخيانة .

ولم يمكث بونابرت في مالطة سوى بضعة أيام ، فبرحها ميمماً جزيرة كريت ، وفي ٢٥ يونيو بدت لا نظارهم الجزيرة . وكان من وراء شخوص بونابرت الى كريت تضليل نلسن الاميرال البريطاني عن العثور عليه والتقائه بالاسطول الفرنسوي أمام مدينة الاسكندرية كما كان مقرراً في حسبانه . وكان ذلك من حسن حظ القائد الفرنسوي ومهادنة الاقدار له ، وقد صرح برويكس بأن الاميرال البريطاني كان يستطيع أن يظفر بعشر سفن بالاسطول الفرنسوي برمته ويدمره على بكرة أبيه . وكثيراً ما كان يتنهد ويقول : « لقد شاء الحق سبحانه وتعالى برحمته أن نجتاز البحر من دون أن نلتقي بالبريطانيين » . وقبل وصول بونابرت الى أرض أفريقية أراد أن يخاطب جنوده ليضرم في قلوبهم نيران الحماسة معللا إياهم بأمل الفتح القريب ، ومحذراً إياهم من الوهن والاضطراب . واليك تعريب الخطاب الذي ألقاه عليهم :

« بونابرت عضو الجمعية العلمية الوطنية والقائد الاكبر

« عن متن السفينة لوريان في ٤ مسيدور سنة ٦

« أيها الجنود

« أنتم مباشرون فتحاً لا يحد تأثيره بالمدنية والتجارة في المعمورة ، وستضربون بريطانيا ضربة مؤلمة ريثما يتسنى لكم ان تضربوها الضربة القاضية ، سنسير بالبلاد سيراً يصيبنا من جرائه العناء والاعياء ، وسنشتبك في حروب هائلة ، وسنجني ثمار النصر من جميع مشروعاتنا وفي جميع هذه الاعمال سيفتر لنا ثغر الحظ . ان المماليك الذين يساعدون التجارة البريطانية ، ويجرعون تجارنا كؤوس

الاهانة مترعة الى الاصبار، ويحملون سكان وادي النيل أثقال المظالم ، سيصبحون أثراً بعد عين بعد وصولنا بأيام.

« إن الشعوب التي سنعيش بين ظهرانيها تدين بالدين الاسلامي ، وقاعدة ايمانها الاولى «لا إله الا الله ومحمد رسول الله» فلا تعارضوها بشيء من الاشياء، بل تصرفوا معها كما تصرفنا مع اليهود والايطاليين . احترموا المفتين والائمة كما احترمتم الحاخامين والاساقفة وكونوا متساهلين لاقامتهم الاحتفالات المنصوص عنها في القرآن لتكريمهم المساجد كما كنتم متساهلين مع المسيحيين واليهود في تكريمهم الديورة والجامع .

« كانت العساكر الرومانية تحمي جميع المذاهب الدينية ، فستلقون هنا عادات واصطلاحات تختلف عن العادات والاصطلاحات المألوفة في أوربا ، فيجب عليكم ان تتعودوا العمل بموجبها

« ان الشعوب التي سنخالطها تعامل النساء بخلاف ما نعاملهن به ، ولكن المغتصب يعتبر وحشاً ضارياً عند جميع الأمم

« ان النهب لا يغني الا فئة صغيرة من الناس، فهو يجلل فاعله بالعار ويتلف مواردنا ويجعلنا من المنظور اليهم بطرف العداوة والبغضاء عند شعوب يهمنا كثيراً خطب مودتها

« وأول مدينة نصل اليها شيدها الاسكندر ، وسنلقى عند كل خطوة نخطوها آثاراً عظيمة جديرة بإثارة حب المباراة في صدور الفرنسويين »

وعلى أثر هذا الخطاب أذاع بونابرت نشرة تقضي بالموت على كل جندي يقدم على النهب والاغتصاب وارهاق الناس بدفع الضرائب واختلاس أشياء القوم . والقى على الضباط تبعة مخالفة الجنود للاوامر والنواهي .

وكان بونابرت يتحدى الرومانيين في التشديد على جيشه بوجوب السير على الخطة المثلى ، ومما هو جديد في خطابه هذا وجدير بالاعتبار على مثال ما فاه به في الخطب العديدة التي خطبها في هذه الحملة ، هو مشهد ذلك الفاتح الذي لم يكن ، كلما قضت عليه الحال بأن يخطب في جنوده خطبة حماسية أو يلقي على الشعب المغزوة أرضه كلاما يستميله به ، يطأ مواقع اقدام الذين تقدموه مستنداً في ذلك الى الخزعبلات والترهات والتهويل بكلمات فخمة وهائلة ، بل كان يعتبر

بعكس ذلك ان أول لقب يستميل اليه احترام الناس له وثقتهم به هو لقب « عضو » في ندوة علمية لاتعتمد في نيل النفوذ السلمي الا على العقل البشري ، فالاسكندر نفسه لما قدم مصر تلقب بابن المشتري ، وقيصر كان يزعم انه متحدر من الالهة بواسطة اسكانيه ، ومحمد اتخذ لنفسه فيها لقب نبي وكان يسخر الحسام لتعزيز دعوته ، وقد أطلق على أشد قواده بأسا لقب سيف الله ، وأتيلا جعل الناس يسمونه ضربة الله ، والحق سبحانه وتعالى عينه كان اللاهوتيون والشعراء في القرون المتوسطة يدعونه مستودع الصواعق ورب الجنود ومدبر الحروب . وأدرك بونابرت سر عصره وما كان نيل السيادة فيه على الافكار يقضي عليه ليصيب مجداً غير المجد الذي يصيبه غيره من الناس . ولما كان هذا الرجل العظيم يريد ان يظهر بنوع جلي ومثال واضح حيّ ان قوام النجاح الاجتماعي الذي بشر به الفلاسفة واحلته الشعوب على الرحب والسعة هو اخضاع سلطة السيف لسلطة الفنون المقرونة بالمدنية والعمران ، ولسلطة التجارة والعلم ، أعطى وهو أشهر قائد عند أمة تفوق سواها في الحرب ، المحل الثاني لمنصبه كقائد الجيش الأكبر والمحل الأول للقبه كعضو في الندوة العلمية . وكان يستهل رسائله وخطبه بهذه الكلمات « بونابرت عضو الجمعية العلمية الوطنية »

ووصل الاسطول الفرنسوي الى مياه الاسكندرية في أول يوليو وكان نلسن قد جاءها من يومين فأدهشه ألا يرى فيها أثر للحملة الفرنسوية ، فظن أنها توجهت الى سواحل سورية لتصعد الى البر في الاسكندرونة ولما انتهى الى بونابرت أن نلسن توجه الى الديار السورية للبحث عنه وعلم أنه لايلبث أن يعود الى وادي النيل حين لا يجده في بلاد الشام صمم على دخول القطر المصري ، الا أن الاميرال برويكس اقام النكير على عمل بونابرت ، فأصر هذا على قصده وألح بلهجة الآمر الاكبر بالصعود الى البر قائلا للاميرال برويكس الذي كان يطلب مهلة اثني عشرة ساعة . « ياحضرة الاميرال ليس لنا وقت نضيعه ، فالحظ لا يمهلني سوى ثلاثة أيام . فان أنا لم أستفد من هذا هلكنا ولا محالة »

فاضطر الاميرال الى الاذعان لمشيئة القائد الاكبر وكان اذعانه سبباً لنجاة أسطوله . فان نلسن لما لم يقف له على أثر في الارجاء التي بحث عنه فيها اسرع

في العودة الى الاسكندرية . ولكن كانت الفرصة قد فاتت فان عناد بونابرت وسرعته خلصا الجيش الفرنسوي ، فصار جميعه على اليابسة وكان صعود الفرنسويين الى البر في ليل اليومين الاول والثاني من شهر يوليو في الساعة الواحدة بعد نصف الليل على بعد ثلاثة فراسخ عن مدينة الاسكندرية . فزحفوا توا الى المدينة وتسلقوا أسوارها . وجرح كليبر في رأسه وهو يزحف في مقدمة الهاجمين . ولم يكلفهم الفتح سوى قليل من العناء من دون أن يعقبه أمور وخيمة فلم يقع في الاسكندرية نهب ولا قتل

ولما وطىء بونابرت أرض الفراعنة بأخمصيه كتب الى حاكم مصر ما يأتي . —

« ان الحكومة الاجرائية في الجمهورية الفرنسوية طلبت غير مرة من الباب العالي معاقبة بكوات مصر على تجريعهم التجار الفرنسويين كؤوس المهانة ، الا ان الباب العالي أجاب بان البكوات المعروفين بمطامعهم وأهوائهم لم يكونوا يسمعون صوت العدالة ، فهو لا يكتفي بالتصريح بأنه لا يرضى بوجه من الوجوه بأن يهان الفرنسويون أصدقاؤه الكرام القدماء بل يعلن أنه رفع عن اولئك البكوات ظل حمايته

« وقد قررت حكومة الجمهورية الفرنسوية أن تسير جيشاً قوياً لتضع حداً لتعدي بكوات مصر ، كما كانت قد اضطرت غير مرة في هذا القرن أن تعامل بمثل هذه المعاملة بكوات تونس والجزائر ،

« فانت يا سيد البكوات مضطر الى القيام في القاهرة وليس لك من السلطة والقوة سوى الاسم ، وعليه ينبغي لك أن تنظر بطرف الابتهاج الى قدومي الى بلادك ،

« ولا بد من أن تكون قد عرفت اني لم اقدم لمناوأة القرآن او السلطان بشيء من الاشياء ، لانه لا يخفى عليك أن الامة الفرنسوية هي حليفة السلطان من دون سواها في اوربا

« فخف اذن لملاقاتي ، وشاطرني لعن ذرية البكوات الكافرة ! »

ووقت ما دخل بونابرت مدينة الاسكندرية بادر الى اذاعة النشرة الآتية على سكانها

« بونابرت عضو الجمعية العلمية الوطنية والقائد الاكبر للجيش الفرنسوي

«مضت مدة طويلة والبكوات حكام مصر يسوقون الاهانة للامة الفرنسوية ويصمون تجارها بوصمة العار ، وعليه دنت ساعة العقاب ،

« مضت مدة طويلة واولئك الارقاء المشترون من القوقاس وجورجيا يعيثون فساداً في أجمل بقعة في المعمور ، الا أن الله مرجع كل شيء شاء ان تنقرض دولتهم .

« يا شعوب مصر ، سوف يقولون لكم اني قادم لابادة ديانتكم ، فلا تصدقوهم بل قولوا لهم اني آت لاعيد اليكم حقوقكم ، وأعاقب مختلسيها ، وأنا أحترم الله ونبيه الكريم أكثر مما يحترمهما المماليك قولوا لهم ان جميع البشر متساوون لديه تعالى ، وانه لافرق بينهم الا بالحكمة والمواهب العقلية والفضائل وعليه بأي حكمة ومواهب عقلية وفضائل يمتاز بها المماليك حتى يتسنى لهم ان يتمتعوا بكل ما يجعل الحياة هنيئة وعذبة ؟

« فاذا كانوا يزعمون ان مصر ملك لهم فليبرزوا الصك الذي تسلموه من الله ، ولكنه تعالى عادل ورحيم

« وسينتدب المصريون لتولي الشؤون في جميع الخطط ، فالذين يتفوقون منهم على غيرهم في الحكمة والعلم والفضيلة يحق لهم ان يديروا سكان الحكومة ، وحينئذ يصبح الشعب سعيداً .

« كانت لكم في خالي الحين مدن عامرة وترع كبيرة وتجارة واسعة ، فمن أخنى عليها جميعها ؟ أو ليست مطامع المماليك ومظالمهم ومساوئهم ؟

« أيها القضاة والشيوخ والشوربجية . قولوا للشعب أنا أصدقاء مخلصون للمسلمين الحقيقيين . أو لسنا نحن الذين نكلنا بالبابا وقد كان ينادي بوجوب شهر الحرب على المسلمين ؟ أو لسنا نحن الذين أبدنا فرسان مالطة الاغرار وقد كانوا يعتقدون ان الباري عز وعلا يريد ان يشهر القتال على المسلمين ؟ أو لم نكن في كل عصر أصدقاء المولى الاكبر (أيده الله) وأعداء أعاديه ؟ أوليس المماليك بعكس ذلك متمردين على سلطة السيد الاعظم وهم لا يزالون ينكرون آلاءه ولا يجرون الا على سنن أميالهم الملتوية ؟

« فهنيئاً للذين ينضمون الينا ، فيصيبوا الغبطة في معيشتهم ورفعة المنزلة في دنياهم وسعداً لمن يلازمون خطة الحياد فيكون لهم وقت كاف يقفون فيه



لوسيان بونابرت امير كانينو

ولد فى اجاكسيو ١٧٧٥ وتوفى فى فيتربى بايطاليا ١٨٤٠



يوسف بونابرت ملك اسبانيا

ولد فى مدينة كورته ١٧٦٨ وتوفى فى فلورنسه ١٨٤٤



على حقيقة حالنا وينحازون الينا ، ولكن الويل ثم الويل للذين يتشيعون للمماليك ويقاتلوننا ، فلا يبقى لهم من مطمع في الحياة بل ينتهون الى اسوأ مصير ! »

وبعد مافوض بونابرت الى كليبر القيادة في الاسكندرية فصل في ٧ يوليو عن هـذه المدينة متوجهاً الى دمنهور بطريق الصحراء ، فذاق الجيش اشكالا وألوانا من الجوع والعطش والحر الشديد ، وهلك من جراء ذلك فريق كبير من الجنود . إلا أنهم أصابوا شيئاً من الراحة في دمنهور فجعل بونابرت مركزه عند شيخ البلد وهو رجل طاعن في السن يتزيا بزي المساكين لينجو من المظالم التي كانوا يسوقونها الى ذوي اليسار. واستأنف بونابرت مسيره الى مصر ، وظفر في أربعة أيام بالمماليك في الرحمانية وأتلف أسطول البكوات وفرسانهم في شبريس واتخذ القائد الاكبر تنظيم المربع في الحرب في هذه المعركة الاخيرة فكان فرسان العدو يهجمون عليه بجرأة غريبة فلا يلقون أمامهم سوى العطب والبوار . ففي بدء هذه المعركة التي أصاب فيها بيره قائد احدي الفصائل فوزاً مبيناً وظفر بأعدائه الكثيرين المقيمين في موقع حصين كان العالمان منج وبرتوله يقاتلان الاعداء ويبلون بهم بلاء حسناً !

ولم تكن انتصارات بونابرت ورجاله سوى مقدمة لفوز باهر فتح في وجوههم أبواب مصر ، ففي أواخر شهر يوليو التقوا بمراد بك عند الاهرام ، فهبت في صدر بونابرت نسمات الحماسة عند رؤيته الآثار الهائلة الفخمة ، وصاح قبل اضرام نار القتال .

« أيها الجنود ستقاتلون المتسلطين على القطر المصري ، ولكن اعلموا أن من أعلى هذه الاهرام أربعين قرناً تنظر اليكم » . أجل ان أربعين قرنا كانت تنظر من أعلى الاهرام الى الفرنسويين ، ان أربعين قرناً شاهد أولها وضع هـذه الرموس الملوكية الهائلة على أيدي المصريين الارقاء ، وشاهد آخرها هذه الآثار الدالة على العبودية القديمة محررة على أيدي الفرنسويين الحرة خدمة للمدنية والعمران ، وكانت كلمة بونابرت الوجيزة هـذه تدل على الفسحة الفاصلة بين البناة والفاتحين . فالاولون كانوا ظلاماً أو عبيداً من ولادتهم ، والآخرون كانوا من أهل الحرية والمساواة بحسب أهليتهم فمن عهد الفراعنة أصحاب السلطة المطلقة المشهورين باستعبادهم للقبائل المقضي عليها بمزاولة الاعمال

الشاقة ومعاناة شظف المعيشة ، الى عهد القائد الذي قال للمصريين . « ان جميع البشر متساوون لديه تعالى » وبشرهم بأفضلية الفضائل وسيادة المواهب العقلية تنظر سلسلة متصلة حلقاتها بعضها بالبعض الآخر ومفرغة في قالب النجاح البطيء المقرون بالمشاق ، تتصل الحلقة الاولى منها بالحجر الاول من الاهرام الذي وضعته يد مثقلة بغل العبودية ، والحلقة الاخيرة منها بكلمة جندي لا يعترف بحق الزعامة إلا لمن أوتي الحكمة وازدان بالكمالات الادبية ، ويزيد تباهيه بانتشار أنوار العقل على تباهيه بامتداد قوة السيف . وحين قال بونابرت لجنود الجمهورية ان اربعين قرناً تنظر اليهم وهم ليس لديهم سوى القبائل التي اتصل اليها ارث العبودية القديمة ، كان يحرك ساكنات حماسة جنوده لحفظ التمدن وتوسيع نطاقه بعد ما اقتضى هذا التمدن عناء دام أربعة آلاف سنة أنفق في أثنائها النفس والنفيس وفضلا عن ذلك ان هذه الآثار المنتشرة فوقها علامات المهابة والناطقة بآيات الاجلال لم يستشهد بها على غير جدوى ، فان الجيش الفرنسوي قابل هذا الامر بانتصار باهر أصابه في مقاتلة المماليك

وعرفت هذه المعركة باسم « امبابه » وهو اسم قرية اشتبك القتال على مقربة منها . وبعد قتال عنيف استرخصت فيه النفوس ودام تسع عشرة ساعة تضعضعت أركان المماليك واليكم تفصيل هذه الوقعة الهائلة على ما كتبها الغازي

معركة الاهرام

« التقينا في ٣ ترميدور عند الفجر بطلائع الاعداء فهزمناها من قرية الى قرية وفي الساعة الثانية بعد الظهر انتهينا الى معاقل جيش العدو فأمرت فصيلتي ديزه ورينيه بأن تحيا الى الميمنة بين الجيزة وامبابه لتقطعا على العدو الاتصال بينه وبين مصر العليا ملجأه الطبيعي . وكان الجيش مصطفاً على الشكل نفسه الذي كان مصطفاً عليه في معركة شبريس ولما أنس مراد بك ميلا من ديزه الى اجراء حركة حربية صمم على الهجوم عليه وأنفذ أحد بكواته الاشداء بنخبة من رجاله ليشن الغارة بسرعة البرق على تينك الفصيلتين . فأمهلهم الفرنسويون ريثما صاروا على قيد خمسين خطوة منهم واستقبلوهم بالرصاص والقذائف ، فسقط منهم عدد كبير في ميدان القتال ، واندفع الباقون منهم على الفصيلتين فالتقتاهم بنار حامية أجهزت عليهم

« فاغتنمت الفرصة وأمرت فصيلة الجنرال بون المرابطة على النيل بان تهجم على المعاقل ، وأوعزت الى الجنرال فيال قائد فصيلة الجنرال مينو بان يتوسط بين الفيلق الذي هجم عليه والاستحكامات فينتهي الى ثلاث غايات : —

أولا — منع الجنود المصرية عن العودة اليها .

ثانياً — قطع خط الرجوع على الجنود النازلين فيها .

ثالثاً — الهجوم عند مسيس الحاجة على تلك المعاقل من الجهة اليسرى

« وحالما اقترب القائدان فيال وبون أمرا الفصيلتين الاولى والثالثة من كل فرقة بأن تصطفا للهجوم ، وبقيت في مركزيهما الفصيلتان الثانية والرابعة وقد الفتا شكل مربع لم يبق مخيما الا فوق ثلاثة من المرتفعات ، وزحف لمناصرة الهاجمين .

« وهجم رجال الجنرال بون بقيادة الجنرال رمبون الباسل على المعاقل بجرأتهم المعهودة ، غير مكترثين للنيران المنصبة عليهم من أفواه المدافع العديدة فقابلهم المماليك بالمثل وخرجوا من المعاقل شانين الغارة عليهم . وقد تيسر لجنودنا ان يقفوا ويقابلوا الاعداء من جميع الجهات والحراب في رؤوس بنادقهم ويصبوا عليهم مطراً من الرصاص . وكانت جثث القتلى تغشى ساحة الهيجاء ، وتمكن رجالنا من الاستيلاء على المعاقل . فولى المماليك الادبار ، وانهزموا زرافات زرافات من جهة الميسرة ، واضطروا الى المرور أمام فرقة من عساكرنا قتلت منهم مقتلة عظيمة ، وقذف عدد كبير منهم الى النيل فغرقوا فيه

« وسقط فى حوذتنا أكثر من أربع مئة بعير موقرة أمتعة ، وخمسون مدفعاً . وقدرت خسارة المماليك بألفي رجل من نخبة الفرسان ، وقتل وجرح فريق كبير من البكوات ، وأصيب مراد بك بجرح في خده . وبلغت خسارتنا عشرين أو ثلاثين قتيلا ومئة وعشرين جريحاً . وفي الليلة عينها أخليت مدينة القاهرة . وأحرقت جميع زوارقهم المدفعية وسفائنهم الحربية وقوادبهم وبارجتهم ودخلت جنودنا مدينة القاهرة في ٤ ترميدور .

« وأحرقت الجموع المتهيجة منازل البكوات في خلال الليل وأتوا كثيراً من المحظورات ، ويعز على المرء ان يلقى في غير مدينة القاهرة أوشاباً وأوغاداً بقدر ما يلقى فيها ، وهي تضم أكثر من ثلاث مئة نفس من السكان

« وبعد المعارك والوقعات المتوالية التي اضرم نارها الجنود الرافعون فوق رؤوسهم لوائي ، وحاربوا قوات تفوق قوتهم ، احبس لساني عن الاطراء على ثباتهم ورباطة جأشهم في مثل هـذا الموقف ، لو لم يقتض هـذا الشكل الجديد صبراً من جهتهم يخالف الحدة الفرنسوية . فلو استسلموا لحدتهم لما كانوا قد أصابوا الظفر الذي لاينال الا برباطة الجأش والصبر الجميل

« ونم فرسان المماليك بأسرار شجاعة غريبة ، فكانوا يدافعون دفاع الابطال عن ثروتهم ، وقد وجد جنود مع كل واحد منهم مبالغ من المـال تتفاوت بين ثلاث مئة دينار وخمس مئة دينار

« وكان اولئك القوم يحصرون كل نخفختهم في خيولهم وسلاحهم ، وأما بيوتهم فكانت في حالة يرثى لها ، على أنه يصعب على المرء أن يلقى أرضاً أخصب من أرض مصر وشعباً أشقى من شعبها وأشد جهالة وخمولا منه ، فهم يؤثرون زرا من أزرار جنودنا على ريال قيمته ستة فرنكات وفي القرى يجهل القوم وجود المقاريض ، وبيوتهم مصنوعة من الطين وليس عندهم من الرياش سوى حصيرة من القش وقدرين أو ثلاث قدور من الفخار . وهم على وجه الاجمال يتناولون قليلا من المطعم والمشرب ويجهلون كل الجهل استعمال المطاحن ، وقد كنا نازلين فوق مقادير وفيرة من الحنطة من دون ان نستطيع الحصول على شيء من الدقيق فكنا نعيش على البقول واللحم . وهم يصيبون الدقيق بطحنهم البر بين حجرين ، وفي بعض القرى الكبيرة مطاحن تديرها الثيران . وكانت عصابات من الاعراب قوامها لصوص وسفاحون من أعظم لصوص الارض وسفاحيها توالي الهجوم علينا ثم لاتلبث أن تفتك بالترك أنفسهم كما تفتك بالفرنسويين على السواء ، ولا تحجم عن شيء تصل اليه أيديها. فاللواء موريرور وكثيرون غيره من الحجاب والضباط في أركان الحرب قتلهم أولئك الاشقياء الكامنون وراء السدود وفي الخنادق وهم على صهوات جيادهم الصغيرة الجسوم والويل لمن يبتعد مئة خطوة عن الجيش . وحيث ان اللواء موريرور لم يعبأ بانذار الخفير بل أصغى لصوت القضاء والقدر — وقد لاحظت في غالب الاحيان ان هذا الامر يصيب الذين تحين ساعتهم — وصعد الى اكمة تبعد نحو مئتي خطوة عن المعسكر . عدا عليه ثلاثة من الاعراب كانوا في ذلك المكان

واغتالوه . فكان فقده خسارة كبرى للجمهورية ، لأنه كان قائداً من أشجع القواد الذين عرفتهم .

« ولا يتيسر للجمهورية ان تصيب طارئة أقرب من مصر اليها ، ولا تربة أغنى من تربتها . فهواؤها جيد لأن ليلها يهب فيه النسيم البليل . وبعد مسيرة خمسة عشر يوماً واحتمال متاعب متنوعة وحرماننا الخمر وكل ما من شأنه ان يخفف عنا أثقال الاعياء لم يصب أحد منا بداء من الادواء ، وقد وجد الجنود لذة عظمى في البطيخ المتوفر هنا . . .

« وامتازت المدفعية امتيازاً باهراً، فاطلب منكم رتبة فريق للواء دومارتين وقد وعدت دستان قائد نصف الفرقة الرابعة برتبة لواء . وقام الجنرال زايونشيك خير قيام باعباء المهمات العديدة الخطيرة التي فوضت اليه قضاءها . وركب المدير سوسي متن أسيطيل النيل ليسهل عليه ايصال القوت الينا من الدلتا . ولما علم اني أضاعف الاغذاذ في السير ، وكان راغباً في أن يكون الى جانبي في أثناء نشوب القتال ، قذف بنفسه الى زورق من زوارق المدفعية ، وانفصل عن الاسيطيل مع ما كان يحيط به من المخاطر التي تهدده . فنشب الزورق في الرمل وهجم عليه عدد كبير من الاعداء ، فباح بأسرار جرأة عظيمة وجرح في ذراعه جرحا بالغاً ، ولكنه تمكن من اقالة عثار رفاقه واخراج الزورق من المأزق الذي نشب فيه

« لم تصل الينا أخبار من فرنسا بعد ارتحالنا عنها . . .

«أرجو منكم ان تدفعوا مكافأة قدرها ١٢٠٠ فرنك لزوجة الوطني لاري كبير جراحي الجيش ، فقد أدى لنا في وسط الصحراء أعظم الخدم بنشاطه وغيرته . وعندي ان هذا الطبيب هو أفضل من جميع الاطباء الذين أعرفهم ليكون رئيساً لمستشفيات الجيش النقالة »

وفي الغد وهو اليوم الرابع من شهر ترميدور (٢٢ يوليو) دنا بونابرت من القاهرة وأذاع النشرة الآتية .

« يا شعب القاهرة ، يسرني تصرفكم ، فقد أصبتم في امتناعكم عن التحرس بنا ، قدمت لاستئصال شأفة المماليك وصيانة التجارة وأهل البلاد الوطنيين :

فليسكن جأش الملهوفين ، وليرجع الى منازلهم هاجروها ، ولتقم الصلوات اليوم كمألوف العادة ، وليثابر عليها دائماً . لايدخل عليكم الخوف من اصابة الضر لعيالكم وبيوتكم ومقتنياتكم ولا سيما دين النبي الذي أحبه . وحيث كانت الحال تقتضي الاسراع في انتقاء أشخاص تفوض اليهم ادارة الشحنة لئلا تتكدر حياض السكينة فسيعقد مجلس مؤلف من سبعة أشخاص يجتمعون في جامع فيره وسيكون منهم اثنان مقيدين دائماً بخدمة قائد الموقع ، وسيهتم أربعة منهم بالمحافظة على الراحة العامة ومراقبة أعمال الشحنة » وفي ٢٤ يوليو دخل بونابرت عاصمة القطر المصري، وفي ٢٥ منه كتب الى أخيه يوسف أحد أعضاء مجلس الخمس مئة ما يلي

« ستقرأ في النشرات العامة أنباء فتح مصر وما عانيناه من القتال في سبيله لنضيف صفحة أخرى الى تاريخ مجد هذا الجيش . ان أرض مصر تفوق أرض جميع البلدان في وفرة ما يجنى منها من الحنطة والارز والبقول واللحوم ، بيد ان الهمجية قد بلغت فيها غايتها ، وليس فيها مال للقيام بشيء من الاشياء ولاسيما لدفع نفقات الجند . وبعد شهرين أتمكن من الوصول الى فرنسا

« أسع لكي يكون عند وصولي معركة أوقد سعيرها اما على مقربة من باريس واما في برغونيه حيث أنوي ان أقضي فصل الشتاء »

ويستنتج من هذه الرسالة ان بونابرت كان يعتقد ان فتحه مضمون وانه يستطيع ان يكل أمر المحافظة عليه لنوابه العقلاء الدهاة من دون ان يعرضه للخطر أو ان يوجس خيفة من افلاته من أيديهم . ولكن ماذا كانت الغاية من وراء رجوعه الفجائي غير المنتظر ؟ فهل كان يبتغي العودة الى فرنسا كما زعم بعضهم للبحث عن أسباب حربية جديدة وأغراض أخرى تدعو الى الاستعمار؟ أو انه لم يكن له من غاية سوى الاقتراب من الملعب الذي كان حظه يدعوه الى تمثيل دور خطير فيه ؟ وهل كان يعتبر ان قد دنت ساعة الحوادث التي كان ينظر اليها ببصيرته ويتمنى الوصول اليها من عهد بعيد تمهيدا لارتقائه الى السدة العليا؟ نعتقد ان الافتراض الاخير أقرب من سواه الى الصواب .

الفصل الثامن

نكبة أبي قير — انشاآت بونابرت في مصر — حرب سورية — الرجوع الى مصر — معركة أبي قير — العودة الى فرنسا

وكان بونابرت في خلال تعقب ديزه لمراد بك في مصر العليا يعنى وهو في مصر بتنظيم الادارة في الولايات المصرية ، إلا أن ابرهيم بك اللاجىء الى سورية اضطر بتلك الحركات هـذا الفاتح المشترع الى ترك أعماله السلمية واستئناف القتال ، فالتقاه بونابرت وكسره في الصالحية شر كسرة ، وقد جرح سلـكوفسكي الباسل في هذه المعركة .

وانتهى الى بونابرت نبأ محزن نغص السرور الذي شعر به هو ورجاله على أثر هـذا الانتصار الجديد ، فان كليبر أشعر بونابرت بأن اللورد نلسن أتلف الاسطول الفرنسوي في أبي قير بعد معركة استرخصت فيها الارواح . ولم تكد أنباء هذا الحادث تنتشر في الجيش حتى بلغ منه الاستياء والذعر مبلغهما ، فشعر القواد والجنود الذين ساورهم الضجر والقلق في الايام الاولى بعد صعودهم الى البر بان عوامل الحنـين الى الوطن تتجاذبهم بعنف ، وجعلوا يتذمرون نابذين عنهم الغرور . ففي بدء الامر قاس بونابرت بعين فكرته جسامة هـذه النكبة فكاد صرح عزيمته يتداعى ، ولمـا قالوا له ان الديركتوار سيبادر ولا مراء الى اصلاح ما أفسده القضاء والقدر قال لهم بحدة : « ان أعضاء الديركتوار جماعة من . . . فهم يحسدونني ويبغضونني ويتركونني أهلك هنا » ثم أشار الى أركان حربه وقال : «أولا تنظرون الى جميع هؤلاء الاشخاص لقد قضي عليهم بالهلاك : »

إلا أنه لم يدع القنوط يبلغ من نفسه الـكبيرة ، فنهض لساعتـه وصاح بصوت يشف عن صبر مقرون بالشجاعة : « سنبقى هنا أو نبرح هـذا المـكان عظماء كالاقدمين . »

ومن ذلك الحين أقبل بونابرت بهمة لا تعرف الملل على تنظيم ادارة مصر المدنية ، وازداد شعوره بالحاجة الى استمالة السكان اليه ، وتشييد معاهد وطيدة

الاركان فيها . وكان أول معهد أنشأه في هـذا القطر ندوة تحاكي ندوة باريس العلمية وقسمها الى أربعة أقسام :

أولا — قسم الرياضيات

ثانياً — قسم الطبيعيات

ثالثاً — قسم الاقتصاد السياسي

رابعاً — قسم علم الادب والفنون الجميلة

وأسند الرئاسة الى منج ، واتخـذ بونابرت لنفسه لقب نائب رئيس . وافتتحت الندوة الجديدة بحفلة شائقة أيد فيها هذا الجندي العظيم كلماته الجميلة التي وجهها الى رئيس ندوة فرنسا العلمية لما انتظم في سلـكها بقوله انه لم يكن يطمع بفتوحـه إلا ليفتح قلعة الجهل ، وان نجاح جيشه لم يكن سوى نجاح العلوم والمعارف

وكان بونابرت قد استمال اليه المسلمين وكانوا يطلقون عليه اسم « السلطان الـكبير » ، فصاروا يدعونه الى جميع أعيادهم واحتفالاتهم وقد شهد حفلة وفاء النيل وعيد مولد النبي من دون أن يرأسها كما زعم بعضهم، على ان احترامه للدين الاسلامي جعل المصريين يكرمون اسمه وينقادون لسلطته . ورأى بعض الناس أن تصرف بونابرت من هذه الجهة كان نوعاً من الميل الى الاسلامية ، مع أن بونابرت لم يفعل ما فعله من هذا القبيل إلا اجابة لداعي السياسة فلم يكن مسلماً ولا مسيحياً بل كانـ هو وجيشه في مصر من غـلاة الفلسفة الفرنسوية والسفسطة المقرونة بالتساهل ، وعدم الاكتراث للدين كما كانت الحال في القرن الثامن عشر . ولم يكن يشعر في رأسه بأفكار دينية تهب فيه بل كانت تجول في أعماق صدره عواطف دينية مبهمة . إلا أن هـذه المقاصد التي كانت تكفيه مؤونة الاشتغال بالشؤون الدينية التي استغرقت الافكار في ذلك العصر والتي كانت تمكنه من تولي العلاقات الحبية مع الايمة والمشايخ كما كان يفعل في غير تلك الاحوال مع خدام الدين المسيحي والدين الموسوي لم تـكن تدنيه من الانجيل أكثر مما كانت تدنيه من القرآن . وأقيمت في أول فنديميار من السنة السابعة حفلة في القاهرة لعيد انشاء الجمهورية ، فترأس بونابرت هـذه الحفلة الوطنية وقال لرجاله « أيها الجنود ، من خمس سنوات كان استقلال الشعب



جيروم بونابرت ملك وستفاليا

ولد فى اجاكسيو سنة ١٧٨٤ وتوفى فى فيلجنيس بفرنسا سنة ١٨٦٠



لويس بونابرت ملك هولندا ووالد نابوليون الثالث

ولد فى اجاكسيو سنة ١٧٧٨ وتوفى فى ليفورنو بايطاليا سنة ١٨٤٦



مستهدفا لنبال المخاطر ففتحتم طولون وكان هـذا نذيراً بدمار أعدائكم . وبعد سنة من الزمان ظفرتم بالنمسويين في داغو ، وفي السنة التالية كنتم على قمة جبال الالب . ومن سنتين كنتم تحاربون مانطو وقد أصبنا النصر في موقعة القديس جرجس المشهورة ، وفي السنة الماضية كنتم عند ينابيع نهري الدراف والايزنزو في أثناء عودتكم من المانيا . فهل كان يجري في وهم احد في ذلك العهد أنكم تخيمون اليوم على ضفاف النيل في وسط القارة القديمة ؟ لقـد لفتم اليكم انظار العالم من البريطاني المشهور في الفنون والتجارة الى الاعرابي القبيح المنظر الشرس الاخلاق . أيها الجنود ، ان ثغر الحظ يفتر لـكم ، فأنتم جديرون بالاعمال التي أتيتموها ، وأنتم عند ظن الناس فيكم . ستقضون بشرف على مثال الابطال المحفورة أسماؤهم على هذه الاهرام ، أو تنثنون منقلبين الى وطنكم تجرون ذلاذل النصر وتصيبون اعجاب جميع الناس بكم

« من خمسة أشهر قضيناها بعيدين عن أوربا لم ينفك وطنيونا عن الاهتمام بنا ، ففي هـذا اليوم يحتفل أربعون مليوناً من الوطنيين بذكرى عصر الحكومة النيابية ، ويفتكر بكم أربعون مليوناً من الوطنيين وجميعهم يقولون : أنهم بالاعمال النبيلة التي اتوها والدماء الكريمة التي بذلوها ذوو فضل على السلم العام والراحة ورواج سوق التجارة ومحاسن الحرية المدنية . »

وكان المشايخ يشاطرون في الظاهر الجيش الفرنسوي ابتهاجه مقدرين لبونابرت مشاطرته إياهم الاحتفال بمواسمهم حق قدرها . فدوى الجامع الاكبر بتهليل الفرح وابتهلوا الى الحق سبحانه وتعالى بأن يفيض ينابيع نعمه على حليف النصر ويعضد جيش أبطال الغرب وفي غضون تلك التظاهرات الحربية كان ابرهيم بك ومراد بك زعيما المماليك وحليفا بريطانيا يوقظان الفتنة فما عتمت أن بدت طلائعها في عاصمة الديار المصرية . وكان بونابرت في أثناء ذلك الحين في مصر القديمة . فلم يكد ينتهي اليه ماجرى حتى بادر الى العودة الى معسكره ، فطهر جنود الفرنسويين في مدة قصيرة شوارع القاهرة وأزقتها ، واضطروا الثائرين الى الاعتصام في الجامع الاكبر ، فأمطر عليهم المدفعيون سحاب الموت من أفواه مدافعهم . وكانوا قد ابوا الاستسلام ، الا أن قصف صواعق المدافع جعلهم يسلسون قيادهم للفرنسويين ، فنبذ بونابرت قبول استسلامهم المتأخر

عن ميماده قائلا لهم . « انقضى زمان الشفقة ، فأنتم ابتدأتم وأنا أنهي » . فحطمت أبواب الجامع وجرت غدران من دماء الترك . وأراد بونابرت أن ينتقم بنوع خاص للجنرال دوبوي قائد الموقع وسلكوفسكي الشجاع اللذين عبثت بهما أظافر المنية

وكان ان سياسة بريطانيا النافذة بعد ما أيقظت فتنة القاهرة من مرقدها وجعلت جميع البلاد المصرية تهب على الغزاة حملت حكومة القسطنطينية على اعلان العداوة لفرنسا . فأصدر السلطان نشرة ضمنها سباباً وشتماً للفرنسويين ، وأوجب اهانة راية الجمهورية والايقاع بجندها فأجاب بونابرت على هذه الاهانات والتظاهرات العدائية بنشرة ختمها بالآية القرآنية قائلا ، « ان أشرف الانبياء قال . الفتنة هاجدة ، فليكن ملعوناً من يوقظها ! »

وشخص بونابرت الى السويس ليتفقد آثار الترعة القديمة التي كانت صلة بين مياه النيل والبحر الاحمر ، وقد صحبه اليها منج وبرتوله ، فكادت رغبته في رؤية عيون موسى تكون وخيمة التبعة عليه ، لانه ضل في الليل البهيم عن سواء السبيل من جراء مد البحر وجعل يناجي النفس قائلا . « أوشكت أن أهلك كما هلك فرعون من قبلي ، ولو تم هذا لكان جميع الواعظين المسيحيين يلقون في هذا الحادث موضوعاً للتشفي مني »

ولما درى رهبان طورسينا أن بونابرت في جوارهم أرسلوا اليه وفداً يدعوه بلسان أعضائه الى كتابة اسمه في سجلهم بعد اسم علي وصلاح الدين وابرهيم وغيرهم ، فلم يضن عليهم بونابرت بهذه النعمة المواتية لرغبته في اصابة الشهرة

وكان عبد الله باشا الجزار قد استولى على قلعة العريش التابعة لحكومة بلاد الشام ، فصمم بونابرت على محاربته ، وكان ينوي من عهد بعيد مباشرة هذا الامر . وانتهى اليه وهو في السويس نبأ انتصار الجزار ، فعجل في العودة الى القاهرة ليستصحب الجنود الذين كان محتاجاً اليهم في حملته . وبعد ما عمل على ضمان الراحة في العاصمة وتقليم أظفار الفتنة فيها بالتمثيل بالزعماء الذين حركوا ساكناتها فصل عن أرض مصر وأوغل في القارة الاسوية . فاجتاز البادية المنبسطة أمامه راكباً متن هجين ، وقد فضل ركوبه على ركوب الجياد لصبره على الحر والعطش والجوع والانضاء . وضلت طلائع الجيش عن الطريق ، فلم

يلتقطها إلا حين كادت تستسلم الى القنوط ،وقد أوشكت ان تبيت فريسة للاعياء والظمأ . فجاءهم بونابرت بالمطعم والمشرب وقال لهم « وهب تأخرت عن امدادكم بالطعام والشراب فهل يكون هذا الامر سبباً لتذمركم ووهن عزائمكم ، فلا ينبغي ان يقع مثل هذا الامر يا جنود ، بل تعودوا بذل المهج بشرف » وكان شظف المعيشة والجهد يشتدان في بعض الاحيان فيفسد النظام العسكري ويدخل عليه الاضطراب ، وقد حدث لجندي فرنسوي في رمال البادية المحرقة ان يتخلى بعناء لرؤسائه عن قليل من الماء الآجن أو ظل بعض الجدران المتداعية ، كما انه صار فيما بعد في وسط الثلوج في روسيا ينازعهم بعض الزوايا في الاكواخ أو بضع قطع من لحم الخيل المنتن . فذات يوم كاد القائد الاكبر يختنق من شدة حرارة الشمس فنال نعمة عظمى بأن يستذري ببقايا باب ، وقد قال بونابرت في هـذا الصدد « انهم منحوني في ذلك الامر امتيازاً عظيما » وبينما هو يفحص الارض برجله عثر على حجر نقشت عليه صورة أوغسطس قيصر فعلق عليه العلماء أهمية كبرى وأعطى بونابرت أندريوسي اياه ، ثم انه استرجعه منه وقدمه فيما بعد لجوزفين لتجعله فص خاتم ، وقد وجد هذا الحجر بين أنقاض بيلوز

ولما تعقب بونابرت آثار جيش الترك في بلاد الشام كان يرمي الى غاية أبعد ، فانه كان يبتغي التحرش بالدولة البريطانية بتأليفه حملة يزحف بها الى الهند مجتازاً بلاد العجم ، وكتب الى طيبو صايب رسالة هذه خلاصتها

« انه ولا مراء قد انتهى اليك نبأ وصولي الى شواطىء البحر الاحمر بجيش جرار لا يشق له غبار ، يرغب كل الرغبة في تحريرك من نير بريطانيا الحديدي ، فأبادر الآن الى اشعارك برغبتي منك ان تبلغني بطريق مسقط أو مخا أخباراً عن موقفك السياسي . وأرغب منك أيضاً ان توفد من لدنك الى السويس أو الى القاهرة مندوباً داهية نائلا ثقتك فأتمكن من مفاوضته »

فهذا الكتاب الذي خطه بونابرت في ٢٥ يناير سنة ١٧٩٩ ظل بغير جواب، وسقطت دولة طيبو صايب بعد مدة قصيرة .

وبلغ بونابرت العريش في منتصف شهر فبراير وفي ١٦ منه سلمت قلعة العريش بعد انكسار المماليك انكساراً تاماً وفتحت غزة أبوابها في وجهه بعد ستة أيام : ولما اقتربوا من بيت المقدس سألوه هل ينوي المرور بها ، فأجابهم

بحدة « لا . فان مدينة بيت المقدس غير مذكورة في الخطة التي توخيت المسير عليها ، فلا أروم التحرش بسكان الجبال والتوغل في مآزق يصعب الخروج منها ، وفضلا عن ذلك أخشى ان يهاجمني من الجهة الاخرى فرسان كثيرو العدد وأحاذر ان يصيبني ما أصاب كاسيوس »

« وفي ٦ مارس استولوا على يافا بعد هجوم عنيف ، فأبيح فيها النهب والقتل ، فأنفذ بونابرت حاجبيه بوهارنه وكروازيه لتسكين هياج الجند ، فوصلا في الحين الملائم وأنقذا من جنود الحامية أربعة آلاف الباقي كانوا قد نجوا من المجزرة بالتجائهم الى الخانات . ولما أبصر القائد الاكبر هؤلاء الجنود الذين جاؤوه بهم تأثر وقال « ماذا يريدون ان أفعل بهم ، فهل عندي من الطعام والشراب ما يكفيهم ، وهل عندي سفن تقلهم الى فرنسا أو مصر ؛ فما هذا الامر الذي فعلوه ؟ » فاعتذر الحاجبان بما كان يهددهما من الخطر لوكانا قد أبيا قبول التسليم ، وذكرا بونابرت بالمهمة المقرونة بالانسانية التي فوضها اليهما فأجابهما بحدة « أجل ان الامر الذي تذكرانه يتناول النساء والاولاد والشيوخ ويستثني الجنود المدججين بالسلاح ، فكان الاشبه بكما ان تهلكا ولا تأتياني بهؤلاء التاعسين ، فماذا تريدان أن أفعل بهم ؟ »

وظل ثلاثة أيام يفاوض أصحابه في أمر الحظ المكتوب لاولئك المنكودي الطالع ريثما يأتيه البحر والريح بسفينة تملصه من أسراه من دون ان تضطره الحال الى اجراء غدران جديدة من الدم ، الا ان تذمر الجيش لم يمكنه من تأخير عمل كان ينفر منه نفورا عظيما . ففي ١٠ مارس أصدر الامر بنصب الالبانيين هدفاً للرصاص .

وانتشر في مصر خبر سقوط يافا بالاذاعة التالية .

« بسم الله الرحمن الرحيم رب العالمين ، مالك كل شيء ، مؤتي النصر من يشاء . هذا نبأ الفضل الذي من به الباري تعالى على الجمهورية الفرنسوية ، فقد فتحنا مدينة يافا في بلاد الشام

« كان الجزار ينوي الزحف بسفاحي العرب الى القطر المصري مقر المساكين إلا أن أحكامه تعالى تظهر على مكايد البشر ، فقد كان يبتغي أن يسفك الدماء كمألوف عادته الهمجية منقاداً بذلك الى عجرفته والمبادىء الذميمة التي

اقتبسها من المماليك وأوحاها اليه الجهل . فذهب عنه أن الحق سبحانه وتعالى مصدر كل شيء

« في ٢٦ رمضان أحاط الجيش الفرنسوي بمدينة يافا ، وفي ٢٧ منه احتفر القائد الاكبر خنادق عند رؤيته مدافع كثيرة وجمهورا غفيراً من الناس في المدينة . وفي ٢٩ منه صارطول الخنادق نحواً من مئة قدم فنصب القائد الاكبر المدافع والبطاريات الى جهة البحر ليسد الطريق في وجه الذين يريدون الخروج

« وفي يوم الخميس وهو آخر يوم من شهر رمضان عطف القائد الاكبر على سكان يافا ، فدعا حاكم المدينة الى التسليم ، فكان الجواب القاء القبض على الرسول ومخالفة القوانين الحربية والشرائع الدينية والمدنية

« وفي الحال انفجر مرجل الغضب في صدر بونابرت فأطلق المدافع والقذائف ، وفي بضع دقائق تعطل مدفع يافا . وعند الظهر فتحت ثغرة في سور ، فهجم الفرنسويون وفي أقل من ساعة من الزمان استولوا على المدينة والقلاع واشتبك الجيشان في القتال فآل النصر الى الفرنسويين ، وظل النهب جارياً ذلك الليل بطوله . وفي يوم الجمعة تحركت في فؤاد القائد الاكبر عوامل الشفقة على المصريين المقيمين في يافا ، فصفح عن الفقراء والاغنياء منهم على السواء وأرجعهم بكرامة الى بلادهم ، وعامل بالمعاملة نفسها الدمشقيين والحلبيين. وقتل في المعمعة بالرصاص أو بحد السيف أكثر من أربعة آلاف رجل من رجال الجزار . وفقد الفرنسويون عدداً يسيراً من الرجال ، وجرح قليلون منهم ، ودخلوا بطريق الجسر من دون أن يبصرهم أحد . ياعباد الله اخضعوا لاحكامه ، ولا تخالفوا مشيئته ، واحفظوا وصاياه ، واعلموا أن العالم له يعطيه من يشاء والسلام »

وجاء الجيش الفرنسوي الى بلاد الشام بجراثيم الطاعون فانتشرت فيها واستفحل أمرها في حصار يافا . وكان غرازيو أحد معاوني الجنرال يحاذر أن يمس أحداً من الموبوئين مخافة أن يسري الوباء اليه ، فقال بونابرت « اذا كان يخاف من الطاعون فسوف يموت به » وقد تم تنبؤه في حصار عكا

ووصل بونابرت في ١٦ مارس الى مدينة عكا ، فلقي فيها مقاومة شديدة لم يكن يتوقعها . وجرح الجنرال كافارلي جرحاً مميتاً ، فقبل ما لفظ أنفاسه

الاخيرة طلب أن تتلى على مسممه المقدمة التي كتبها فلتير لكتاب «روح الشرائع» فاستغرب القائد الاكبر هذا الطلب وكان يعتبر مصرع كافارلي خسارة جسيمة

وجاءت بونابرت أخبار من مصر العليا ، ومن جملتها نبأ من ديزه مفاده أن السفينة «ايطاليا» انشبت في الرمل عند ضفة النيل الغربية بمدعراك عنيف وكان بونابرت مع شدة دهائه يعتقد في غالب الاحيان صحة بعض الخزعبلات والترهات ، فلما عرف ماجرى لتلك السفينة قال « ضاعت ايطاليا من يد فرنسا ، فحدسي لا يخطىء موقع الصواب »

وانتشر الجيش الفرنسوي في أثناء حصار عكا في معركة جبل تابور الشهيرة ، فكان اثنا عشر ألفاً من الفرسان واثنا عشر ألفاً من المشاة قد هجموا على كليبر وأحاطوا به وبرجاله الثلاثة الآلاف الذين ثبتوا في ميدان القتال ثبات الاسود . ولما وقف بونابرت على حقيقة قوة الاعداء خف بفصيلة من الجنود لمناصرة كليبر، وفور وصوله الى ميدان الحرب قسم فصيلته الى مربعين ورتبها على هيئة يتألف منها ومن مربع كليبر شكل مثلث متساوي الأضلاع طوّق العدو . وكانت النار الخارجة من أضلاع المثلث تحصد المماليك حصداً وتمزقهم أيدي سبا مغشية وجه الصعيد باشلائهم . وقد بدد ستة آلاف فرنسوي شمل الجيش الذي كان سكان تلك الارجاء يعتبرونه جراراً يحكي عـدد نجوم السماء ورمل البحر .

وبعد حصار دام شهرين رأى بونابرت عـدد جيشه يقل شيئاً فشيئاً من جراء اشتـداد الطاعون عليه وفتكه به فتكا ذريعاً والمواقع المتوالية الناشبة بينه وبين حامية المدينة المتولي زعامتها قائد لا تلين شدته النوائب ولا تثلم حده الشدائد ، وحينئذ صمم على العودة الى مصر . فتقلص ظل المقاصـد الواسعة التي كانت تجول في فناء جنانه وتدور رحاها على قطب الشؤون الشرقية ، وتجعله يتنقل بالفكر من ضفاف السند الى شواطىء البوسفور . وقد قال فيا بعـد : « لو سقطت عكاء لغيرت وجه العالم ، فقد كان حظ الشرق محصوراً في هـذه المدينة الصغيرة . »

واليك النشرة التي أصدرها عن يافا مشعراً بعودته الى القطر المصري

« أيها الجنود ،

اجتزتم البادية الفاصلة بين أفريقية وأسيا بسرعة تفوق سرعة جيش العرب

« وقطعتم نظام الجيش الزاحف الى أرض مصر ، وأسرتم قائده وغنمتم ذخائره وأمتعته وقربه وجماله ، وفتحتم جميع المواقع المنيعة الحامية آبار الماء في البادية ، ومزقتم في جبل تابور شمل المقاتلين المتألبين من جميع أنحاء أسيا طمعاً بشن الغارة على مصر ونهبها وان السفن الثلاثين التي أبصرتموها قادمة الى عكا من اثني عشر يوماً كانت تقل الجيش الموكول اليه أمر محاصرة الاسكندرية ، ولكن قضت عليه الاحوال بالمجيء الى عكا فكان فيها هلاكه . وسيزدان موكب دخولكم مصر ببعض راياته .

« وبعد ما حاربنا بجنود قليلي العدد ثلاثة أشهر في قلب القطر السوري ، وغنمنا أربعين مدفعاً وخمسين راية ، وأسرنا ستة آلاف رجل ، ودككنا حصون غزة ويافا وحيفا وعكا صحت عزيمتنا على العودة الى مصر . فان زمن الصعود من السفن اليها يدعوني ، لقد كنتم تعللون النفس بأنكم بعد أيام تقبضون على الباشا في قصره ، ولكن استيلاءكم الآن على قصر عكا لا يوازي ضياع بضعة أيام . فالابطال الذين تقضي عليّ الاحوال بفقدهم فيها أحتاج اليهم لقضاء أعمال أهم وأفضل »

وفي ٢٠ مايو صدر الأمر بالانسحاب . وكان بونابرت يريد ان يسير الجميع على الاقدام تاركين الجياد للجرحى والمرضى . ولما جاء الجندي المقيد بخدمته وقال له . أي جواد أبقيه لك ؟ انتهره قائلا « فليمش الجميع على الاقدام . . . . وأنا في مقدمتهم . أفما عرفت الامر ؟ أغرب من وجهي . »

وصلوا الى يافا في ٢٤ منه ، فكانت المستشفيات فيها تغص بالمرضى حيث كانت الحمى الوبيلة تحصدهم حصداً . فعادهم القائد الاكبر متفقداً أحوالهم ، وقد بلغ منه التأثر حين شاهد ماصاروا اليه وما كانوا يشعرون به من العذاب . فأصدر الامر باخلاء المستشفيات الا انه كان بين المرضى مطعونون يبلغ عددهم ستين . وكان الوباء قد اشتد على ثمانية منهم لم يكن يؤمل ان تمتد آجالهم أكثر من أربع وعشرين ساعة كما جاء في « مفكرة القديسة هيلانة » فحاروا في مايجب ان يفعلوه بأولئك التاعسين ، وشاور بونابرت أصحابه في الامر . فقالوا له ان كثيرين منهم يطلبون الموت بالحاح ، وان مخالطتهم للجيش تكون وخيمة التبعة عليه ،

وان الحكمة والمحبة تقضيان بتعجيل وفاتهم بضع ساعات والاجهاز عليهم . ويحقق بعضهم انهم جرعوهم شرابا عجل موتهم .

ولما دنا بونابرت من مدينة القاهرة أوعز الى نائبه فيها ان يهيء له جميع معدات الاحتفاء به واستقباله استقبال الظافر ليزيل أو يخفف ما خامر الاذهان من تأثير الاخفاق الذي أصابه في حملته على بلاد الشام . وكان يرمي بذلك الامر الى اقالة عثار قوى جنوده الرازحة تحت أوقار القنوط ، والتهويل على المصريين وقد كان يخشى انتقاضهم عليه وقضت عليه السياسة والمصلحة بأن يكتم حقيقة النكبة التي نالته ويجاهر بفوز وهمي باهر

وكان الديوان المصري يقابل عواطف بونابرت بالمثل ، فقرر اقامة حفلات لتلك الغاية وأذاع نشرة جاء فيها ما يأتي : —

« وصل الى القاهرة الجنرال بونابرت المحروس بالعناية الالهية وقائد الجيش الفرنسوي وصديق الدين الاسلامي . . . دخل القاهرة من باب النصر . فهذا يوم أغر محجل لامثيل له . كان في غزة ويافا . فحمى سكان غزة ، الا أنه لما رأى ان سكان يافا قد ضلوا عن الصراط المستقيم وأبوا التسليم حمي غضبه عليهم وأسلمهم جميعهم الى النهب والقتل ، فدك جميع أسوارها وبطش بجميع الذين كانوا فيها »

وعني بونابرت في أثناء اقامته في القاهرة بتنظيم الاحصاءات المختلفة عن القطر المصري فنشرت في مذكرات كاتبه الملاحظات التي نظمها

وانتهى الى بونابرت أن مراد بك توغل في مصر السفلى فهجر الراحة والاعمال السلمية ، وبرح القاهرة في ١٤ يوليو ميمما الاهرام . وفي مساء الغد جاءته رسالة من مرمون قائد جنود الفرنسويين في الاسكندرية مفادها أن الترك صعدوا الى أبي قير في ١١ منه تحت كنف البريطانيين فخف القائد الاكبر في الحال الى محاربة جيش الترك الرافع فوق رأسه لواء مصطفى باشا . وكان يميل كل الميل الى اصلاح نكبة أبي قير في أبي قير عينه . فظفر ظفراً مبيناً في هذا المكان ودفع الى البحر عشرة آلاف رجل وبات الباقون قتلى أو أسرى . واليكم ما كتبه بونابرت الى الديركتوار في هذا الصدد

« كتبت اليكم في رسالتي المؤرخة في ٢١ فلوريال أن الفصل الملائم لركوب



يواكيم مورات ملك نابولى وزوج كارولين بونابرت شقيقة نابوليون الاول

ولد فى البستيد مورات ١٧٦٧ وقتل رمياً بالرصاص فى نابولى ١٨١٥



البحر يحملني على ترك بلاد الشام

« وفي ٢٣ مسيدور انتهت الى مياه الاسكندرية مئة سفينة بينها عدد كبير من السفن الحربية ورست في مياه أبي قير . وفي ٢٧ منه صعد العدو الى البر وأخذ حصن أبي قير عنوة وبجرأة غريبة . فسلمت حاميته وأخرج العدومدافعه الى البر وعضدته خمسون سفينة على احتلال كثبان عالية من الرمل ، وكانت ميمنته الى البحر وميسرته الى بحيرة المهدية

« وفي ٢٧ منه انطلقت من معسكري عند الاهرام ، فوصلت في أول ترميدور الى الرحمانية ، واخترت البركة مركزاً لأعمالي ، وفي الساعة السابعة صباحاً من اليوم السابع من ترميدور التقيت العدو

« فمشى الجنرال لان على طول البحيرة ، واصطف للقتال بازاء ميسرة العدو حين كان الجنرال مورات قائد الطلائع يوعز الى الجنرال دستانس بمهاجمة الميمنة ، وكان الجنرال لانوس يعضده

« وكان سهل جميل مساحته أربع مئة تواز « التواز يوازي ستة أقدام » يفصل بين جناحي الجيش ، فدخله فرساننا وبلغوا بأسرع من انتقال الفكر الى ماوراء ميسرة العدو وميمنته ، فاعملوا فيه السيف ودحروه وقذفوه الى البحر فلم ينج منه أحد . ولو كنا نقاتل جيشاً أوربيا لكنا أسرنا منه ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكننا سقناهنا الردى الى ثلاثة آلاف محارب

« وكان الصف الثاني من صفوف الاعداء على بعدخمسة آلاف أو ستة آلاف تواز عنا ، وقد احتل موقعاً حصيناً . وكان ثمت برزخ ضيق جدا ، فتحصن فيه العدو بكل تحفظ ، وكان عنده ثلاثون زورقاً مدفعياً . وخيم العدو قراب هذا الموقع في قرية أبي قير وبنى فيها الاستحكامات والحواجز . فأخذ الجنرال مورات القرية عنوة وهجم الجنرال لان بالفصيلة الثانية والعشرين وشطر من الفصيلة الستين على ميسرة العدو ، وأغار الجنرال فوجيار بجنوده على ميمنته ، وكان الهجوم والدفاع بالغين منتهى العنف على السواء ، الا أن فرسان الجنرال مورات الصناديد عقدوا عرى العزائم على نيل المجد الرفيع في هذا اليوم ، فهجموا على ميسرة العدو وأغاروا على ميمنته من الوراء وحصروه في مأزق يصعب الخروج منه ، وقتلوا منه مقتلة عظيمة . وكان أول من دخل الحصن

الوطني برنار قائد الفصيلة التاسعة والستين والوطني بايل قائد رماة القنابل في نصف هذه الفرقة ، فكان ذلك مدعاة الى توشحهما حلل الفخر

« وكان الصف الثاني من صفوف الاعداء كما كان الصف الاول من صفوفهم يغطى بجثثه وجه ساحة القتال أو يغوص في النيل

« وبقي للعدو ثلاثة آلاف رجل وضعها في قلعة أبي قير على بعد أربع مئة تواز خلف الصف الثاني ، فحاصرهم الجنرال لانوس ، فأطلقت عليه القنابل من ستة مدافع . على ان الشاطىء الذي جر فيه التيار في السنة الماضية جثث البريطانيين والفرنسويين صارت اليوم تغشيه جثث أعدائنا المعدودة بالالوف ، ولم ينج أحد منهم . ونشب في حبائل الاسر مصطفى باشا الروملي قائد الجيش الاكبر وابن عم السفير العثماني في باريس كلالة ، وأسر معه جميع ضباطه . وهاءنذا مرسل اليكم أذنابه الثلاثة . . .

« وعندي ان نيل النصر في هذه المعركة مرجعه الى الجنرال مورات ، فاطلب منكم ان ترقوه الى رتبة أمير لواء لأن فرسانه أتوا بالمعجزات . . .

« وقدمت للجنرال برتيه من قبل حكومة الديركتوار الاجرائية خنجراً بديع الصنع ، فكان اهداؤها اياه دليلا على رضاها عن خدم مافتيء يقدمها في خلال الحرب كلها . . . »

واغتنم بونابرت الفرصة من انتصاره لينفذ سفيراً مفوضاً الى الاميرال البريطاني ، فهذا بعث اليه بصحيفة فرنكفورت الفرنسوية الصادرة في ١٠ يونيو سنة ١٧٩٩ وكان القائد الفرنسوي يتذمر من مدة طويلة لانقطاع أنباء أوربا عنه. فتصفح الجريدة بلهفة شديدة فعثر فيها على الحال السيئة التي صارت اليها شؤون فرنسا وانكسارات جيوشها المتوالية فصاح قائلا « لقد صدق وايم الحق حدسي ان ايطاليا فقدت من أيدينا وضاعت ثمار انتصاراتنا ، وعليه لا أرى مندوحة عن الرحيل »

وصحّ عزمه من هذه الدقيقة على الانطلاق ، فأسرّ هذا الامر الى الجنرال برتيه والاميرال غنتوم . وأوعز الى هذا الاخير بأن يهيىء له السفينتين الحربيتين موپرون وكارير والمركبين الصغيرين الريفانش والفرتون لنقله مع حاشيته الى فرنسا

وكان بونابرت يبتغي ان يلقي بمقاليد زعامة الجيش العليا الى أشد القادة

جرأة وأعظمهم كفاءة، فتردد بين ديزه وكليبر. وقد جعلته رغبته في استصحاب الأول معه يقرر تعيين الثاني خلفاً له في قيادة الجيش غير مبال بما كان بينه وبين كليبر من النفور. فكتب اليه ليوقفه على ماعزم عليه، ويفوض اليه السلطة العليا، وكان من جملة ما أوصاه به ما يأتي

« ان المسيحيين يقلون أصدقاءنا فيجب ردعهم عن التمادي في العيث فساداً لئلا ينظر المسلمون الينا بمقلة التعصب عينها التي ينظرون بها الى المسيحيين، فنصبح غير مستطيعين استمالتهم الينا. »

ويعرض لنا هنا هذا السؤال وهو: هل كان الديركتوار يرغب في رجوع بونابرت بعد ما كان قد نظر بعين الجذل الخفي الى انطلاقه من بلاده من دون أن يخفى ذلك الامر عليه؟ ويزعم بعضهم أنه انتهى الى بونابرت رسالة وقعها ريلهار ولاريفيليار ليبو وباراس جعلته يصمم على مغادرة القطر المصري. ويصعب الجزم مع ما يحيط بهذا الامر من الروايات المتناقضة، كيف صمم بونابرت على الرحيل وعندنا انه لما حبطت مساعيه في بلاد الشام وانتهت اليه الانباء عن حالة الشؤون والافكار في فرنسا، خيل اليه أن الساعة دنت لحسر اللثام عن حقيقة أفكاره ومطامعه وتحويلها من الشرق الى الغرب. وكان من جملة ما قاله في نشرة أصدرها عن الاسكندرية ما يأتي:

« ان أخبار أوربا جعلتني أقرر العودة الى فرنسا، فأنا ألقي الى الجنرال كليبر بمقاليد قيادة الجيش وعن قريب ستصل الى هذا الجيش الانباء عني. وانه ليعز علي وايم الحق فراق جنود تعلقت بهم كل التعلق، إلا أن هذا الفراق سيكون وقتياً. وقد أصاب القائد الذي استخلفته عليكم ثقة الحكومة وثقتي»

وفي أواخر شهر أوغسطس أقلع بونابرت يصحبه برتيه ومرمون ومورات ولان واندريوسي ومنج وبرتوله وغيرهم، فتمكن من تجنب الاسطول البريطاني الذي كان قد ابتعد عن الشواطىء الافريقية يريد ثغراً من ثغور قبرس لجلب الذخائر والمؤن، وفي ٦ اكتوبر بلغ مرفأ فريجوس بعد ما نجا من الاميرال سدني سميث البريطاني الجاد في أثره.



الفصل التاسع

العودة الى فرنسا — ١٨ بروميز

وكان عبور البحر من الاسكندرية الى فريجوس محفوفاً بالمصاعب والمخاطر فقد قضي على الاسيطيل عند خروجه من المياه المصرية أن يكافح الريح الشديدة المعاكسة فاقترح الاميرال الانثناء على الاعقاب الى المرفأ وكان جميع الركاب يرون رأيه . ولو لم يصر بونابرت على اقتحام غمرات المنون والتغرير بنفسه لادراك الغاية التي كان يرمي اليها لكان رأي الاميرال قد تغلب على مشيئته . ولما فصل عن اجاكسيو قامت في وجهه مصاعب يعز على سواه تذليلها . بيد أنه تمكن من الظهور عليها بما كان مفطوراً عليه من العناد والتصلب في الرأي . ويرجح ان شدة صريمته والخطة الغريبة التي رسمها للاميرال غنتوم وسيره على محاذاة الشواطىء الافريقية للبلوغ الى جزيرة سردينيا جعلته ينجو من السفن البريطانية التي كانت تتعقبه باحثة عنه . وكان يخاف أن يفسد عليه تدبيره كما كان يشعر بالقلق والاضطراب كلما لاح له في الافق شراع سفينة . وبلغه وهو في اجاكسيو ما كان من النتيجة الوخيمة التي تلت معركة نوفي فقال . « لو لم يكن من المقضي عليّ ان أقضي مدة الحجر الصحي الملعون لكنت أتولى زعامة جيش ايطاليا حالما أطأ الأرض بأخمصي فلا تزال لدي وسائل عديدة ، وأنا موقن انه لا يضن على قائد من القواد بقيادة جيشه ، فتصل حالا الى باريس أنباء النصر الذي أصيبه كما وصلت اليها أنباء النصر في أبي قير . فياحبذا هذا الامر . »

وكان بونابرت شاعراً بالحاجة الى اتيان مأثرة خطيرة تمحو التأثير السيء المسبب عن مغادرته للقطر المصري بشكل لجأ في أطلق الالسنة من عقالها لانتقاده . ولما وقف على حقيقة النكبات التي أصابت الجيوش الفرنسوية في ماوراء الجبال ساوره القنوط من نيل الانتصارات السريعة التي كان يحلم بها ودهمه غم شديد جعل الناس يقولون عنه انه لبس ثوب الحداد على ايطاليا . وفضلاً عن ذلك جعله احتفاء الاهلين به في فريجوس ينسى ملالة الحجر الصحي فوقت ما بلغهم خبر دخول الجنرال بونابرت مرفأهم غطوا وجه البحر بالمراكب وأحاطوا بالسفينة

التي تقل ذلك الرجل العظيم قائلين « ان الطاعون لأفضل لنا من النمسويين »
وحينئذ لم تكن التدابير الصحية مستطاعة فانتهز بونابرت الفرصة من هذا الامر
وعجل في الشخوص الى باريس

وكان قد أشعر بقدومه أخوته وزوجته نخفوا الى لقائه بطريق برغونيه
المقضي عليه المرور بها بموجب الخطة التي بعث بها اليهم. ولكنه لما وصل الى
ليون غير رأيه وأخذ طريق البربونه . ولما لم يجده اخوته وجوزفين في ليون
انقلبوا مسرعين الى باريس . واستقبل معظم القوم هذا الجندي الباسل استقبال
المخلص غير مكترثين للاراجيف المنتشرة عن رجوعه الفجائي ومغادرته جيشه
في ما وراء البحار تحت سماء محرقة وفي أرض وبيلة الهواء

ولا يخفى ان الديموقراطية بعد ما أوجدت لفرنسا الذرائع العديدة المستطاع
التذرع بها لمناوأة الاجنبي أفضى بها الأمر في الداخل الى ابداء التبرم العام من
جراء تقلبات الدهر ومعاكسات الاقدار واحجام بعض دعاتها عن مواظبة
الاعتصام بمبادئها ومذاهبها . وان الثورة التي كان لها أنصار أشداء ذوو همة
عالية في المجلس الدستوري وبين رجال القضاء ولجنة الأمن العام لم تكن تتوقع
شيئاً من أركان المجالس وأصحاب الكلمة المسموعة في ذلك العهد ، فانهم خفضوا
من مقام السلطة من دون ان يجعلوا الحرية تجني نفعاً من هذا العمل ، واستبدلوا
بالسلطة الشعبية المطلقة سلطة استبدادية كانت الاحزاب تتناوبها واذا أضيف
الى هذا ان الجمهورية في الحالة التي صارت اليها ، وبين أيدي الذين وقع اليهم أمر
ادارة شؤونها ، وعلى الشكل الذي اتخذته لم يتسن لها ابقاء النصر موالياً لاعلامها
بل اصابتها انكسارات عديدة متوالية أفقدتها ثمار الحروب الاولى الخالدة
الذكر ، علم لاول وهلة السبب الذي من أجله كانت الأفكار متهيئة لاجراء تغيير
سياسي خطير . ولكن أي نوع من التغيير ينوون اجراءه ؟ ومن الرجل الذي
يحسن ان يجري على يده هذا التغيير أو من الرجال الذين يتم على أيديهم ؟
وكان القوم يتناقلون هذه الأسئلة ويكثرون من جرائها من الرجم بالغيب ،

ويسرفون في القيل والقال ، ويعللون النفوس بالاماني والآمال ، أو يخشون من التبعة الوخيمة التي ينتهون اليها

ان الحادث الخطير المنتظر وقوعه لم يكن مؤاتياً للجمهورية ، فقد كانت موصومة بوصمة ذكرى سيئة ينفر الناس منها، وكانت سبباً للاضطراب والفوضى وقد كان الناس يتوقعون بنافد الصبر وضع حد لها . ولم يكن أيضا ذلك الحادث مؤاتياً للملكية ، فقد كان القوم ميالين الى رؤية نتائج الثورة مع تبرمهم من الشكل الذي اتخذته الحكومة الجمهورية ، وكان الجيش برمته ، كما تبين من حادث فركتيدور ، يهب لمواقعة كل من تحدثه النفس باعادة السلالة البوربونية الى عرش فرانسا

ويستنتج مما بسطناه ان الرأي العام في الامة الفرنسوية كان يرمي الى حصر السلطة في يد قوية تعمل لمصلحة الثورة وليس لما كسبتها فكانت الضرورة في مثل هذه الحال أي نفور الشعب والجيش من حركة ارتجاعية تعيد سلالة البوربون الى الحكم ، والخوف من عودة الحكم الشعبي تقتضي وجود شخص يدير بيده سكان الاحكام ويستطيع الذود عن حياض الاصلاح الاجتماعي الموضوع في سنة ١٧٨٩ وصيانته من الغوائل الوبيلة التي يعرضه اليها ارتخاء نوابض السلطة ويحول دون ميل الافكار الى خدمة الحزب الملكي لاعتصام هذه الافكار باهداب القوة ووحدة السلطة الادارية ، على ان نهوض هذا الرجل باعباء مهمته السامية لا يجعله يزعزع وقتياً أركان الديموقراطية الا لخدمة الثورة عينها ، وانما يجعل في قبضة الفرد السلطة الاجمالية وقد زاولتها المجالس الوطنية باسم الشعب. وكانت الحال تقتضي أن يكون هذا المرء من أشد الناس تعلقاً بالثورة وأعظمهم اخلاصاً للمصالح الحديثة ، وان يكون ذا عقل أرضع لبان روح العصر ، وأنشأ له مجداً أثيلاً في خدمة فرنسا الجديدة ، وصار قادراً على الاستعانة بشهرته وذهائه للظفر بالامانة والتعلق اللذين يضرم حب الوطن نارها في بعض الافئدة دفاعاً عن ذمار دستور السنة الثالثة . وكان يجب أيضاً ان تكون ذراع هذا الشخص ضامناً قوياً حافظاً من شرور الاجنبي ، والا يكون اسمه من جملة أسماء رجال الحكومة ذوي القلوب الجلمودية الذين خلصوا البلاد مخلفين ذكراً سيئاً . وهذه المهمة لا يضطلع بها سوى جندي من جنود الثورة يستطيع وحده نسخ الاوهام

الشعبية وهدم صرح الطريقة الجمهورية من دون ان يمس جوهر المنشآت الثورية العزيزة لدى فرنسا . وكان هـذا الجندي يشعر من زمان طويل بهذه المهمة الخطيرة ، ورقبت مطامعه الفرصة الملائمة للاستقلال بها ، فكان صوت داخلي يناجيه من حداثته بأنه مزدان بجميع الصفات الضرورية وجامع لجميع الشروط اللازمة لما يسند اليه

وان ما كان بونابرت يراه ويرغب فيه كان منطبقاً على أماني الامة وحاجاتها، فكان حضوره مقدمة للحادثة التي غيرت مجرى الثورة الفرنسوية ، ولم يكد نبأ رجوعه ينتشر حتى التفت حوله الاحزاب جميعها مستندة الى شهرته ودهائه، وكل منها يبتغي التعويل عليه ليظفر بآمال كان يعلل النفس بنيلها

وكانت الاكثرية في الدير كتوار المؤلفة من باراس وغوهيه ومولان وأنصارهم تتوخى المحافظة على دستور السنة الثالثة . فكان باراس يروم ذلك لاعتقاده أن بقاء الحال على ماهي عليه يخلد بقاءه قابضاً بيده على زمام السلطة ، وكان غوهيه ومولان يعتقدان ان بقاء هذه الحال يحفظ حكومة الجمهورية على شكلها الحاضر . وأما سياس فانه كان يرى غير ذلك . فقد كان يميل سراً الى الملكية وينفر من الحكومة الشعبية ، ويتحين الفرصة السانحة للمجاهرة بمبادىء كان يحاذر افشاءها . فاتهم بأنه تعمد خيانة الجمهورية لخدمة أمير من آل برنسويك كما اتهم باراس بأنه فتح أبواب المفاوضات مع السلالة البوربونية حين كاد القنوط يبلغ منه وكادت صروف الزمان تفل حده وتقلم أظفاره . وهـذا هو السبب الذي من أجله كان سياس ميالا الى الشخص الذي يتجرأ على مناوأة الديموقراطية وأشياعها . وكان روجه دوكوس زميله يسلك مسلكه ويحذو حذوه . فجهل بونابرت في بدء الأمر حقيقة هذا الرجل حتى أنه في خلال مأدبة أدبها غوهيه في غد اليوم الذي مثل فيه لدى الدير كتوار لأول مرة بعد عودته خاطبه بلهجة احتقار

وقال سياس بغضب على أثر هذه الوليمة : « انظروا كيف يعامل هذا البذيء الحقير عضواً من أعضاء حكومة كان من حقها أن تنصبه هـدفاً للرصاص » الا أن ذلك التباعد المتبادل الذي كان يشعر به كل من الفيلسوف والجندي ماعتم أن زال وخلفه ميل مشترك لتغيير شكل النظام السياسي في فرنسا . فقال

بعضهم لبونابرت مرة . « اتخذ لك نصيراً بين الاشخاص الذين يعتبرون أصدقاء الجمهورية يعقوبيين (ثوريين متطرفين) واعلم ان سياس زعيم لهؤلاء الاشخاص» وشعر الجنرال بأن نفوره يضعف شيئاً بعد شيء ، ويزعم بعضهم أنه عالج كتمان هذا النفور رغبة في استمالة ذلك الرجل الذي لم يحسن استقباله في بدء الأمر ولم يكن يميل اليه . وكان يتوخى من وراء هـذه المعاملة الاستعانة به لاجراء مقاصده العالية .

وأراد الديركتوار أن يبعد عنه بونابرت خوفاً منه وتخلصاً من شره فاقترح عليه أن يسند اليه قيادة الفيلق الذي يريده ، الا أن هـذا المنصب الذي كان غير بونابرت يسر بنيله لم يكن من شأنه جذب هذا الرجل اليه ، فقد كان يشعر بأن منصباً أسمى وأفضل كان أمامه ، وقال . « لم أشأ نبذ المنصب الذي قدموه لي بل طلبت منهم أن يمهلوني ريثما تثوب الي العافية . وعمدت الى الاعتزال عن معاشر البشر لئلا يسندوا الي منصباً آخر يثبطني عن اجراء مقاصدي الكبيرة ، ولم أكن أشهد مجالسهم . وقد آثرت حزب سياس على حزب باراس »

الا أن التدابير التي أفضت الى ١٨ برومير تمت على يد لوسيان بونابرت وايدي سياس وتاليران وفوشه وريال ورينيو دي سان جان دنجلي وغيرهم . وكان فوشه من الأولى عيل صبرهم لتقويض دعائم طريقة الحكم الجمهوري بعد ما كان من المغالين في خدمة مبادئها ، فقال لكاتب بونابرت . « فليسرع الجنرال والا هلك ولامحالة »

وتردد كمباساريس ولبرون في الجزم بهذه القضية ، فان المؤامرة لم تكن مؤاتية لتحفظ الواحد ولا لاعتدال الآخر . ولما علم بونابرت بترددهما صاح كأنه القابض بيده على أزمة الاحكام في فرنسا . « أني لمنكر هـذه المواربة فلا يتوهما أني محتاج اليهما ، فليجزما في الامر اليوم والا فاتت الفرصة غداً . فأنا آنس من نفسي المقدرة على الاستقلال في العمل »

وكان جميع القواد المشهورين في باريس يذهبون مذهب بونابرت حتى أن مورو نفسه جاهر بأنه يرفع لواءه فوق رأسه ، وسنرى عن قريب المهمة التي رضي بأن ينهض باعبائها في اليوم الذي كان فيه كل شيء مهيئاً له . وكان يعوز هذا المتآمر العظيم مناصرة زميل من زملائه يخشى معارضته ودهاءه وطباعه .



المرشال ناى دوق الشنجن وامير الموسكوفا

ولد فى سارلويس ١٧٦٩ وقتل رمياً بالرصاص فى باريس ١٨١٥



فقد كان برنادوت مصراً على وجوب الدفاع عن كيان الجمهورية وحرمة دستور السنة الثالثة . الا أن نسيبه يوسف بونابرت جاء به الى اخيه صباح اليوم الثامن عشر من شهر برومير (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) فكان عنده جميع القواد الكبار وهم لابسون بزاتهم الرسمية . وكان برنادوت لابسا ثوباً بسيطاً ، فاستاء بونابرت منه وأبدى له تعجبه وخلا به في غرفته ، وباح لديه بما كان قد عقد عليه عروة العزم قائلا له . « ان حكومة الديركتوار ممقوتة ، والدستور بال ، فيجب والحالة هذه تطهير الحكومة من أعضائها وانشاء هيئة جديدة لها . فاذهب واتشح ببزتك ، وأنا لا أستطيع أن انتظرك وقتاً طويلا . فستجدني في التويلري بين جميع رفاقنا . واياك أن تتكل على مورو أو برنوفيل أوغيرهما من القواد . وحين تتعمق في اختبار الناس تعلم أنهم يكثرون من المواعيد وينجزون القليل منها . فلاتركن اليهم» فقال له برنادوت انه يأنف من الاشتراك معهم في المؤامرة ، فطلب منه بونابرت أن يلازم خطة الحياد التام ، فأجابه برنادوت جواباً لم ينقع له غلة قائلا . سأظل ساكناً كوطني ، ولكن إذا أمرني الديركتوار بالعمل فلا ألقى بدا من مواقمة جميع المشاغبين . فلما سمع بونابرت هذا الكلام لم يفر فائره بل كظم غيظه مخافة أن يتدخل في القضية عدو داهية شجاع يفسد عليه أمره ويحبط سعيه

وبينا جميع هذه الامور تجري في منزل صغير بشارع النصرحيث يقيم بطل اركول والاهرام أرسل اليه مجلس الشيوخ القرار الآتي نصه بطي رسالة

أولا — ان الحكومة الاشتراعية انتقلت الى سان كلود

ثانياً — تنتقل المجالس اليها في صباح الغد في ١٩ برومير عند الظهر

ثالثاً — فوض الى الجنرال بونابرت وضع هذا القرار موضع الاجراء ، وهو مقضي عليه بأن يتخذ جميع التدابير اللازمة لصيانة ممثلي الامة . وبناء عليه يجب أن يخضع رأساً لامره قائد الفرقة السابعة عشرة العسكرية ، وخفراء الحكومة الاشتراعية ، والحرس الوطني ، والجنود المرابطة في باريس وضواحيها والانحاء الممتدة اليها سلطة الفرقة السابعة عشرة العسكرية الآنفة الذكر .

رابعاً — ان الجنرال بونابرت مدعو الى المجلس ليستلم هذا القرار ويقسم اليمين ويفاوض المندوبين المفوضين في المجلسين . »

وكان بونابرت ينتظر مثل هذا القرار الجاري الاتفاق على وضعه بينه وبين أنصاره في المجلس . وبعد تلاوته على مسمع من الجنود قال لهم :

« أيها الجنود ،

« ان القرار الصادر فوق العادة من مجلس الشيوخ منطبق على المادتين ١٠٢ و١٠٣ من الدستور ، وهو يخولني الزعامة في المدينة والجيش . قبلت ذلك رغبة في تيسير التدابير التي ينوى اتخاذها والتي تلائم كل الملاءمة مصلحة الشعب

« وقد جنح عن الطريقة المثلى القائمون بادارة حكومة الجمهورية في السنتين الاخيرتين ، وقد أملتم أن يضع رجوعي حداً للمساوىء العديدة الطارئة فبالغتم في الاحتفاء بي مما يدل على توثق عرى الاتحاد القاضي عليّ باجراء أعمال لا ألقى منتدحاً عن اجرائها . وأنتم اضطلعوا بما يسند اليكم فتقوموا بنصر قائدكم بما شاهدته فيكم دائماً من الهمة والثبات والثقة .

« ان الجمهورية الفرنسوية تستعين بالحرية والنصر والسلم لاستعادة المنزلة التي كانت لها في أوربا بعد ما أفقدتها إياها البلاهة والخيانة . »

ولما نشر قرار الشيوخ دقت الطبول في جميع أنحاء باريس مؤذنة بحشد العساكر ، فأذاع بونابرت النشرة الآتية :

«أيها الوطنيون ،

« ان مجلس الشيوخ المعتبر مستودعاً لحكمة الامة أصدر القرار المبينة صورته بطيه ، وذلك بناء على السلطة المستمدة من المادتين ١٠٢ و ١٠٣ من الدستور .

« وأراني مضطراً الى اتخاذ جميع التدابير لصيانة كرامة ممثلي الامة ، فالانتقال من حال الى أخرى ضروري ومعجل ، وفي وسع الحكومة الاشتراعية أن تدفع عن هؤلاء الممثلين الخطر الوبيل الذي يقودنا اليه تفكك اجزاء جميع الاقسام الادارية .

« وهو في الحال الجوهرية الحاضرة محتاج الى الاتحاد وثقة الوطنيين به ، فالتفوا حوله مناصرين ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة الممكن التوسل بها لتوطيد الجمهورية على قواعد الحرية المدنية والسعادة الداخلية والنصر والسلم . »

وبينما بونابرت يق[illegible] بالفعل وبصورة شرعية على القيادة العليا في

العاصمة لم يكن الديركتوار يجري شيئاً أو انه في الحقيقة لم يكن يستطيع اجراء شيء لاحباط المساعي التي كانوا يدبرونها حوله ، والمحافظة على سلطته والدستور في وقت واحـد . وأقام غوهيه في منزله باللكسمبور على حبل انتظار زعيم المتآمرين الذي جاء من تلقاء نفسه لتناول الطعام عنـده . ولم يكن يتجرأ أن يتهم ضيفه الكبير بأنه أراد بهذه الزيارة أن يحصر رئيس الجمهورية في ردهة الطعام فيبقيه جاهلا للتدابير الجارية لمناوأة حكومة الديركتوار .

وكان مولان يكسر الارعاظ على بونابرت منكراً تلك الاعمال وهو لا يجسر على المجاهرة بها ولا على معارضة تيارها . وعلم باراس أن الانقلاب الذي أخبروه عنه ووعدوه بأن يجعلوه يشاطرهم احراز فوائده سيتم بدونه ، وأنهم قادرون على الاستغناء عنه . فلم يكن من سبيل الا الاذعان الى ما قدر له من بقائه صفراً الى اليسار . وصمم سياس وروجه دوكوس على الاستقالة من منصبهما ، وانتظما في سلك المتآمرين فلم يبق لبونابرت وجه لأن يلقى معارضين له الا في المجلس .

فتوجه في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التاسع عشر من شهر برومير الى المجلس بعد ما أقام في جميع المواقع المهمة جنوداً تحت لواء القادة المخاصين واستصحب برتيه وليففر ومورات ولان الخ . وأبقى مورو بمثابة سجان لغوهيه ومولان عضوي الديركتوار الشديدي التصلب في رأيهما ، وأذيع بين القوم انهما استقالا من منصبهما ، على أن مثل هذه الفرية تغتفر في مثل هذا اليوم . وأما سياس وروجه دوكوس فانهما استقالا بالفعل فلم يجد الاول منهما منفذاً يخرج منه عند نزول النوازل والمام الملمات . فدبر طريقة اضطرته الى مغادرة منزله ، وأوقف تاليران باراس على الغاية التي تشف عنها زيارة بوريان له ، فاستقال باراس وانطلق لساعته الى غروبوى تاركا رسالة لزعيم مجلس الشيوخ يقول له فيها بعد ايراد تجرده وحبه الشديد للوطن والحرية : « انه يسر بأن يعود وطنيا بسيطاً ، ويغتبط بأن يلقي عن منكبيه أعباء الجمهورية خالية من كل وصمة وعزيزة الجانب كما تسلمها من دون أن يؤثر فيها ماثار عليها من عواصف الفتن والأحزاب »

ان المتآمرين وان توهموا ذواتهم متسلطين على مجلس الشيوخ ابدوا مقاومة

لبونابرت لم يكن يحلم بها ، وصار وجوده بين ظهرانيهم موضوعا للقيل والقال
ولما كان بونابرت متعوداً أن يخاطب جوعاً تطيعه طاعة عمياء ولا تنكرعليه أدنى
كلمة من كلامه ساءه جداً موقف بعض الجمهوريين المتطرفين المتذرعين بلقب
ممثلي الشعب ، ووقوفهم سداً في وجهه ، وكان ذلك الامر يحول دون بلوغ
أمنيته في ذلك اليوم العظيم . وحين تسنم منبر الخطابة لم يستطع التفوه الا
بعبارات متقطعة وكلمات قليلة المعنى جعلت الحضور يتذمرون منه . فكان تارة
يحمل على الحزب الديموقراطي حملة شعواء ، وتارة يصوغ عقود الثناء والاطراء
عليه مريداً بذلك تبرير نفسه وتبرئة ساحته بذكرى أعماله الماضية . وختم مقاله
بتذكيره اياهم بوجوب رعاية حرمة الحرية والمساواة ، فاغتنم لنغله الفرصة وذكره
بالدستور ، فحينئذ صاح بونابرت بملء فيه قائلا . « أتقول الدستور ، وأنتم
قد دنستموه في ١٨ فركتيدور و ٢٢ فلوريال و٣٠ براريال ، أتقول الدستور ،
وجميع الاحزاب تستنجد به ، وجميع الاحزاب قد خرقت حرمته . . . واليوم
تجري المؤامرة باسمه ، واذا قضت علي الحال بكشف المخبآت واعلان أسماء
الاشخاص بادرت الى هذا الامر وقلت ان باراس ومولان عضوي الديركتوار
هما اللذان اقترحا علي أن أرأس حزباً يعمل على قلب الحكومة المؤلفة من
أشخاص معروفين بحرية الفكر »

فأيقظت كلماته الاخيرة العواطف الكامنة في صدور الحضور حتى أن
بعضهم قام يطلب اجراء التحقيق بواسطة لجنة سرية ، الاان الاكثرية لم تذهب
مذهبه . ودعي بونابرت الى الايضاح والتصريح لدى الامة فاضطرب اضطرابا
لم يشعر بمثله قبل ذلك الحين ، ولم يجد له مخلصاً من ذلك المأزق الا بانسحابه
في وسط الضوضاء صائحاً بأعلى صوته « من يحبني فليتبعني »

وكانت العاصفة تعج بعنف في مجلس الخمسمئة لأن الاكثرية فيه كانت شديدة
الاعتصام بأهداب الاخلاص للجمهورية والدستور . وأيدت تلاوة رسالة
باراس ما كانت حوادث اليوم السابق تنذر بوقوعه وأطلقت الالسنة بلواذع الوعيد
وقوارص التهديد لكل من تحدثه النفس بتغيير شكل الحالة الحاضرة . واصاخ
ممثلو الامة لتحريض دلبرل فجددوا الاقسام على المحافظة على الجمهورية ومبادئها
واذا ببونابرت قد اطلع على المجلس تحيط به ثلة من الجند . ولما وقعت انظار

الجماعة على بونابرت ورفاقه امتلأوا غيظا وصاحوا جميعهم « فليسقط الحاكم المستبد ، فليسقط كرمول ، وليتبرأ القانون من بونابرت » ونهض بعض النواب عن مقاعدهم ومشوا لملاقاة الجنرال بونابرت ليعنفوه على تدنيسه هيكل الشرائع المقدس ، فانتهره بيغونه قائلا . « ماذا تفعل أيها الوقح ؟ اغرب عن هذا المكان» ولما شاهد بونابرت أن الاستياء من عمله كان عاماً لم يرقه ما أبصره من المقاومة غير المنتظرة التي لقيها في مجلس الشيوخ ، وعلم أن لا قبل له بمناوأة البرلمان ، فعاد ادراجه الى الجيش محفوراً بالجنود الذين واكبوه . فأفرخ روعه عند وصوله اليهم ، وثابت اليه الثقة بنفسه وهادنته جرأته لما وافاه شقيقه لوسيان بعد ما اضطر الى الاستقالة من زعامة المجلس حين أبى أن يتسقط زملاءه عن رأيهم في أمر ابعاد أخيه ، ولم يكتف لوسيان بأن يأتيه بمعاضدة السلطة التي هجرها مختاراً في وسط المجلس وظل مستنداً اليها في الخارج ، بل ظاهره بفصاحته وشجاعته وهمته

واستطى لوسيان صهوة الجواد وجعل يتنقل بين صفوف العساكر ويصيح بهم كأنه لا يزال ناظراً نصب عينيه مدى السفاحين مشهورة للفتك به .

« أيها الوطنيون ، أيها الجنود ،

« ان رئيس مجلس الخمس مئة يعلن لكم أن الاكثرية في هذا المجلس راعها الآن تهديد فريق من نواب الشعب استلوا المدى للايقاع بهم وأحاطوا بالمنبر قاذفين بالموت على زملائهم ، فأعلن لكم أن هؤلاء السفاحين الجريئين المأجورين ولامراء لبريطانيا ثاروا على مجلس الشيوخ وتجرأوا على القول بأن القانون يتبرأ من الجنرال الموكول اليه اجراء قرار المجلس الموما اليه . فهم يتوهمون أننا لا نزال في عصر الرعب الذي كانت السيادة فيه لهم ، حين كانت كلمة « يتبرأ منه القانون » تكفي لاطاحة أعز الرؤوس لدى الوطن عن مناكب أصحابها

« فأعلن لكم ان هذا الفريق القليل العدد من أولئك الناقمين يتبرأ القانون منهم من جراء ما أتوه من الاعتداء على حرية هذا المجلس . فباسم الشعب الذي أصبح منذ عدة سنوات ألعوبة بيد أبناء الرعب الاشقياء هؤلاء أفوض الى الجنود أمر انقاذ أكثرية نوابهم لعل هذه الاكثرية تنجو من المدى بقوة الحراب وتتمكن من التفاوض بشأن الحظ المقدر للجمهورية

« أيها القائد ، أيها الجنود ، أيها الوطنيون ، ينبغي لكم ألا تعتبروا مشترعين لفرنسا إلا الذين التفوا حولي . وأما المتخلفون عنا فليطردوا بالقوة لان هؤلاء اللصوص لا يعتبرون ممثلي الشعب بل ممثلي المدية . فليظل هذا اللقب مطلقاً عليهم وليصحبهم أنى ساروا ، ووقت ما يجرؤون على البروز للشعب فليشر الجميع اليهم بالبنان بأنهم استوجبوا لقب ممثلي المدية . . فلتحي الجمهورية ! »

وظل الجنود مترددين بعد سماعهم هذا الكلام، فحينئذ أزال لوسيان ذلك التردد من بينهم بهذه العبارة المشهورة « أقسم على اني أطعن صدر أخي اذا ما أنست منه ميلا الى مس كرامة حرية الفرنسويين »

وكان بعد ذلك ان هذا القسم الملفوظ بلهجة عنيفة تغلب على تردد الجنود ، ومع ذلك لم يكن بونابرت خالي البال حين أمر مورات بأن يزحف برجاله لتمزيق شمل ممثلي الامة . فانه لما أخفق سعيه من نيل أمانيه بمجرد حضوره وخطبه الرنانة انقاد الى أخيه وزعماء المتآمرين وصمم على حل المجلس بالقوة . فلم يك غير قليل من الحين حتى خلت ردهة المجلس من النواب

وأراد مدبرو حركة ١٨ بروميير بعد الفوز الذي ظفروا به ان يبرهنوا للملأ طراً عن شرعية عملهم باستعمالهم الشكل الدستوري الذي هدموا أركانه فبحثوا في كل جهة لادراك هذه الغاية عن أعضاء المجلس الذي حلوه بتلك الطريقة العنيفة ليؤلفوا منهم شكل مجلس وطني . فتمكن لوسيان ان يجمع في ناحية سان كلود ثلاثين نائباً آلوا على نفوسهم القيام باعباء السلطة السامية التي كان بونابرت صاحبها الحقيقي، وقرروا ماعدا عزل واحد وستين عضواً من زملائهم حل الديركتوار وتأليف مفوض قنصلي من ثلاثة أعضاء وهم سياس وروجه دوكوس وبونابرت. وقد تم هذا الانقلاب الخطير في الساعة التاسعة مساء وكان قد مضى على بونابرت احدى عشرة ساعة لم يذق في خلالها طعاما . ولما عاد الى منزله لم يهتم بحاجته الطبيعية مع انه كان قد مضى هزيع كبير من الليل بل صرف همامة النفس الى اتمام مقتضيات ذلك اليوم العظيم بتدبيره الخطاب الذي كان يراه ملائماً لاستمالة القوم اليه . وهذه خلاصة الخطاب .

« لما عدت الى باريس وجدت الشقاق ضارباً أطنابه في جميع دوائر الحكومة

وشاهدت الجميع متفقين على ان الدستور أوشك ان تعبث به يد البلى ، وانه لايستطيع ان يصون حرمة الحرية

« وجاءني جميع الاحزاب يبوحون لي بمقاصدهم ، وينمون لي بأسرارهم ويطلبون مناصرتي ، فأبيت التقيد بحزب من الاحزاب

« ودعاني مجلس الشيوخ فلبيت دعوته ، ودبر أولئك الرجال الذين تعتبرهم الامة نصراء الحرية والمساواة والتملك خطة اصلاحية عامة .

« وكانت الخطة تقضي تدقيقاً مقروناً بالسكينة والحرية خالياً من كل تأثير وارهاب . وبناء على ذلك صمم مجلس الشيوخ نقل المجلس الاشتراعي الى سان كلود ، وفوض اليّ اعداد القوة اللازمة لاستقلاله فرأيت ان من المقضي عليّ قبول الزعامة حباً بخدمة أبناء وطني والجنود الذين قضوا في جيوشنا والفخر الوطني الذي أصابوه باهراق دمهم »

ثم أفاض بونابرت في الكلام عما جرى في سان كلود وأيد بشهادته القوية اختلاق لوسيان عن شهر المدى والخناجر ، وختم مقاله بهذه الكلمات « أيها الفرنسيون ، لا تخفى عليكم ولا مراء غيرة جندي الحرية والوطني المخلص للجمهورية . فقد عادت الى محورها الافكار المحافظة والواقية والحرة بعد تمزق شمل المشاغبين الذين كانوا يضيقون خناق المجالس وينفرون القوم منهم ويجعلونهم يعتبرونهم من أهل الشقاوة »



الفصل العاشر

— انشاء الحكومة القنصلية —

وكان أصحاب مبادىء التعصب ، والجمهوريون الشديدو الاستمساك بغرز مذهبهم يعتقدون انه قضي على مصلحة الشعب وأن الديموقراطية هدمت أركان دستور السنة الثالثة ، ومن ثم لم يكونوا يألون جهداً عن إلباس انقلاب بروميير ثوب الاعتداء على حقوق الامة . إلا أن عامة القوم والسواد الاعظم من جميع الاحزاب والاكثرية الراجحة من طبقتي الشعب العاليـة والمتوسطة ومجموع طبقة العمال على التقريب ، وجميع الذين يعلقون أهمية على نجاح فرنسا المـادي وسلامها في الداخل وأمنها في الخارج أكثر مما يعلقون من الاهمية على المسائل الدستورية والقضايا النظرية كانوا ما خلا بعض نفر من الالى لا تلين الحوادث مجستهم يلقون لبونابرت عذراً يملصه من طائلة المسؤولية عن حادثة سان كلود ، ويعتبرون هـذه الحادثة ذريعة لا يستغنى عنها لاصلاح ما أفسدته أيدي العيارين والاقدار .

وقال نابوليون حين كان في جزيرة القديسة هيلانة « لقد اسهبوا وسيسهبون في البحث نظرياً عما اذا لم نكن قد خرقنا حرمة الشرائع وعما اذا لم نكن قد اقترفنا جناحاً ، ولـكن هي مسائل نظرية يصلح سبكها في الـكتب أو النطق بها من فوق المنابر ، وتقتضي الحال نبذها حـين تعرض حاجة ماسة ، على أن الشكوى منها تحـكي الشكوى من بحار يقطع صاري مركبه تفادياً من الغرق . ويدل واقع الحال على أن الوطن كان مقدراً له الهلاك بدوننا ونحن أنقذناه . وقد كان من الواجب على الـكتبة ومن لهم يد في ذلك الانقـلاب المشهور أن يحبسوا أقلامهم ويعقلوا ألسنتهم عن الخوض في مجال الانكار وتبرئة ساحتنا ، ويكتفوا بان يجاوبوا بأنفة المفترين بمثـل ما أجاب به ذلك الروماني . « نعلن على رؤوس الاشهاد أننا خلصنا بلادنا فهلم بنا نسدي الشكر للآلهة . »

« ولا يخفى أن جميع المشتركـين بتلك الحركة السياسية يحق لهم أن يقولوا ان الجميع أجمعت كلمتهم على أن الانقلاب في نظام الحـكومة كان ضربة لازب



المرشال برنادوت وقد تبناه ملك اسوج سنة ١٨١٠

وخلف الملك شارل الثالث عشر على عرش اسوج فى سنة ١٨١٣ واتخذ اسم شارل الرابع عشر .

ولد فى بـو ١٧٦٤ وتوفى فى ستوكهلم ١٨٤٤



وأن الجميع كانوا يلتمسونه ، وكان كل منهم يبتغي اجراءه من جهته . وقد أجريت مهمتي مستعيناً بالمعتدلين . وكان من نتيجة عملي انقضاء أجل الفوضى الفجائي وسرعة عودة النظام والاتحاد والقوة والجد . فهل كان اليعقوبيون أو ذوو الاخلاق الفاسدة أفضل منهم ؟ انه ليجوز لي أن أجاوب بالسلب على هذا السؤال ، وانه لطبيعي أن يستاؤوا ويرفعوا أصوات التذمر منه . وأما اصدار الحكم العادل على هذا الحادث العظيم فهو من اختصاص المستقبل البعيد والاشخاص الذين لا ناقة لهم ولا جمل فيه . »

على أن هذا المستقبل البعيد اقترب وقام الاشخاص الذين ليس لهم في الحادث ناقة ولا جمل ، فالاجيال الحاضرة وان يكن الروح الديموقراطي مستولياً عليها بعد ما نكب بونابرت ممثليه وهدم صرح مبادئه في سان كلود ، لا تشعر شعوراً شخصياً بالتأثير العنيف الذي شعر به الوطنيون المتطرفون على أثر تلك النكبة وهدم صرح المبادىء المذكورة . ولعمري ان الديموقراطيين الحاليين يجب عليهم أن ينبذوا عواطف القلى والحنق التي كانت تهب في صدور أجدادهم ويتساءلون بكل سكينة وترو وتجرد هل كان ذلك الانقلاب الذي شعر بغوائله الثوريون المتطرفون ، وأثار كوامن الحقد والسخط في أفئدة غلاة الثورة والديموقراطية وافر الفائدة جميل العائدة على مجرى الثورة ونجاح الديموقراطية

ولما جاء بونابرت والحسام في يده ليجعل فكره الشخصي وارادته الوحيدة يحلان محل الشرائع التي سنها الشعب والحكام الذين انتخبهم لم يكن في وسع الشرائع والحكام الدفاع عن حقوق الشعب من أعدائه في الداخل والخارج لان الفساد والضعف الطارئين على القابضين بأيديهم على زمام السلطة كانا يتصديان لمجرى الثورة ويحولان دون الانتهاء بها الى غاية النجاح . وكان يخشى أن يؤدي التفريق الى ايقاظ الفوضى واستفحال أمر الاحزاب في البلاد . على أن فتنة البريطانيين والنرمنديين والفنديين لم تكن لتني عن منازعة اليعقوبيين الفتوح السياسية العظيمة التي كانت اليعقوبية في ريق أمرها قد تمكنت من مباشرتها وتحقيقها والمحافظة عليها .

أجل ان الثورة استنزفت جميع موارد سيطرتها على الشعب فنفد شكل من أشكالها . وبعد ما نالت الانتصار بواسطة سيادة الشعب استهدفت للعطب

الوبيل بتحول آلة النصر عليها بعد ماكانت مسخرة لخدمتها ، ولم تكن تحسن ادارتها مدة طويلة من دون أن يصيبها منها الاذى والمضرة وكان موقفها الجديد يقتضي شكلاً جديداً ، أي أنه كان يجب أن تصلح سياسة الفرد ماأفسدته سياسة الجماعة . وقد كان وايم الحق مظهر من أجمل مظاهر قوة الثورة بتيسر تلك السهولة للعثور بحسب مقتضيات ذلك العهد على أشخاص ذوي همم عالية وأفكار سامية يستعان بهم على استئناف أعمال رجال الحرية بشكل يتوهمه الناس ضرباً من ضروب الارتجاع ويظنونه معارضة للمبادىء الجمهورية على أن هذا العمل لم يكن في واقع الحال سوى تتمة للمشروع الجمهوري الخطير وخدمة للمصلحة العامة . وبعد ما ارتعدت أوصال الملكية والارستوقراطية في أوربا أمام ذلك الشعب العظيم حين كان يتكلم بالسنة الملايين ويحرك ملايين الاذرع القوية تعودتا ألا تخافاه وبدأتا تأخذان بعض النفوذ عليه منذ الحين الذي عبثت به فيه أيدي الشقاء من جراء كثرة الزعماء وحلت عرى تلك الوحدة الموقرة التي أنشأها في أيام الخطر وهي أيام فخاره . وكانت الحال تقضي بأن يضطر ذلك الشعب العظيم أعداءه الالداء الى الشعور بالخوف منه والاحترام له بعد ما كانوا قد عالجوا التحرر من ربقته على اثر رفعه في عواصمهم علم الاصلاح الذي دافع عنه من اعتدائهم عليه . ولم يكن محتاجاً الى ادراك تلك الغاية الجميلة إلا لتغيير خطة العمل والظهور بمظهر عظيم . ولا يخفى ان وفرة عدد الزعماء عرضته للاختلافات والمشاحنات الداخلية حتى بلغ الوهن من السواد الاعظم منهم ونضبت موارد هممهم ونفدت أموالهم وتولاهم التبرم والسأم وفقدت القوة والوحدة بما كان ينشأ بينهم من التضاغن والتناظر فلم يبق له مندوحة عن اسناد شؤونه الى فرد ممتاز بالدهاء والاقدام يستطيع ان يعيد اليه تينك القوة والوحدة . وبناء على ماتقدم بيانه يمكن القول ان بونابرت لم يخلع الشعب عن عرش سلطته في سان كلود بل غير شكل الحكومة وجعلها واحدة بعد ما كانت متعددة . ولم تخف هذه الغاية على الشعب فاستقبل شكل الحكومة الجديدة بكل ارتياح . وكما كان المجلس الوطني الدستوري ولجنة الامن العام يعبران عن ارادة الامة في أثناء تداعي صرحها ومقاومتها كان الحاكم الجديد الذي اتخذ على التعاقب لقبي قنصل وأمبراطور يعبر عنها تعبيراً فصيحاً مجيداً في أبان ترميم ذلك الصرح وتوسيع

دائرته بقوة السلاح . وبعد الهفوات العديدة التي ارتكبها ذلك الرجل العظيم، وانحرافه عن جادة الحرية مرات كثيرة وبعد النكبات الوافرة التي دهمته والصغارة التي تجرع كؤوسها ظل الشعب ثابتاً على مبادئه، وهذه المبادىء دون سواها تؤيد العصمة ثباتها . وعلى متن هذا المحيط السياسي الذي يبتلع مده وجزره كل يوم شهرة دهاة الرجال ونوابغهم ظلت شهرة نابوليون وحده طافية على صفحه غير مكترثة للعواصف والانواء التي زادت هذه الشهرة ارتفاعاً كأنها تردد شهادة العواطف الشعبية التي لا يخفي عليها شيء من الاشياء .

فليست عجائب سيفه هي التي جلبت اليه محبة الشعب بعدما بهرت نواظره، وقد دلت شهرة اسمه المحفوظة في الاكواخ وفي القصور على السواء على انه لم يقف سداً في وجه المباديء الديموقراطية وتبسطها بل كان يستوجب أن يطلق عليه اسم أكبر ديموقراطي في أوربا . ويصيب الشعب في اعتباره إياه ثورياً زعزع أركان العروش القديمة ونسخ من الاذهان العبودية لاصحاب النجار القديم والثروة الواسعة بتحريره الاهليــة الشخصية من قيودها حتى أصبحت الميزة الوحيدة الضامنة لنيل المناصب، وصار منتخبوها يجلسون على العروش ويدوسون بأقدامهم تشامخ وعظمة أبناء الملكية القديمة العهد ويفتحون مجالا واسعاً للمساواة من أدنى درجة في سلم الهيئة الاجتماعية الى أعلاها .

فلا ينبغي والحالة هذه للمهتمين كل الاهتمام بحظ بلادهم ومستقبل الانسانية ان يعتصموا بالخصومات الشخصية التي فشت بين جمهوريي السنة الثامنة ويناقشوا بونابرت الحساب على دستور السنة الثالثة، على افتراض ان اختلاسه للسلطة، كما يريدون أن يزعموا، لم يكن سوى صورة يتقوى بموجبها الروح الثوري في فرنسا ويمتد الى جميع جهات أوربا . وكان ميرابو ذاته مختلساً لأنه لكي يصير في مكانة سامية ذلك المجلس بعد ما شعر من نفسه بمقدرة على التسلط عليه بقوة الـكلام دفع جمهور الشعب على احتقار الشروط المقترحة ونسخ الامتيازات القديمة وهدم الشرائع الجاري العمل بموجبها ليتيسر له حصر السلطة الدستورية بيده . ولم ينهض إلا المتطرفون من أنصار الملكية للتجاسر على القول بأن القسم الذي حلفه مندوبو الامة في ٢٠ يونيو سنة ١٧٨٩ كان عملا يدل على الـكفر والجريمة لمسه أنظمة الملكية الاساسية وحدوثه بطريقة اجبارية .

ومعلوم انه من خصائص الفقهاء وأشياع المذاهب والمنخدعين بشعورهم بالاهانة والوساوس ان يناجوا عقولهم منازعينها شرعية مهمتهم حين تتمخض هـذه العقول بأمور خطيرة

واذا لم يكن بونابرت قد عرس بالبركان الديموقراطي كما اتهمه بعضهم مرة بعد مرة وهنأه بنجاته من شره ، واذا كان قد خبأ في بدء الامر فوهته تحت الكرسي القنصلي وبعد ذلك تحت العرش الامبراطوري فلا بد من ان يبرره الروح الجمهوري لتضحيته بصور الديموقراطية على مذبح مصالحها الجوهرية وخلاصها وانتشارها. وهب لم يكن بونابرت فقد كان دمار الجمهورية مقرراً ، ولكن كان يؤمل ارجاؤه بضع سنوات ، وكان ينتظر بقاء الجمهورية خاضعة لشرائع لاتفي بالغاية المقصودة وسلطة مبتذلة ، مما يزيد في طين تلك الحالة بلة وفي طنبورها نغمة ويحقق التهم العديدة الموجهة اليها . وهذا كان من شأنه ان يزيد في تفاقم الملالة واستفحال أمر النفور فتحدث حركة ارتجاعية عنيفة لمعارضة الثورة من دون ان ينفسح المجال في وجه دعاتها لتدبير مجراها ارادة الوصول الى مصالح جديدة، فتعود السلالة البربونية في صدر القرن التاسع عشر بدلا من عودتها بعد خمس عشرة سنة . أجل ان عودة هـذه السلالة لم تتم على شكل ثابت لانها لم تقع على اثر اختلافات أهلية واضطرابات داخلية ورغبة وطنية تقيها من تلك النقيصة الناشئة عن مخالفتها للاجنبي والمسببة هلاكها منذ نشأتها . وكانت تستطيع في ذلك العهد أن تلقى أمامها شطراً عظيما من الاجيال التي نشأت في عهد الحكم السابق، وكان استياؤها من مساوىء الثورة داعيـاً الى ابقاء أفكارها ميالة الى العهد القديم ومن جهة أخرى كان أبناء الثورة الذين صاروا رجالا سنة ١٨١٥ وحمل انتظامهم في سلك الشؤون العامة سلالة البربون وأنصارها على اليأس ينظرون بأعينهم معاكسة الحرية في بدء أمرها . وقد وصلوا الى عهد كرهوا فيه الجمهورية ولا سيما لطول عهد نزعها . وبناء على ماتقدم بيانه يمكن القول ان بونابرت هدم الطريقة الجمهورية لاجل خدمة مبادئها وانه يمكن ان يقال ان ذلك كان رمية من غير رام . والعاقل يدري انه لم يقض على الجمهورية ولا على

الثورة ولكنه حال دون اثارة استياء القوم منهما وحنقهم عليهما ، وأصلح ما كان قد فسد من أمرها

ولم يكن احلاف الجمهورية في ذلك العصر يستطيعون ان يحكموا حكما صائباً على ذلك الانقلاب الذي غشيهم ، فأقلق استياؤهم الحكومة الجديدة حتى انها فكرت في ابعاد بعض زعمائهم ، الا ان الوطنيين الملحوظي المكانة الصادر عليهم قرار النفي أبدلت المراقبة بذلك الحكم عليهم .

ويكفي المرء ان يعلم حقيقة الاضطراب الذي كان سائداً في فرنسا في عهد حكومة الديركتوار وقت ما انتزع بونابرت منها السلطة حين يعلم انه لما أراد القنصل ان يسير رسولا الى شمبيونه قائد جيش ايطاليا لم يجد في خزانة الحكومة مايقوم بنفقة الرسول . ولما أراد الوقوف على حقيقة أحوال الجيوش اضطر الى ارسال مندوبين الى الجهات لعدم وجود جداول في دوائر وزارة الحرب . ولما قال بونابرت لموظفي الوزارة « كان يجب ان يكون لديكم بيان للمرتبات نتمكن من الاستعانة به لادراك غايتنا » أجابوه « نحن لاندفع هذه المرتبات »

ومن الجلسة الاولى التي عقدها المفوض القنصلي كان سياس يأمل ان ينال الاكرام من زميله الشاب مراعاة لسنه وحياته السياسية الماضية وكانت قد دبت له في صدره عقارب الحسد ، فألقى هذا السؤال « من منا يرأس الجلسة ؟ » القى هذا السؤال وهو ينتظر من زميليه التنازل له عن الرئاسة ، الا ان روجه دوكوس أجابه بشدة قائلا « أولا ترى ان الجنرال يرأسها ؟ »

ولم يكن سياس يعتقد ان شاباً خارجاً من صفوف الجند قضى زمانه في الدرس والاعمال الحربية يمكنه ان ينازع أمر تنظيم الحكومة الجديدة مشترعاً شابت ناصيته في العمل مما جعل الناس يقولون عنه كما كانوا يقولون عن توما باين ان في جيبه دستوراً في كل حين. فأعرب لزميله بكل جرأة عن نتيجة تأملاته اليومية ، ولما اقترح تنصيب منتخب سام يجعل اقامته في فرسايل ويخصص له ستة ملايين فرنك مرتباً سنوياً ، ويفوض اليه أمر انتخاب القنصلين بموافقة مجلس الشيوخ الذي يستطيع الغاء هذا الانتخاب والغاء منصب المنتخب السامي نفسه قهقه بونابرت ضاحكا من اقتراح زميله

وكان سياس مع عجرفته جباناً لا يثبت في موقفه لدى تصلب خصمه في الرأي فأراد ان يتمحل لنفسه عذراً عما فاه به ، فأجابه بونابرت « انك ترى سوء استعمال السلطة مبدأ والشبح شخصاً ، فكيف جال في وهمك يا مسيو سياس ان امرءاً فيه حبة من الشرف وذرة من العقل يرضى بأن يلعب دور خنزير يتمرغ في حمأة بعض الملايين ؟ »

ومن ذلك الحين كشف النقاب عن كل شيء بين الفيلسوف والجندي ففهم كل منهما انه لا يمكنه السير مع الآخر مدة طويلة . وكان قد أذيع دستور السنة الثامنة ، وجاء في مندرجاته انشاء شكل حكومة شعبية تنقسم الى عدة أقسام كمجلس الشيوخ ومجلس النواب والمجلس الاشتراعي . وأما الحكومة الحقيقية فقد كانت بيد القنصلية وبعبارة أخرى بيد القنصل الاول

ولما استتب لبونابرت الامر وقبض بيده على السلطة العليا تملص من سياس ، وهذا رضي بالانسحاب بعد ماخصصت له الامة مرتباً دالا على اعترافها بخدمته ثم تملص أيضاً من روجه دوكوس ، فهذا آثر الجلوس على كرسي مجلس الشيوخ على مشاطرة بونابرت حمل اعباء القنصلية . وحينئذ استبدل بونابرت بزميليه كمباساريس ولبرون

وكان أول عمل باشرته حكومة القنصلية اصلاح المختل فألغت قانون الرهائن والقروض الاجبارية ، وأحلت التساهل محل الاضطهاد ولما أفضت الحكومة الى أنصار الفلسفة أبيح للمؤمنين استدعاء خدمة دينهم وترميم مذابحهم ، وأذن بالعودة الى الوطن للمهاجرين والمنفيين السياسيين على اختلاف مذاهبهم وأزمنة ابعادهم . وكان من جملتهم كارنو ، فعاد من المنفى الى الندوة العلمية فالوزارة

وكان بونابرت في عهد حكومته الاولى وفي أثناء اقامته في اللكسمبور محافظا على البساطة في ذوقه وأطواره وعاداته من دون ان يكون قد فقد شيئاً منها في خلال مكثه الطويل بين الجنود . وكان معتدلا في طعامه وشرابه إلا انه كان يشعر بأنه سيصير فاحش الاكل ، وان هزاله سيزول ويخلفه السمن ، على ان الاستحمام بالماء الحار الذي كان يزاوله كثيراً كان من أقوى العوامل لانشاء التغير فيه . وكان ينام سبع ساعات في اليوم ، ويوصيهم بألا يوقظوه لغير ما سبب موجب ويقول « الخبر السار لا يقتضي الالحاح ، أما خبر الشؤم فلا

ينبغي تأخيره دقيقة واحدة . »

أجل ان بونابرت كان يعيش عيشة بسيطة في قصره القنصلي ، إلا انه كان يستقبل فيه كل يوم مشاهير الرجال ودهاتهم ، وكانت جوزفين تستقبلهم أيضاً بما اشتهر عنها من اللطف والرقة وحسن الذوق وهناك عادوا الى استعمال ألفاظ المجاملة التي كان غلاة الجمهوريين قد نبذوها من الحديث ، وصاروا يستعملون كلمة « مسيو » بدلا من كلمة « وطني » .

ولما كان القنصل الاول يقضي معظم وقته في الافتكار والتأمل لم يكن يتسنى له كثيراً أن يشاطر زائريه أحاديثهم المبنية على المعاني السامية والموضوعات العالية ، الا أنه كان في بعض الاحيان يختلس من وقته ساعات يلقى من نفسه فيها ميلا الى المحادثة فيبرهن بذلك عن أن الانسان يمكنه بمجرد ارادته أن يكون لطيف المعاشرة طلق المحيا ، ولكنه لم يكن يريد هذا الامر مرات عديدة . وقد كانت السيدات يتذمرن من عدم ارادته . وكانت ظواهر بونابرت تدل على الفظاظة والميل الى سرعة الغضب الا أنه كان يخبىء وراء هذه الظواهر نفساً رقيقة طبعت على عواطف المودة ولطف الشعور . وانه بمقدار ماكان متجهم الوجه عبوس الجبين فج الطبع خشن المراس صعب المقادة شديد التصلب في اثناء مزاولته للشؤون السياسية وفي خلال حياته العامة كان لين العطف خافض الجناح واسع الخلق حلو المعاشرة في معيشته البيتية و بين اودائه

ويمكننا أن نثبت ماذكرناه بهذا الصدد بايرادنا بعض عبارات من كتاب أرسله في السنة الثالثة الى أخيه يوسف وهو يقول له فيه : « مهما كان المركز الذي يسوقك اليه الحظ فأنت تدري ياصاح أنه ليس لك صديق أفضل مني يعزك ويتمنى لك الهناء . . . الحياة كطيف كرى يزول بسرعة ! فاذا ارتحلت وخيل اليك أن هذا الارتحال قصير الاجل فارسل الي صورتك . لقد عشنا معاً سنوات عديدة بالوفاق والوئام فاتحد قلبانا اتحاداً تاماً . وأنت تعلم أكثر من غيرك مقدار تعلق قلبي بك . وأشعر وأنا أخط هذه السطور بتأثير لم أشعر بمثله في ماعبر من أيامي ، وتناجيني النفس بأنه سيطول علينا الوقت قبل انتظام شملنا ، فلم تبق لي طاقة على كتابة شيء آخر . . . »

وان عقيلة ليتيسيا التي كانت تعرف نجلها حق المعرفة كانت تقول عنه وهو

في عنفوان عظمته « مهما فعله الامبراطور من الامور فهو كريم الاخلاق » وشهد له المسيو دي بوريان عينه هـذه الشهادة مع اعتقاده بأن نابوليون لم يكن يعترف بالصداقة ، وانه جاهر بأنه لم يكن يحب احداً . ويفسر هذا التناقض باختلاف المواقف . فليس لرجل الحكومة عواطف مودة شخصية ، ومن هذه الجهة وبالاستناد الى هذا المبدأ ومراعاة للمصالح العامة الموكولة اليه كان نابوليون يقول أنه لايحب أحداً . ولـكنه مع صرف النظر عن السياسة كان يجعل الطبيعة تستوفي جميع حقوقها . وقد شوهد غير مرة يلطف بهجة الانتصار وحماسته في ساحة الم ء باظهاره عواطف كانت الحرب تضطره الى كتمانها . فقد حدث في أثناء حروب ايطاليا أنه مر بعد معركة هائلة بأركان جيشه بين القتلى والجرحى ، وكان الضباط قد سكروا بسلافة النصر وجعلوا يجاهرون بحماستهم من دون أن يقفوا أمام تلك المشاهد التي تتفتت منها الاكباد . فلمح القائد الظافر كلباً ينبح الى جانب جثة جندي نمسوي ، فقال لرفاقه . « انظروا أيها السادة الى هذا الكلب فهو يعلمنا مقتضيات الانسانية »

ولـكن مهما كانت في قلب بونابرت منزلة العواطف المبنية عليها الفضائل الشخصية والهناء المنزلي ومهما كانت قيمة هذا الهناء كان بونابرت يضحي به في سبيل مجد وسعادة الشعب الذي كان هو ممثله الوحيد ، فانه مع القاء الدستور الجديد بمقاليد السلطة الاجرائية الى ثلاثة قناصل كان الجميع يعلمون أن الحاكم كان واحداً فقط . ويقول دي بوريان ان كمباساريس ولبرون كانا شاهدين أكثر منهما زميلين لبونابرت . وقد اعيدت الملكية على تلك الصورة تحت اسم جمهورية . فكان القنصل الاول يفعل كل شيء ، وكان مقضيا عليه أن يفعل كل شيء بحسب ما كان منتظرا من مقدرته وعلو همته ومعاضدة الاحوال له . وكان تاليران قد عرف هذا الامر وخاطب بونابرت من اليوم الاول الذي باشر فيه الاعمال معه بصفة وزير خارجية قائلا له . « ياحضرة الوطني القنصل ، لقد قلدتني وزارة الشؤون الخارجية ، فأراني مقضيا علي بأن أصرح لك من الآن بأني لا أريد العمل الا معك . ولاتدفعني الانفة الفارغة الى التفوه بهذا الكلام وانما أخاطبك به حبا بمصلحة فرنسا . على أن أفضل الشروط لاحكام القيام بادارة حكومتها وايجاد الوحدة في العمل انما هي أن تكون أنت القنصل الاول وأن



المرشال اوجرو دوق كستليونه

ولد فى باريس سنة ١٧٥٧ وتوفى فى سنة ١٨١٦



تكون قابضا على أزمة السياسة رأساً أي على وزارة الداخلية وادارة الشحنة في الداخل وعلى وزارة الخارجية ، وعلى الذريعتين الكبيرتين للاجراء وهما الحربية والبحرية فيليق والحالة هذه بالقائمين بأعباء هـذه الوزارات الخمس أن يعملوا معك دون سواك . أجل ان ادارة العدلية وحسن انتظام الشؤون المالية يتعلقان بالسياسة بأسباب عديدة . الا أن هذه الاسباب ليست شديدة التوثق . واذا فسحت لي في القول ياحضرة الجنرال ، قلت لك أنه يلائم أن تطلق يد القنصل الثاني في العدلية فهو من الفقهاء العظام وأن تطلق يد القنصل الثالث في الشؤون المالية فهو واسع الخبرة في القوانين المالية . وهـذا الامر يشغلهما ويلهيهما . وأنت ياحضرة الجنرال يبقى لديك باقي الخطط الحيوية في الحكومة ، فحينئذ يمكنك الوصول الى الغاية النبيلة التي تتوخاها أي تجديد شباب فرنسا »

ولما خرج تاليران من حضرة بونابرت قال لكاتبه . « ان تاليران سديد الرأي داهيـة سليم الذوق . . . وقد أدرك مرمى أفكاري واعلم أن ما يشير به علي تميل نفسي الى اجرائه ، وهو مصيب في اقتراحه . فالانسان يسرع في الجري حين يكون وحده . ان لبرون رجل شريف النفس بيد أنه خال من السياسة فهو يؤلف الكتب ، وكمباسارس يروي كثيراً من التقاليد الثورية ، فيجب أن تكون حكومتي حكومة جديدة »

وكانت الحال تقضي بأن يفهم الجميع ضرورة انشاء حكومة جديدة فمن الجهة الواحدة كان أشياع الثورة يهللون للحكومة القنصلية وان يكن صرحها قد شيد على أنقاض الدستور الجمهوري للسنة الثالثة ، ومن الجهة الاخرى كان الاهلون المعتصمون بأهداب الحكومة الجديدة غير مبالين بطريقة التساهل والتروي التي جرت عليها من نشأتها

وكان القنصل الاول يخاف من حدوث حرب أهلية في غرب البلاد فوجه الى أهليها نشرة حذرهم فيها من مكايد البريطانيين ودسائسهم . وعضد هـذا الانذار بجيش قوامه ستون الف مقاتل بلغ به أمنيته وتلافى وقوع فتنة عظيمة وأما زعماء الحزب الملكي فانهم ظلوا متشبثين بآرائهم واتكلوا على الاجانب ولبثوا يترصدون فرصة ملائمة للنهوض على الحكومة الجديدة ، فاستاء بونابرت من عملهم ولم يشأ اغضاء الطرف عنه وقابلهم بما هو مشهور عنه من شدة

الصريعة ، فأدخل عليهم الذعر بنشرة أنفذها اليهم وضمنها كثيراً من الوعيد والتهويل .

وأدرك الحزب الملكي أن زمن الاهلية انقضى ، وأنه لم يبق له من سبيل لمجاذبة ممثل الثورة الجديدة ومواقعته ، ورأى من الحكمة الرضاء بوضع حد لتاريخ الفنده . وكان الملكيون يمدون ذواتهم سعداء بأن تستثنى من تاريخ أمانتهم وبسالتهم أعمال النهب والقتل والسرقة والاعتداء التي صارت تأتيها من ذلك الحين فصاعدا عصابات تألفت في الجهة الجنوبية والغربية بعد انحلال عرى الجيوش الملكية

وكان بونابرت واضعاً نصب عينيه هذه الغاية وهي التضييق على أعداء الجمهورية المكابرين أو انزال انكا العقوبة بهم ومكافأة نصرائها الشجعان . ولما كان يعلم مقدار محبة أصحاب الاهلية للامتياز عن سواهم ولشعور الناس بهذه الميزة وزع مئة سيف شرف على الجنود الذين امتازوا بمآثر خطيرة . على أن الشعب الذي شاهد أهل البسالة والمروءة يكافأون بما كان يكافأ به في ماضي الحين أبناء النبلاء كبر عند توزيع السيوف المذكورة ، وعلم أن ذلك الامر لم يكن مخالفاً للمساواة التي من أجلها جرت الثورة بل كان موطداً لدعائمها على صورة ثابتة تزينها العدالة ، أي على قاعدة المجازاة بالنسبة الى الخدمة والفضل .

وانتهت اليه رسالة شكر من سرجان في فصيلة القنابليين يقال له أون ، فارسل اليه الجواب الآتي : « وردتني رسالتك يارفيقي الباسل ، فقد كنت في غنى عما نوهته لي باعمالك العالية لمعرفتي اياها كلها ، . انت أشجع قنابلي في الجيش بعد بنزيت الهمام المتوفى . وقد أصبت سيفاً من السيوف المئة التي وزعتها على الجيش . فاتفقت كلمة جميع الجيوش على أنك قد نلته باستحقاق . وأنا مشتاق كثيراً الى رؤيتك ، وقد أنفذ اليك وزير الحرب أمراً بالعودة الى باريس »

ان بونابرت مع ما كان يرمي اليه من الغاية السرية في تلك التظاهرات اصاب الغرض باستمالته اليه الشجعان ومكافأته اياهم ولو كان الطمع دافعاً اياه الى هذا العمل . وهذا الامر أفضل من رؤيته في الاحتفالات المقامة للاشخاص الذين

انقذوه في سان كلود من المخاطر الوهمية

وهب سلمنا جدلا مع الواهمين بأن بونابرت كان يستميل الناس اليه بمضده المطامع الهابة رياحها في صدره ، وهب كان لاعتبار عظمته الشخصية وسطوته الخاصة ومنزلته السامية وشهرته البعيدة شأن عظيم في جميع أعمـاله الحربية والسياسية وجب علينا أن نعلم أيضاً أن تينك السطوة والعظمة لم تكونا سوى سطوة وعظمة فرنسا الملقاة مقاليد حظها بين يديه . وكان عنده أن العمل لمجده الخاص ونجاح مطامعه وخلود اسمه هو العمل عينه لارتفاع ورقي ومستقبل الشعب الذي أطلق عليه هو قبل غيره لقب « عظيم » والذي كان متجسما فيه على أن السلطة المطلقة التي خولها كانت وسيلة يتوسل بها ليمهد لروح المساواة والتمدن الحديث سبيل النجاح في شؤون لم يكن روح الحرية يبلغها من جراء مايقوم في وجهه من عقبات يعز اجتيازها . وكان يكافىء العلماء والصناع على صور شتى تنشيطاً لهم وبعد ما كادت الصناعة الوطنية تبور على اثر الفتن الداخلية عادت فراجت رواجاً لم يسبق له نظير . فانشيء مصرف فرنسا ووضعت طريقة جديدة للموازين والمكاييل ، وقصارى الكلام حقق بونابرت وهو زعيم الحـكومة الفرنسوية ما كان يتصوره ويريده ايام كان قائداً بسيطاً من قواد جيوش الجمهورية وحين كان يلقي على الاساتذة الاسئلة العلمية ويجعل العلماء في مقدمة أركان الحرب ويسعى لنيل الاحترام والاكرام من الشعب بصفة كونه عضوا من أعضاء الجمعية العلمية اكثر مما كان يسعى لنيلهما قائداً أكبر للجيوش

وكان القنصل الاكبر يسر كثيراً بان يكون زعيما للفتوح العقلية ومشجعاً لتقدم العلوم . وقد كان من حداثته يحلم بنيل المجد العلمي والتفوق على نيوتن ومن جملة ماقاله في هذا الموضوع : « حين كنت حدثاً فكرت بان أصير مخترعا على مثال نيوتن » ويروي جفروي سان هيلار انه سمعه يقول : « اتخذت الحرب مهنة لي غير مختار ، وقد كان ذلك اجابة لداعي الاحوال » وفي أواخر مدة اقامته في مصر سمع منج يردد كلمة لاغرانج القائل : « لا يستطيع أحد أن يصيب مجداً كمجد نيوتن لانه لم يكن سوى عالم واحد للاكتشاف » فانتهره بحدة قائلا : « ماذا تسمع أذناي ؟ ولكن ما قولك في عالم التفاصيل فمن افتكر به ، لقد كنت افتكر به من الخامسة عشرة من عمري . . . . وهل من

أحد انتبه الى ما لافعال الذرات الدقيقة من خاصة القوة والجذب على مسافة قصيرة جداً مع أننا في حكم الضرورة من ملاحظيها . »

وفي أثناء أعمال بونابرت الحربية وانتصاراته اليومية التي امتازت بها حروبه في ايطاليا ظل محافظا على ذوقه ، وبقي مسيراً على السواء توسيع عظمة فرنسا السياسية والفتوح العلمية في سبيل خدمة الانسانية والعمران

وكان وهو في بافيا يباحث سكاربا العالم الفسيولوجي ، وسنة ١٨٠١ جرت مداولات علمية بينه وبين فلتا احد أقطاب الفلسفة الطبيعية فجاد عليه بالصلات السنية . وسنة ١٨٠٢ أرصد جائزة قدرها ستون الف فرنك لمن يتوفق في الكهربائية الى اكتشافات واختبارات تماثل اكتشافات واختبارات فرنكلين وفلتا فطلب من الندوة العلمية بيان خلاصة ما أصابته الفنون وعلم الادب والعلوم الطبيعية من النجاح بعد الثورة الكبري وفوض الى شينيه بيان رأيه في المسائل المتعلقة بعلم الادب

ولم تكن العناية بالقاء السلام فى داخلية الجمهورية وتنظيم شؤونها تستغرق كل وقت القنصل الاول بل كان يفتكر أيضاً بتعزيز السلام في الخارج ارادة ان يجعله متمما للمنة التي دلت على ارتقائه الى آوج السلطة . وفتح لهذه الغاية ابواب المفاوضات مع حكومة لندرة على يد تاليران وكتب بذاته في ٢٦ دسمبر سنة ١٧٩٩ الى ملك بريطانيا العظمى الكتاب الآتي تعريبه حين قبض بيده على زمام القنصلية بالاشتراك مع كمباساريس ولبرون

« من بونابرت قنصل الجمهورية الاول الى جلالة ملك بريطانيا العظمى وارلندة

« انتدبتني رغبة الامة الفرنسوية الى الحلول في المركز الاول في الجمهورية ، فرأيت من الملائم عند قبضي بيدي على عنان هذا المنصب ان أشعر جلالتكم بذلك رأسا . وهل تضي أن تدوم الحرب التي تخرب أربعة أقطار العالم من ثماني سنوات ؟ او ليس من سبيل لايجاد واسطة للاتفاق ؟

« او يليق بالامتين الممتازتين في أوربا بالمدنية والقوة والبأس اكثر مما تقتضيه حالة امنهما واستقلالهما ان تضحيا في سبيل أفكار العظمة الكاذبة بمرافق التجارة واليسر الداخلي وهناء العيال ؟ فكيف لا نشعر بان السلم يعتبر اول فخر كما يعتبر اول حاجة ؟

« لايمكن أن تكون هذه العواطف غريبة عن فؤاد جلالتك ، فانت متول حكومة امة حرة ، وغايتك الوحيدة من ذلك هي تيسير اسباب الهناء لها

« وسترى جلالتك في هذه المقدمات رغبتي الصادقة في العمل للمرة الثانية بطريقة فعالة في سبيل السلم العام بسعي سريع بتمام الثقة ، خال من تلك الصور التي مع ضرورتها لاخفاء استقلال البلدان الضعيفة لاتظهر في البلدان القوية الا الرغبة المتبادلة في المخادعة

« ان فرنسا وبريطانيا باساءة استعمالهما لقوتهما تستطيعان أيضاً مدة طويلة ، وذلك لنكد طالع جميع الشعوب ، أن ترجئا زمن نفادهما . وأجرؤ على القول بأن حظ جميع الامم المتمدنة معلق بنهاية حرب تعم شرورها المستطيرة العالم طراً بونابرت »

ولم يكن ذلك الامر سوى تظاهر فارغ بالاعتدال ومحبة الانسانية على أنه لو كان بونابرت كما زعم بعضهم راغباً في مداومة اصلاء نار الحرب ولو لم يكن ميالا الا للحرب كما قد أقاموا عليه النكير من جراء ذلك ، لما كان شيء من الاشياء يضطره الى ذلك السعي المعجل والموجه رأساً الى ملك بريطانيا . أجل . انه كان يعتقد أن السلم مفيد لحكومته الا أنه كان يبتغي ان يثبت أركان هذه الحكومة ويصير الملأ طراً ميالين اليها حباً بمصلحة فرنسا والتمدن الاوربي . وما كان أشد تلك اللهجة التي تكلم بها بحرية وأنفة عن احتقاره للصور التي كانوا يتخذونها في المراسلات السياسية . ويعرف القارىء من مجرد تلاوته لهذه الرسالة أن كاتبها هو أحد أبناء الديموقراطية ومستودع مصالح الثورة. وعليه أبى الملك الشيخ الرضى بالشكل الجديد الذي عالج الحاكم الجمهوري ادخاله على الملاقات السياسية ، فأوعز الى اللورد غرانفيل أن يجاوب الحكومة الفرنسوية بأن الكتاب الموجه اليه رأساً من القنصل الاول لم يكن ليروقه ، وفوض الى الوزير نفسه بأن ينظم مذكرة يضمنها كثيراً من العتاب لفرنسا . فلم يغرب عن علم بونابرت أن استمالة هذا العدو العنيد المعاكس لنهضة فرنسا السياسية واضطراره الى الملاينة والمسالمة يقتضيان ذريعة أخرى غير مخاطبته بلهجة تدل على التعقل والتأني وكرم الاخلاق ، الا أنه لم يكن يشاء أن يكون

له في وقت واحد عدوان شديدا البأس أعني بهما بريطانيا والنمسا . وبناء على ذلك فتح بونابرت أبواب المفاوضات السلمية في وقت واحد مع الحكومتين طمعاً بفصل احداها عن المحالفة على فرنسا ولكنه عاد بصفقة المغبون ولم يجن من المفاوضات سوى الخيبة والخذلان . فان النفور الذي شعرت به الحكومات الاجنبيات من الشعب الفرنسوي على اثر فتنته الكبرى لم يكن ليزول الا بعامل الانتصار أو بعامل الضررورة

الفصل الحادي عشر

في نقل مركز القنصلية الى التويلري — حرب ايطاليا الجديدة معركة مارنغو

وكان القنصل الاول يعلم حق العلم أهمية الصور التي تبدو بها السلطة وتأثير الظواهر كبيرها وصغيرها ، فأراد أن يجعل سلطته محفوفة بكل ما يؤول الى توسيع دائرتها وتعزيز شأنها واظهار بهاء بهائها في عيون الشعب فقد كان قصر اللكسمبور مقراً لسلطة ضعيفة تألفت من عصابات الثورة ، وسقطت بنهوض الملأ الفرنسوي عليها ونفور القوم منها مما كان يخشى أن تفضي الحال معه الى الفوضى . وكان هذا الامر وحده يكفي لأن يجعل بونابرت نفسه مضايقاً في مثل هذا المقر . على أن ما كان كافياً لايواء حكومة وقتية مزقت أحشاءها عوامل الاضطرابات والنكبات والفتن وجعلت الناس ينكرونها ويتأففون منها لم يبق لائقاً بحكومة تشعر بأنها ذات حول وطول وقوة ووحدة وتطمع بأن تعمر سطوتها ومجدها مدة طويلة فكانت الحال تقضي من ذلك الحين بان يقيم القنصل الاول في مقر الملوك لانه كان في واقع الحال يزاول سلطة الملوك . وكان قصر التويلري وحده يليق بسكنى بونابرت لان هذا القصر كان في عرف الجميع مقراً طبيعياً لرؤساء الحكومة . فهل كانوا يخشون ان يؤثر به ذكر الملكية القديمة بعد ما كانوا يتهمونه بأنه عامل على ترميم صرحها ، هذا ما كان الجمهوريون المتريبون يحاذرون وقوعه ويحاولون ان يدسوه في الصدور . إلا

انه كانت بين ١٠ أغسطس و١٨ برومير (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) وبين لويس السادس عشر ونابوليون بونابرت أيام وسلطات يعز الديموقراطيون ذكراها. فقد تعاقب في الاقامة بذلك المقام الملكي الكنفنسيون ولجنة الامن العام ، وكانت الاقامة فيه كافية لافتتاحه للثورة ولابعاد شبح طريقة الحكم القديم وكل ما يعيد الى الاذهان ذكره الذميم . ولما قر رأي القنصل الاول على ذلك الامر ضرب اليوم التاسع عشر من شهر يناير موعداً للانتقال الى المقر الجديد . ولما أزف اليوم المعين قال بونابرت لكاتبه . « هذه الليلة نرقد في التويلري . . . فيجب علينا ان نمضي اليه بموكب حافل ، وهذا الامر يبعث على التبرم ولكن لابد من مخاطبة العيون ، وهذا شديد التأثير في الشعب . فقد كانت حكومة الديركتوار بسيطة ولذلك لم يكن القوم يحترمونها الاحترام الكافي . فالبساطة في الجيش لاتخطىء موقعها ، ويجب على رئيس الحكومة في مدينةعظيمة وفي قصر فخم ان يستميل اليه جميع الانظار بجميع الذرائع الميسورة .. »

وفي الساعة المعينة برح بونابرت اللكسمبور يحف به موكب حافل يزيده فخامة تأنق الجنود في ملابسهم . فكان كل فيلق يسير والموسيقى أمامه ، وكان القادة وأركان حربهم ممتطين الجياد ، والشعب كالبنيان المرصوص يتزاحمون بالمناكب ويأخذ بعضهم برقاب بعض ليشاهدوا الموكب ويبصروا الهمام المنصور الذي ظفر بالاعداء في وقعات متعددة ، وينظروا نخبة الجنود الذين أصبحت أسماؤهم في جميع الافواه بعد المعارك التي أوقدوا سعيرها . وكانت أنظارهم تبحث بنوع خاص بين الجموع عن الرجل الذي امتاز بينهم بما أوتيه من الدهاء وشدة الصريمة وقوة العارضة ، وما أداه من الخدم الجليلة لوطنه ، فهو الذي حصر في شخصه فخر الحرب في ذلك العهد ، وكانت فرنسا تعلق حظها بحظه متباهية . وكانت جميع الالحاظ شاخصة الى القنصل الاول الجالس في عربة تجرها ستة من الجياد البيض أهداه اياها عاهل الالمان بعد عقد وثيقة كمبو فرميو . وكان كمباساريس ولبرون جالسين بازاء زميلهما كأنهما من حجابه . واجتاز الموكب شطراً كبيراً من مدينة باريس ، فأثار بونابرت دفين الحماسة في الصدور

ولما وصل القنصل الاول الى ساحة القصر عرض الجيش ، وكان الى كل جانب من جانبيه مورات ولان ، ووقت ما مرت أمامه الفصائل السادسة والتسعون

والثالثة والاربعون والثلاثون رفع قبعته وانحنى احتراماً عند ما رأى اعلامها الممزقة من نار العدو والمسودة من البارود ولما فرغ من عرض الجيش أقام من دون مباهاة في المقر الملكي القديم

إلا أنه أراد ان يبعد عن الاذهان تصور اعادة الملكية على ذلك الشكل الفجائي فشاء ألا يصير المقر الملكي مقراً له إلا باسم قصر الحكومة . وراعى عواطف الجمهوريين بادخاله الى مقره الجديد كثيراً من صور وتماثيل مشاهير رجال العصور القديمة ، فقد كان يعلم ان ذكراهم تلذ لاحلاف الحرية

وأوعز الى داود المصور بأن يضم صورة يونيوس بروتس في أحد أروقة القصر القنصلي الجديد ، ووضع فيه أيضاً تمثالا نصفياً لبروتس الثاني جيء به من ايطاليا .

وقد دلت جميع هذه المحاذير على أن القنصل الاول مع شدة ميله الى الملكية كان يشعر شعوراً عظيما بحقيقة أصله وفصله وحالة موقفه الثوري . وظلت هذه العاطفة متسلطة عليه حتى انه لما عمد فيما بعد الى الخروج من دائرتها أبقاها له الشعب . واذا لم تكن والدته قد انخدعت حين قالت عنه واصفة جودة قلبه . « مهما فعله الامبراطور من الامور فانه كريم الاخلاق » فان الشعب الفرنسوي كان يصر بعاطفة سرية على القول عن القنصل ثم عن العاهل بأنه وان لم يكن حافظاً لعهد الامانة لمهمته في المستقبل ، وان يكن قد أحاط زخارف العرش وبهرجته فان بونابرت ديموقراطي بقطع النظر عن الافعال التي فعلها .

وينتمي الى اقامتــه في قصر التويلري عصر الاصلاحات والانشاءات التي باشرها وكان قبلا قد أشار الى بعض منها كالامر الذي أصدره بشأن اقفال باب المهاجرة ، وانشاء مصرف فرنسا ، وتقسيم الولايات . وحدثت حادثة ألبست الجمهوريين في أميركا ثياب الحداد ، وأوجدت لبونابرت سبباً جديداً أظهر به انه وان يكن يسير موسماً الخطى نحو العرش فلا يزال يعتبر ذاته أول موظف للجمهورية ، ويعد نفسه مرتبطاً كل الارتباط بحظوظ الشعوب الحرة.

وأذاع على الجيش نشرة جاء فيها ما يأتي : « مات وشنطون ! لقد أصلى هذا الرجل العظيم الجور والظلم حرباً عواناً ، ووطد أركان الحرية في وطنه ،



المرشال ماسينا دوق ريفولى وامير اسلنغ

ولد فى نيس سنة ١٧٥٦ وتوفى فى سنة ١٨١٧



وسيظل ذكره عزيزاً ومكرماً عند الشعب الفرنسوي وعند جميع الاحرار في العالمين القديم والجديد ولا سيما عند الجنود الفرنسويين الذين نسجوا على منواله ومنوال الجنود الاميركيين في القتال دفاعاً عن الحرية والمساواة .

« وبنا عليه يأمر القنصل الاول بأن توضع علامة الحداد عشرة أيام على رايات الجمهورية وأعلامها . »

وفي اليوم عينه أعلن القناصل خلاصة الاقتراع على الدستور الجديد، وكان عدد المقترعين ثلاثة ملايين واثني عشر ألفاً وخمسمائة وتسعة وستين ، فنبذه ألف وخمسمائة واثنان وستون ، وجاهر بوجوب العمل به ثلاثة ملايين واحد عشر ألفاً وسبع مئة .

وانتهت الى الحكومة في خلال ذلك الحين أنباء من جيش مصر موجهة الى الديركتوار ، وكانت تتضمن كلاماً بذيئاً وجهه كليبر الى بونابرت متهماً إياه بأنه غادر جيشه بالحاجة والضيق . ففض القنصل الاول الرسائل ، وقد أسعده الحظ بوقوعها في يده . وكانت الاحوال تقضي عليه بأن يضحي بعواطفه الشخصية على مذبح مصالح فرنسا العامة فأجاب كليبر جواب رجل يستطيع التجلد وكظم غيظه مما يدل على أنه كان يستوجب أن يتولى الزعامة والامر والنهي وكان جوابه بشكل نشرة موجهة الى جيش الشرق ، وقد حاذر كل المحاذرة أن يدع أحداً يشتم منها رائحة الشكوى التي أودعها كليبر رسائله منه ، وهذا تعريب النشرة .

« أيها الجنود ،

« ان قناصل الجمهورية يكثرون من الاهتمام بشؤون جيش الشرق .

« ان فرنسا تدري ما للفتوح التي أصبتموها من التأثير على انهاض تجارتها من كبوتها وانهاض العالم ، فاوربا جمعاء شاخصة اليكم بأنظارها وأنا في أغلب الاحيان أصحبكم بالفكر . وفي أي حالة أوصلتكم اليها أهواء الحرب ظلوا جنود ريفولي وأبي قير الذين لايشق لهم غبار ولايجارون بمضمار

« انظروا الى كليبر بثقة غير محدودة كما كنتم تنظرون بها الي ، فهو جدير بذلك ، أيها الجنود ، افتكروا باليوم الذي تعودون به ظافرين الى بلادكم المقدسة، فسيكون ذلك اليوم يوماً عظيما محفوفاً بالمجد والفخر تحتفل به الامة طرا . »

الا أن حكومة فينا ثابت من القنوط الذي ألقتها في وهدته انكساراتها المتوالية في حروب ايطاليا العديدة ، وأصاخت الى صوت القلى القديم الذي كانت تشعر به نحو الجمهورية الفرنسوية ، وبادرت الى الاتفاق مع بريطانيا على تلك السياسة العدائية نابذة جميع الاقتراحات السلمية التي بسطها بونابرت . فحينئذ أمر القنصل الاول بأن ينشأ في ديجون فيلق احتياطي مؤلف من ستين ألف مقاتل ، وأسند قيادته الى برتيه بعد ما خلفه كارنو في وزارة الحرب ؛ بيد أنه ماعتم أن مضى بذاته وتولى قيادة الفيلق جاعلا اياه جيشاً جديداً لايطاليا

وفي ٦ مايو برح بونابرت بجيشه مدينة باريس فانتهى في ١٥ منه الى جبل القديس برنردس العظيم فاجتازه في ثلاثة أيام . وفي ١٨ منه كتب بونابرت من مرتيني وقد اتخذها مقراً لاركان حربه الى وزير الداخلية يخبره بأنه قطع المعبر الصعب المرتقى وبان الجيش برمته سيدخل أرض ايطاليا في ٢١ منه . واليكم ما كتبه اليه

« أيها الوزير الوطني ، وصلت الى سفح جبال الالب في وسط الفاله أجل ان مصاعب عديدة تصدت لنا في جبل القديس برنردس العظيم إلا أنها ذللت لدى الجرأة الممتاز بها الجنود الفرنسويون في كل موقف وقد بلغ الى ايطاليا ثلث الفرسان ، نزل فيها الجيش عنوة ، واحتل برتيه البيامونت . وبعد ثلاثة أيام ينقضي كل شيء . »

وقد انقضى والحق يقال كل شيء على ما كان ينظر اليه بعين الفكر بنظام وسرعة

وبعد ما استولى الفرنسويون بسرعة غريبة على مدينة أوستي ثبطهم عن التقدم حصن بارد المنيع المشيد فوق صخر عمودي الشكل والمنتهي عنده واد عميق لم يكن لهم منتدح عن عبوره . فتغلبوا على الصعوبة بنقرهم في الصخر بمكان لاتدركهم فيه قذائف مدافع أعدائهم طريقاً لمرور المشاة والفرسان . ثم انهم أحاطوا في احدى الليالي المظلمة بالتبن عجل المركبات والمدافع وتمكنوا باجتياز الحصن بقطعهم مدينة بارد الصغيرة . وكانت في أثناء ذلك الحين اثنتان وعشرون بطارية من المدافع تمطر عليهم النيران والقنابل ، الا ان القذائف المطلقة على غير هدى لم توقع كثيراً من الاذى بالفرنسويين

وفي الايام الاولى من شهر يونيو نقل بونابرت مركز أركان حربه الى

ميلانو وحينئذ القى في الجيش الخطبة الآتية بعد ما أعلن اعادة جمهورية ماوراء الالب .

« أيها الجنود

« كان أقليم من أقاليمنا في حوزة العدو ، وكان الذعر منتشراً في جميع أنحاء فرنسا الشمالية ، وكان القسم الاكبر من الارض الليغورية الشديدة الموالاة للجمهورية قد غزي .

« وكانت جمهورية ماوراء الالب التي تضعضعت أركانها في الحرب الاخيرة قد أصبحت ألعوبة بيد الحكام ذوي الاقطاعات . ولكن لم تكادوا تزحفون أيها الجنود ، حتى أنقذت الارض الفرنسوية ، وخلف في بلادنا الجذل والامل الرعب والوجل . . وانكم ستعيدون الحرية والاستقلال الى شعب جنوى فيتخلص الى ما شاء الله من أعدائه الابديين .

« أنتم في عاصمة جمهورية ما وراء الالب ، والعدو المذعور لا يطمع إلا بالبلوغ الى حدود بلاده . وقد استوليتم على مستشفياته ومخازنه واهرائه الاحتياطية .

« قد انتهى أول عمل في هذه الحرب ، وكل يوم يوجه اليكم ملايين من البشر شكرهم ، فلا يخرق أحد حرمة الارض الفرنسوية من دون ان تدركه طائلة العقاب . وأنتم لا تتركون الجيش الذي قذف الرعب على عيالكم يعود الى مواطنه فهبوا الى القتال . . .

« اقتفوا آثار العدو وحولوا دون انسحابه وانتزعوا منه أغصان الغار التي كان يتباهى بها ، واجعلوا بهذا الامر جميع الناس يعلمون ان اللعنة تحل على المغفلين الذين يتجرأون على اهانة أرض الشعب العظيم . وستكون نتيجة جميع مساعينا مجداً أثيلا وصلحاً متيناً

« ان المجد الاثيل كان قد أحرزه من عهد بعيد الجيش الفرنسوي وقائده الهمام وأما الصلح المتين فقد كان يصعب عليهم نيله ، وكانوا مع ذلك قد أوشكوا ان يوقدوا سعير معركة نهائية تجعل أشد الاعداء عناداً يطفئون وقتياً على الاقل نيران بغضائهم »

وعبر بونابرت نهر البو في ٩ يونيو وظفر بالنمسويين في منتبلو حيث اشتهر نائب

من نوابه يقال له الجنرال لان اشتهاراً عظيما وأدرك النمسويين في سهول مارنغو في ٢٤ منه وانتصر عليهم انتصارا من أعظم الانتصارات التي امتازت بها جيوش الجمهورية . ولندع ذلك الغازي المصور يروي بذاته حوادث هـذا اليوم المشهور .

« بعد واقعة منتبلو زحف الجيش ليعبر السيارا . ففي ٢٤ يونيو التقت طلائعنا التي كان يقودها الجنرال غردان العدو الذي كان يذود عن البراميدا والجسورة الثلاثة بضواحي الاسكندرية فقهرته وغنمت منه مدفعين وأسرت منه مئة مقاتل .

« وفي الوقت عينه أقبلت فصيلة الجنرال شابران على طول ضفاف نهر البو بازاء فالنسه وصدت العدو عن عبور هذا النهر . فأصبح ميلاس والحالة هذه محصوراً بين البرميدا والبو ، وأضحى المكان الوحيد الذي كان يستطيع الانسحاب اليه بعد معركة منتبلو مسدودا . لم يكن العدو قد صمم بعد على اتيان أدنى حركة حربية ، وفي ٢٥ منه عند افترار ثغر الفجر اجتاز العدو البراميدا على الجسورة الثلاثة وهو عاقد عروة العزم على اختراق منفذ له . فخرج بكل ما عنده من القوة وفاجأ مؤخرتنا ، وباشر بشدة معركة مارنغو الشهيرة التي كانت حداً فاصلا لحظ ايطاليا والجيش النمسوي

« فتقهقرنا في أثناء المعركة أربع مرات ثم عدنا فهجمنا أربع مرات وأخـذ ثم استرجع أكثر من سبعين مدفعاً من الفريقـين بأماكن عـديدة وساعات مختلفة . وهجم الفرسان أكثر من اثنتي عشرة مرة بنتائج متفاوتة

« وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر وقد أحاط بميمنتنا عشرة آلاف من المشاة في سهل القديس يوليانس المشهور ، وكان ثمت صف من الفرسان وكثيرون من المدفعيين يعضدونهم قائمين بنصرهم في السهل الفسيح ووقف فرسان الحرس كحصن من الصوان في وسط السهل فلم يستطع شيء من الاشياء أن يفل حدهم، وزحف اليهم على غير جدوى الفرسان والمشاة والمدفعيون ، وقد استنتج من ذلك ما تستطيع فعله عصابة من ذوي القلوب الصارمة

« وكانت المقاومة الشـ[illegible] داعية الى ايقاف ميسرة العدو عند حدها ،

وكانت ميمنتنا مسنودة فتمكنت من المقاومة حتى وافاها الجنرال مونيه فاستولى على قرية كستل شريولو بقوة الحراب

« وأجرى فرسان العدو حركة سريعة نحو ميسرتنا وقد كادت تتضعضع أركانها ، الا ان هذه الحركة عجلت في انسحابها

« وكان العدو يزحف الى طول الخط وهو يطاق النار من مدافعه الزائد عددها عن المئة

« وكانت الطرق مغشاة بالهاربين والجرحى واشلاء القتلى . وخيل ان النصر قد مال عنا ، فترك العدو يتقدم الى مرمى بندقية من قرية القديس يوليانس حيث كانت فرقة ديزه تقاتل ومعها ثمانية مدافع خفيفة في المقدمة وفصيلتان احتياطيتان عند جناحيها . واحتشد وراءها جميع الفارين ، وكان العدو قد ارتكب هفوات أنذرت بتزلزل أقدامه . فإنه كان قد نشر جناحيه كثيراً

« وأنهض حضور القنصل الاول همم الجنود من عثارها

« فكان يقول لهم : « يا أبنائي ، اذكروا اني متعود الرقاد في ساحة القتال »

« ولما علا الهتاف « فلتحيا الجمهورية ! فليحي القنصل الاول ! » حمل ديزه بفرسانه حملة صادقة على وسط الاعداء ، ولم يلبث غير القليل حتى ولوا الادبار . وكان الجنرال كارمان قد ذاد كل النهار بفرسانه عن ميسرتنا مسهلا لها سبيل الانسحاب ، فهجم هجمة شديدة في الوقت الملائم كان من ورائها سقوط ستة آلاف من فرسان النمسويين والجنرال زاخ رئيس أركان الحرب في حبائل الاسر ، وانتظام كثيرين من قواد العدو . وكان جميع الجيش يتتبع هـذه الحركة ، فانقطعت ميمنة الاعداء وقذف الذعر والرعب على صفوفهم وهجم فرسان النمسويين على الوسط ليحموا طريق الانسحاب فتلقاهم بسيار قائد احدى الفرق في مقدمة فرسان الحرس وحمل بسرعة وجرأة مخترقاً صف فرسان العدو . فكان ذلك العمل سبباً لانكساره التام

« وغنمنا خمس عشرة راية وأربعين مدفعاً ، وأسرنا ستة آلاف الى ثمانية آلاف مقاتل ، وتركنا أكثر من ستة آلاف محارب مجندلين في ساحة الوغى

« وقد استحقت الفصيلة التاسعة الخفيفة السير لقب « فاقدة النظير » والتحف

الفرسان والفصيلة الثامنة من الدراغون بعطارف المجد . وكانت خسارتنا جسيمة . فقد بلغ عدد قتلانا ٦٠٠ وجرحانا ١٥٠٠ وأسرانا ٩٠٠

« وقد جرح القواد شمبو ومرمون وبوده .

« ومزق الرصاص ملابس برتيه القائد الاكبر ، واضطر كثيرون من حجابه الى الترجل . وقد أصبنا بخسارة شعر الجيش بثقل وطأتها وستشعر الجمهورية جمعاء بشدة وقعها ، وأقفلت أبواب قلوبنا في وجه الفرح فقد أصيب ديزه برصاصة عند هجوم فرقته فمات لساعته . ولم تمهله المنية ان يقول للبرون الشاب الذي كان بجانبه غير هذه العبارة . « اذهب وقل للقنصل الأول بأني أموت متأسفاً على عدم تمكني من اتيان ما يجعلني أحيا في الاجيال الآتية »

« ففي أثناء حياة ديزه قتل أربعة جياد تحته وأصيب بثلاثة جروح ولم يكن قد انضم الى الجيش الا من ثلاثة أيام ، وكان يلتهب رغبة في القتال . وقال مرتين الى ثلاث مرات في الليلة السابقة الى حجابه « انقضى علي وقت طويل لم أقاتل فيه في أوربا ، فلا تعرفني القذائف وسينزل بنا حادث » ولما جاؤوا في أثناء اشتداد وطيس الحرب وأنبأوا القنصل الاول بوفاة ديزه لم يفه بغير هذه العبارة . « لا يمكنني ذرف الدموع » ونقلت الجثة الى ميلانو لتحنط فيها »

وبعد يومين كتب بونابرت الكتاب الآتي الى القنصلين عن مركزه العام في طوري دي غاروفالو :

« في غد اليوم الذي نشبت فيه معركة مارنغو طلب الجنرال ميلاس من جنودنا المحتلين المواقع الأمامية الترخيص له بانفاذ الجنرال سكال الي وقد تقرر في النهار الاتفاق الذي تلقون بطيه نسخة عنه . ووقعه في الليل الجنرال برتيه والجنرال ميلاس . وأؤمل أن يسر الشعب الفرنسوي من جيشه »

وكان من نتائج معركة مارنغو تسليم البيامنت واللمبرديا لفرنسا وأقام القنصل الاول مدة قصيرة في ايطاليا ، فأبدى القوم في ميلانو حماسة شديدة عند استقباله حتى أن الكهنة أنفسهم شاطروا الشعب التظاهرات الاكرامية وخاطب بونابرت كهنة المدينة بالكلام الآتي رغبة في استمالته اياهم واصابته مناصرتهم .

« يا خدام دين أعتبره دينا لي ، أنتم من أعز أصدقائي . فأعلن لكم بأن من يسوق أدنى اهانة ا[illegible] ينا المشترك أو يتجرأ على ابداء أدنى اهانة

لاشخاصكم المقدسة أعتبره شغاباً وعدوا للراحة العامة وأراني مضطراً الى انزال أنكأ العقوبة به حتى الموت .

« لقد حاول فلاسفة هذا العصر جهد استطاعتهم أن يقنعوا فرنسا بأن مذهب الكاثوليك عدو لدود لكل طريقة ديموقراطية ولكل حكومة جمهورية . وهذا هو السبب الذي من أجله ساقت الجمهورية الفرنسوية مر الاضطهاد الى الدين وخدامه ، وهذا هو السبب الذي من أجله حلت جميع الفظائع بهذا الشعب العاثر الجد . . . وأنا أيضا فيلسوف بيد أني أدري أن الانسان لا يعتبر في المجتمع الانساني ذا فضيلة وعدالة ان هو جهل من أين أتى والى أين يذهب . على أن العقل البسيط لا يسعه أن يقدم لنا في هذا الصدد أدنى مشكاة تنيرنا ، فبدون الدين يظل الانسان يخبط خبط عشواء في دياجير الجهل . والمذهب الكاثوليكي وحده يمنح الانسان نوراً حقيقياً ساطعاً يهديه الى مبدئه وغايته الاخيرة . . . »

ولا ينبغي لنا أن نعزو هذه اللهجة التي فاه بها بونابرت الى سياسة جندي طماع ، أجل انه لم يكن يكترث للشؤون الدينية كما استدل على ذلك من سيرته في القاهرة ، الا أنه كان يقول : « ان عقلي يجملني أرتاب في كثير من الامور بيد أن التأثيرات الباقية لي من صبوتي والالهامات التي كانت تنتاب مخيلتي في حداثتي الاولى تلقيني في وهدة الشك والتردد » ومع ذلك من المحقق أن بونابرت كان في عمله هذا الاخير منقاداً الى ضرورة سياسية تجعله ينادي على رؤوس الاشهاد بوجوب وجود الدين . وفي « مذكرة القديسة هيلانة » و « مذكرة نابليون » يشهد على ذلك الدكتور اوميرا وبيله دي لاوزير وطيبودو فقد كان من جملة أقواله في هذا الموضوع : « اني لا أرى في الدين سر التجسد ولكن سر النظام الاجتماعي ، فهو ينسب الى السماء فكر المساواة الذي يحول دون فتك الفقير بالغني . . . » — « لقد شاهدنا جمهوريات وديموقراطيات خالية من الدين والعبادة والكهنة ولكن لم نجد دولا على هذه الحال . »

وبناء عليه يجب علينا أن ننسب الى هذه الجهة من النظر في المسائل الدينية استقبال بونابرت لخدام الدين في ميلانو والخطاب الذي أوردنا بعض

عباراته . وبعد استرجاع ايطاليا ببضعة أيام أسرع القنصل الاول في العودة الى فرنسا بعد ما أنشأ مجلس شورى لاعادة تنظيم جمهورية ما وراء الالب وجامعة بافيا ، وفي ٢٦ يونيو نقل جثمان ديزه الى جبل القديس برنردس، وأمر باقامة أثر تاريخي في هذا المكان لذلك البطل الشاب

« وفي ٣٠ منه وصل الى ليون فأراد أن يجعل مروره في تلك المدينة مقروناً بفعل يدل على ميله الشديد الى الاصلاح ويستميل اليه عواطف السكان في تلك المدينة الصناعية العظيمة . وكان من نتيجة عمله هذا ابقاء اسمه فيها مكرماً ومحترماً . فقرر ترميم واجهة بلكور ووضع بونابرت بيده الحجر الاول فيها ودخل مدينة باريس ، أي بعد خروجه منها بأقل من شهرين في ٣ يوليو دخول الظافر فاستقبله شعبها استقبالا عظيما باهراً . وكان أول عمل باشره فيها مكافأة الجنود على بسالتهم . وكان في بدء هذه الحرب قد منح عند سفح جبل القديس برنردس لاتور دفرنيه الشجاع لقب « فارس الجمهورية الاول » وكان هذا يأبى التقدم في سلك الجندية وعند عودته من تلك البعثة القصيرة الاجل وقد أصاب فيها نصراً مبيناً جاد بعلامات شرف عديدة على كثيرين من أصحاب الاهلية .

وبينا القنصل الاول يستعيد في أيام قليلة أجل قطعة من ايطاليا كان برون وبرنادوت قائدا جيوش الغرب يسكنان متحركات الفتن في بريطانيا . وقرر الاحتفال بعيد انضمام جميع الفرنساويين ، فأصدر القناصل في ١٢ يونيو قراراً بارجاء الاحتفال بذلك العيد الى ١٤ يوليو في حاضرة كل اقليم ، وبنصب العمود الوطني في باريس بساحة فندوم ، ليتسنى للامة ان تحتفل في يوم واحد بعودة الوفاق والوئام وبذكرى نشأة الحرية . وكانوا يريدون الا ينقص تلك الحفلة شيء من الاشياء فضرب ذلك اليوم موعداً لوضع الحجارة الاولى في الاعمدة الاقليمية والعمود الوطني على ان تنصب الاعمدة الاقليمية وذلك اكراماً لذكرى الابطال الذين بذلوا حياتهم في سبيل الدفاع عن الوطن والحرية

وكان من احدى عشرة سنة قد التأم في تلك الساحة مندوبو الحرس الوطني من جميع أنحاء فرنسا للاحتفال بتذكار اليوم الرابع عشر من شهر يوليو للمرة الاولى بعد انشاء الجمهورية ، وقد استنفدوا الميسور في ذلك الحين طمعاً بأن

الجنرال مورو ١٨٥

بعد ما جاهد فى سبيل الجمهورية الفرنسوية اصبح خصما للجنرال بونابرت
وقتل فى درسدن وهو يحارب جيوش وطنه
ولد فى مورله سنة ١٧٦٣ وتوفى فى درسدن سنة ١٨١٣



يجعلوا ذلك اليوم مصطبغاً بصبغة سلمية . وكان لافاييت يمثل الوطنية الناشئة . وتالبران الايمان المتقطعة أنفاسه . وبعد عشر سنوات حدثت في أثنائها فتن داخلية وانتشبت في خلالها حروب خارجية تألب في الساحة الكبرى بمدينة باريس العاصمة أنصار الثورة ولم يكونوا يرمون في ذلك الاجتماع الى الحلف بأن ينتصروا او يموتوا ، ولكنهم كانوا يتوخون ان يثبتوا جهاراً بواسطة مندوبي الجيش ان مندوبي الحرس الوطني اضطلعوا خير اضطلاع بقسمهم وان فرنسا الحديثة ظفرت بأوربا القديمة .

«وأنفذ جيشا الرين وايطاليا ضباطاً من لدنهما نشروا أمام القناصل الرايات المأخوذة عنوة من الاعداء وقدموها للحكومة علامة اكرام للوطن . فخاطبهم بونابرت بالكلام الآتي :

« ان الاعلام المقدمة للحكومة أمام شعب هذه العاصمة الكبرى برهان ساطع عن دهاء القادة الكبار مورو وماسينا وبرتيه ، ومواهب القواد الحربية ونوابهم وبسالة الجنود الفرنسويين . فقولوا للجنود عند عودتكم الى الجيش ان الشعب الفرنسوي ينتظر عند احتفاله بعيد الجمهورية في أول فنديميار إما اعلان الصلح وإما رايات جديدة علامة انتصارات مستقبلة اذا ظل الاعداء يقيمون في وجهنا عقبات يعز قطعها »

وكان في هذه الخطبة الوجيزة نقطة تستوقف النظر وتستوجب الانتباه . فان بونابرت لم يجد له بداً من الانزواء عند اطرائه القواد والجيش . على أن تجاوزه عن تبيين فضله جعل الشعب يقدر له هذا الامر حق قدره ، فقدم في الذكر اسمي القائدين اللذين بينه وبينهما خصومة ، وذكر اسمي مورو وماسينا قبل اسم برتيه صديقه الحميم ومستودع سره . وهذا أيضا عمل سياسي يراد به ابعاد كل تهمة من الناس له بأنه يحسد ذينك القائدين الشهيرين ، كما أنه أيضا كان يدل بذلك العمل على أنه لم يكن يعتبرهما خصمين يستحقان أن يحسب لهما حساب وأن تتخذ التدابير لاسقاطهما . فهذه أنفة الدهاة ، اذ أن التواضع الذي تدعو اليه اللهجة الرسمية يشف عنها ولا يبين لجهلاء شعوره بتفوقه الا باظهاره للملاء طرا أنه لا يعنى الا باظهار فضائل غيره من الناس

وختم ذلك النهار بمأدبة شائقة أدبها القنصل الاول لكبار مأموري الجمهورية وشرب فيها النخب الآتي

« أشرب نخب ١٤ يوليو والشعب الفرنسوي صاحب السيادة علينا »

الفصل الثاني عشر

انشاء مجلس شورى الدولة — مؤتمر لونافيل — عيد تأسيس الجمهورية

الدسيسة الجمهورية — المكيدة الملكية — الاداة الجهنمية

وتم توقيع القنصل الاول على مقدمات الصلح بين فرنسا والنمسا بعد الاحتفال بعيد الجمهورية في ١٤ يوليو بمدة قصيرة . وقد أثبت هذا الامر ما كان بونابرت يجاهر به من الميل الى السلم في حضرة المندوبين الموفدين الى باريس من لدن جيوش المانيا وأيطاليا

وبعد شهر من الزمان صرف بونابرت همامة النفس الى انشاء مجلس شورى الدولة وتسمية أعضائه . وفي ٣ سبتمبر عقد وثيقة حبية وتجارية بين فرنسا والولايات المتحدة . وفي ٢٠ منه لما أبى الامبراطور التوقيع على مقدمات الصلح الآنفة الذكر أبدى القنصل الاول ميله الى عقد مؤتمر آخر في لونافيل . وكان الجنرال كلارك يمثل الجمهورية فيه

ولم تقل أبهة الاحتفال بعيد أول فنديميار عن أبهة الاحتفال بعيد ١٤ يوليو ، فقد شهده مندوبون من جميع حكومات الاقاليم . وكان ذلك اليوم مضروباً لوضع الحجر الاول من الاثر الوطني المقررة اقامته في ساحة النصر لذكرى ديزه وكليبر اللذين صرعتهما المنية في يوم واحد الاول منهما في مارنغو بقذيفة من قذائف الاعداء والثاني في مصر بمدية أحد السفاحين وقد زاد في فخامة الاحتفال بعيد تأسيس الجمهورية نقل رفات طوران الى هيكل اله الحرب بناء على أمر القناصل والقى كارنو وزير الحرب في تلك الحفلة خطبة لم يكن أحد أجدر منه بالقاء مثلها في اطراء ذلك الجندي الخالد الذكر الذي تكرم فرنسا

رفاته . فكان الوطني الجمهوري العظيم يسهب في وصف العلوم الحربية والدهاء المقرون بالتواضع والفضائل العامة والخاصة الممتاز بها ذلك القائد الملكي الكبير. وكان كارنو نفسه متحلياً بتلك المزايا النبيلة وقد وقفها على خدمة وطنه . وأضاف كارنو الى اسمي ديزه وكليبر اسم لاتور دوفرنيه المشهور بشجاعته وعلمه ، وكان هذا الجندي الهمام قد اخترمه الحمام في ألمانيا فانقرضت بوفاته سلالة القائد الداهية الذي وفاه كارنو حقه من التأبين . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً احتشد فيه جميع الفرنسويين المفاخرين بذلك الاسم العظيم في ظل حكومة أسندت وزارة الحربية الى مثل كارنو والزعامة الى مثل بونابرت

وزاد افتتاح مجلس الشيوخ الدائم الانعقاد في سان سير فخامة الاحتفال بالعيد الثامن لافتتاح العصر الجمهوري

الا أنه مع ما كان يحف من الابهة بتلك الاعياد الوطنية ومع ما كان يبذله القنصل الاول من الجهد لئلا يدخل الخشية على الوطنيين المرتابين في نوع ما يخبئه من الافكار المبهمة ، وطريقة استيلائه على السلطة ، والحركات التي كان يجريها مما يدل على نفاد صبره لهدم صرح الانظمة الجمهورية هبّ بعض أشياع الحكومة الجديدة المغالين في تعزيز مبادئها وحرشوا بعض المتعصبين على الفتك بذلك الرجل الذي لم يكن في نظرهم سوى مختلس وطاغية . وكان من جملة اولئك الافراد ارينا النائب السابق وجيراخي النحات وطوبينو لبرون تلميذ داود المصور ودامرفيل . وقد شاءت الاقدار أن يستفيد رجل يقال له هارل من بغضائهم لبونابرت ، فجرهم الى تدبير مكيدة لاغتياله ثم أنه خانهم قالباً لهم ظهر المجن وكشف لادارة الشحنة مخبآت أسرارهم . فنجا القنصل الاول من شرهم ، ولم يشأ أن يتخلف عن الحضور في ملعب التمثيل ليشهد رواية فائقة العادة . وكان المتآمرون قد صمموا على الفتك به في خلال التمثيل

وكان حزب البوربون الشديد الاستمساك بغرز مبادئه قد أخفق في ما دبره بعد ما لمعت له بارقة أمل الاعتماد على بونابرت والتعويل عليه في ارجاع السلالة البوربونية الى عرش فرنسا . وحينئذ عمد الى تدبير مكيدة للبطش بالقنصل الاول . فاتحد الاجانب والمهاجرون ومريدو الملكية وتحالفوا على ادراك أوطارهم ، وقد كان من نتيجة اتحادهم وتحالفهم انفجار تلك الآلة الجهنمية .

وتحرير الخبر ان القنصل الاول كان منطلقاً في ٣ نيفوز الى ملعب التمثيل ومعه لان وبرتيه ولوريستن . فبينما هومار في شارع القديس نيكاز سمع انفجار برميل من البارود كان موضوعاً على مركبة . فلو كان بونابرت قد تأخر عشر دقائق عن المرور في ذلك المكان لكان قد هلك ولا محالة هو وجميع بطانته . إلا أن يمن طالعه دبر أن يكون حوذي مركبته سكران وأن يلهب الجوادين بحمة سوطه خلافاً لمألوف عادته ، فكان عمله هذا واقياً لذلك الرجل العظيم من غائلة الردى ، اذ أنه لو كان قد هلك ذلك الداهية لكان مصرعه قد غير ولا مراء وجه الاحوال في فرنسا خصوصاً وفي أوربا عموماً . ولما سمع القنصل الاول دوي ذلك الانفجار الهائل صاح بملء فيه قائلا : « لقد نسفنا » . فألح عليه لان و برتيه بالعودة الى التويلري ، فقال لهم بغير تردد : « لا . لا . بل نذهب الى الملعب »

ولما انتهى الى الملعب جلس على الكرسي المعد له في صدر الردهة وأبدى من السكينة ما أدهش جميع الحاضرين كأنه لم يحدث له شيء إلا أن مراجل القلق والاضطراب كانت تغلي في صدره وقد عالج كتمانها بكل ما يستطيعه من الجهد . و بعد ما قضى في الملعب هنيهة من الزمان أسرع في العودة الى التويلري حيث كان جمهور غفير من كبار القوم وأصحاب الكلمة المسموعة في ذلك العصر قد جاؤوا ليقفوا بذواتهم على ما جرى ويروا ما كان منتظراً حدوثه .

ولم يكد بونابرت يصل الى القصر حتى فار فائره وهاج هائجه وصاح بصوت كالرعد القاصف « أنظروا الى عمل اليعقوبيين ، فاليعقوبيون قد تعمدوا قتلي . فليس ثمت نبلاء ولا كهنة ولا متحزبون للملكية . . . وأنا أدري الطريق الواجب علي انتهاجه . فهؤلاء هم سفاحون وقتلة اتخذوا ديدنهم المجاهرة بمناوأة جميع الحكومات ، وهؤلاء هم صناع ومصورون وذوو تصور شديد الاحتدام ، وذوو تفوق في العلم على الشعب ونفوذ تام عليه ، وهؤلاء هم سفاحو فرسايل ولصوص ٣١ مايو ومؤتمرو براريال واصل جميع الجرائم المرتكبة ضد الحكومة فاذا لم يتيسر غل أيديهم وجب تعفية آثارهم ، والضرورة تقضي بتطهير فرنسا من هذه الحثالة المنبوذة . فهل يستحق الشفقة مثل هؤلاء السفاحين ؟ . . . »

وقد كررت على التقريب هذه الكلمات المقرون فيها الحنق الى الاتهام في

جواب وجهه القنصل الاول الى وفد أقليم السين . ومما يستوجب الاسف انها تلاها تعذيب المتهمين الذين أسلمهم هارل الى رجال الشحنة ونفي مئة وثلاثين وطنياً جعلتهم شدة وطنيتهم ومحافظتهم على مبادئهم منظوراً اليهم بعين الريبة وصيرتهم موضوعاً للظنة . وكان فوشه ناظر الشحنة يبتغي ان يبرر نفسه من تقصيره عن اكتشاف المكيدة واحباط مساعي أصحابها . فبالغ في التمثيل بالمتهمين ورافت القنصل الاول التدابير التي اقترح عليه اتخاذها . وكان فوشه يحرشه من عهد بعيد على الجمهوريين مسوداً صحيفتهم في عينيه . ودبرت أمور يصعب حل عقدتها لم يكونوا يقفون بموجبها عند حد اصدار الاحكام العرفية بحق جماعة من الابرياء بل تعمدوا سوق الخسيفة والصغارة اليهم بضمهم أسماء طالوت ودستريم ولبلتيه وسان فرجو وغيرهم من كرام القوم الى أسماء بعض الطغام المأجورين . وأطلقوا عليهم لقب « سبتمبرين » تحقيراً لهم ليسهل عليهم تشويه وجه صيتهم ومعاملتهم معاملة الجناة . وبعد شهر من الزمان استبان ان المكيدة كانت من تدبير الملكيين ، وثبت ان اثنين من الحزب الملكي يقال لهما كرون وسان ريجان كانا صاحبي المكيدة المذكورة فحكم عليهما بالاعدام وأجري ذلك الحكم بحقهما . ان معاقبة المجرمين الحقيقيين لم تلغ القرار الذي اتخذته الحكومة ساعة الحنق بحق الديموقراطيين الابرياء الذين أوشكوا في أثناء مرورهم بنانت ان يذهبوا فريسة لسخط الشعب

ولم يكن لمعاملة الحكومة للديموقراطيين على هذه الصورة من مماكسين لان الرأي العام كان ميالا الى بونابرت . فأبدى الاميرال طروغه بعض ملاحظات للدفاع عن ذمار الحزب المتصم هو باهداب مبادئه ، وشكا من الفساد المتطرق الى الروح العام من تلك المنشورات المزينة ارجاع الملكية والحكومة الوروثة . وكان في كلامه هذا تلميح الى النشرة المعنونة « مقابلة بين قيصر وكرمول وبونابرت » والمنتشرة بايعاز من وزير الداخلية والمراد بها سبر استعدادات لشعب الفرنسوي في مايتعلق بالفتنة التي كان بونابرت يفكر في اضرام مواقدها

الفصل الثالث عشر

انشاء محاكم استثنائية — الاشغال العامة — وثيقة لونافيل — تقدم العلوم والصناعة — عقد الصلح مع اسبانيا ونابولي وبارما — عقد وثيقة مع البابا (كونكردا) — صلح اميان — صلاة الشكر في نوتردام

لما كانت الكتابات المعدة لتهيئة الافكار لمباشرة تغيير جديد في شكل الحكومة قد نبذت نبذ النواة ولم تحل لدى القوم في المحل الذي تقتضيه منزلة القنصل الاول عندهم ، وكانت هيبة الافكار والانظمة الثورية قد سقطت ، بادروا الى التمويه على الناس بكتمان حقيقة أصلها وفصلها ، وألهمهم السداد ان يجنحوا الى فرصة أخرى وضع المقاصد التي كانوا يتوخونها موضع الاجراء . الا ان الآلة الجهنمية مهدت في وجههم السبيل لانشاء محاكم خاصة لها اختصاصات استثنائية ، فأصبحت المحاكم آلات سريعة الفعل للسلطة المطلقة التي كان القنصل الاول يزاولها مزاولة فعلية في فرنسا . وأثار هذا النظام الهائل المعارضة الشديدة من ربضتها في مجلس النواب على أيدي بنيامين كنستان ودونو وجنغه وشنيه واسنار وغيرهم . وارتفعت في مجلس الشيوخ أصوات لمبرخت ولنجوينه وغارات ولنوار لاروش باقامة النكير على ذلك الامر بيد أن أنصار الحرية العامة كانوا يؤلفون الاقلية فيه ، وما عتمت رغائب القنصل الاول أن أصبحت شريعة .

وكانوا في كل يوم ينظرون الى جانب تلك الحركة الرجعية أعمالا صادرة عن الداهية المكتوب له أن يبلغ بمجد فرنسا وسطوتها الى أعلى ذراها . فأنشئت الطرق واحتفرت الترع في كل ناحية ، وأزهرت الفنون الجميلة ، وعضدت الاكتشافات العلمية ، وفتحت للتجارة والصناعة أبواب كانت مجهولة حتى ذلك العهد .

وفي ١٧ يناير سنة ١٨٠١ صدر الامر باعادة الشركة الافريقية ، فكان القنصل الاول يتنقل بالفكر من جبال الاطلس الى جبال الالب مهتما بشؤون الحضارة

عند الشعوب البربرية اهتمامه بها عند الشعوب العريقة في المدنية والعمران ، وفي اليوم عينه أصدر أمراً الى الجنرال طرو بأن يرأس الحفلة المقامة لافتتاح طريق سمبلون الجميلة .

وفي ٩ فبراير تم التوقيع على وثيقة الصلح في لونافيل بين فرنسا والدول الاوربية ، فاغتنم بونابرت الفرصة باتهام الوزارة البريطانية بأنها حجر عثرة في سبيل السلام العام . وقد قال في رسالته الموجهة الى الهيئة الاشتراعية والى مجلس النواب . « لماذا لا تكون هـذه الوثيقة وثيقة للسلام العام ، فهذه هي الأمنية التي تحلم بها فرنسا وهي الغاية الوحيدة التي ترمي اليها الحـكومة ، الا أن جميع ما بذلته من المجهود لادراك هـذه الضالة المنشودة ذهب على غير طائل ، ولا يخفى على أوربا شيء مما عالجت الوزارة البريطانيـة اتيانه لاحباط مفاوضات لونافيل » ولمـا أجاب فيما بعد على التهانيء التي رفعها اليـه مجلس الاشتراع نم بما يكنه ضميره من المقاصد الـكبيرة لاقامة الحصار العظيم حول الديار البريطانية فقال : « ان دول القارة مقتنعات باجبار بريطانيا على المسير في طريق الاعتدال والنزاهة والتعقل »

وسر القنصل الاول بعودة السلام الداخلي الذي تقدم السلام الخارجي ، وباح بابتهاجه مما شاهده من الاتحاد والاتفاق في الاقاليم التي تفقد شؤونها ، فقال : « وعليه لا ينبغي أن تعلق أدنى أهميـة على الخطب الخالية من المعنى التي يخطبها بعض الناس » وكان يلمح في قوله هـذا الى الخطب التي خطبت بكل جرأة في مجلس النواب عند انشاء المحـاكم الاستثنائية . ومن ذلك الحين صار هذا المجلس معتبراً الملجأ الوحيد للروح الجمهوري ، فقضت الضرورة بضربه ضربة قاضية وذلك بابعاد أعضائه في بدء الامر ثم بالغائه الغـاء نهائياً . وتلا وثيقة لونافيل المنعقدة مع حكومة النمسا وثائق أخرى أبرمت أسبابها بين فرنسا ونابولي ومدريد وبارما . وفي خلال ذلك الحين أنشأ بونابرت أقاليم روار ولاسار والرين وموزل ومون طونير . ولما كانت الحال تقضي بأن يسير توسيع الجمهورية وتسـكين الفتن فيهـا مع عمرانها المـادي جنباً الى جنب ، وضعت شريعة تخول القنصـل الاول تخصيص جوائز للتجارة . فأمر بأن

يقام في كل سنة من ١٧ سبتمبر الى ٢٢ منه معرض عام لنتاج الصناعة الفرنسوية .

ولما سقط عنه النظر في أمر دول القارة ووفق الى عزل بريطانيا ولو في الظاهر بحسب الطريقة الجديدة التي رسمتها الثورة الظافرة للسياسة الاوربية ، بنى قصوراً شاهقة من الآمال على أساس الصداقة الشخصية التي كانت أسبابها تربطه بالقيصر بولس الاول ، الا أن مصرع هذا العاهل في الليل الذي بين ٢٣ مارس و ٢٤ منه هدم جميع تلك الآمال . ولما انتهى اليه النبأ حزن حزناً شديداً وكتب في المونيتور ما يأتي .

« في الليل الذي بين ٢٣ مارس و ٢٤ منه قضى بولس الاول ، وفي ٣٠ منه اجتاز الاسطول البريطاني مضيق السند ، وسيرينا التاريخ ما بين هذين الحادثين من العلاقات »

وهذه المرة الثانية التي شاهد فيها بونابرت الحوادث تهدم ما بناه من المقاصد الكبيرة للقضاء على الدولة البريطانية في الهند

ولم يكن القنصل الاول يكتفي بالانتصار على اوربا ، وتسكين متحركات الفتن في فرنسا ، واحياء موات التجارة والصناعة ، والعمل لتقدم الفنون والعلوم ، بل كان يشعر وهو يعمل هذه الاعمال المجيدة الجسيمة والانشاآت المفيدة العظيمة بان خطة تنظيماته لا تزال ناقصة وأنه يعوزها شيء وهو افراز محل خاص للدين اجل أنه لم يكن حتى ذلك الحين قد فعل شيئاً يدل على جهله له او احتقاره اياه ولكنه لم يكن قد نظم شيئاً لاجله لا في الوثائق ولا في الشرائع . على أنه اذا كان رجال الدين قد نالوا قسطهم من عوارف القنصل الاول فان موقفهم الجديد مع كونه محفوفاً بالكرامة بفضل بونابرت لم يكن مبنيا على قاعدة ثابتة . فشاء القنصل الاول ان يجعله راسخاً على أركان شرعية ، فباشر المفاوضات في هذا الشأن مع رومية ، وعقد مع البابا بيوس السابع وثيقة عرفت باسم الكونكردا . وكان الفلاسفة خلطاؤه قد راقتهم فتنة برومير لتوطيد دعائم حظهم الفجائي فرفعوا عقائرهم متذمرين من ذلك الارتجاع الديني ، وكانوا يتمنون من صميم الفؤاد أن يعلن بونابرت ذاته زعيما للدين الفرنسوي وأن يقطع العلاقات قطعاً تاماً مع الكرسي الرسولي . الا أن القنصل الاول



الاميرال برويكس قائد اسطول حملة مصر

ولد فى سنة ١٥٧٩ وتوفى فى سنة ١٨٠٥



كان ينظر بغير المقلة التي كانوا ينظرون بها الى مقتضيات الدين عند الاكثرية ، وكان يخشى أن يجرح عواطف السواد الاعظم من الامة بتلك القضية الدقيقة

وفي أثناء الثورة وفي عهد الحكومة المبنية على الفلسفة والمناوأة للجبل وللديركتوار شعر بعض الناس بالفراغ الذي تركه زوال الدين في البلاد ، مع أنهم كانوا يعالجون أن يجعلوا القوم يستعيضون عنه بطرق متنوعة كاقامتهم الاعياد للكائن الاسمى ، والاعتقاد بالله دون الاضطرار الى مزاولة شعائر الدين .وكان روبسبيار يقول . « ان من يستطيع استبدال الالوهية بغيرها في العالم أعده آية في الدهاء ، وأما الذي يسعى لنسخها من أفكار الناس من دون أن يستبدل بها شيئاً آخر فاني أعتبره آية في البلاهة وفساد الاخلاق »

وبعد بضع سنوات نهض رجل من أصحاب الادمغة المفكرة وذوي العقول السامية وهو ديميستر وجعل وهو في المنفى يندب تراخي الاربطة الاجتماعية ووهن المبادىء الادبية وتقلقل السلطات غير المبنية على قواعد ثابتة ، وعزا الاضطراب العام الى فقدان الدين وجعل ينادي بأنه في مثل هذا المشهد المؤلم لا يجدر بكل فيلسوف حقيقي أن يتخير مذهباً من هذين المذهبين :

« اما أن يجدد شباب الدين المسيحي على وجه غير عادي واما أن ينشأ دين جديد »

ولا بد من القول بان بونابرت مع ما كان موصوفا به من الدهاء لم ير الخيار بين امرين : البادي بطريقة معجلة والمبسوط من المفكر المسيحي لكل فيلسوف حقيقي . وكان يقوم في وجدانه ان المعتقدات الدينية المختلفة عند الشعوب لم تكن سوى وساوس قدسها الزمان وتصورات خامرت عقول البشر في بدء امرهم ، وقد ناصبها العقل عداء مستمرا لوقوفها حجر عثرة في طريقه ، ولكنها عند دنوها من زمان الهرم اصبحت تداري صاحب الامر والنهي الاكبر. وكان يقول عن الدين المسيحي مع اطلاقه عليه اسم الدين الحقيقي بان « التعليم والتاريخ عدوان لدودان له »

وكان هذا الكلام بمثابة حكم على الجبار الالهي الذي ظل مدة خمسة عشر

قرنا مستودعا للعلم ومعاداً للعقل البشري ليس بصورة تأثيره على التمدن في عهد عظمته فقط بل بصورة مناظرته للعلم والعقل في عهد انحطاطه . فان بونابرت بجمله التعليم والتاريخ يعارضان الدين المسيحي على هذه الصورة من غير ماتمييز بين الزمان والمكان ذهل عن العلاقة الشديدة الاحكام بين الدين والعلم وبين الدين والسياسة عند نشأة الهيئات الاجتماعية الحديثة في الصراع الناشيء بين المعتقدات المسيحية والاخلاق الدالة على المروءة والتقاليد الداعية الى النفور في العالم الوثني والوساوس المستهجنة المنتشرة بين الشعوب المتسكعة في ظلمات الوثنية . وقد اشتهر في تلك العصور بولس واكليمنضوس وأوغسطينوس وايرونيموس وبرنردس وهيلدبرندس وشارلمان والفرد وأمثالهم

وكأن دهاء بونابرت مني بالجمود وقتياً على مثال ماكان يجري في غالب الاحيان لهوميروس حتى أنه جاهر بوجود تنافر دائم بين معتقدات الدين المسيحي والمذاهب الفلسفية ولم يكتف بانكاره مناصرة رجال الدين في ماضي الحين لاتساع دوائر الشؤون العقلية وكمال الهيئات الاجتماعية السياسي بل تطرق الى انكار قابلية العقل البشري لادراك الكمال في الامور الدينية . وهذا ماكان يعبر عنه بهذه الصورة المبتذلة حينما كان يقول « من المقضي على كل انسان أن يظل على الدين الذي تربى فيه أي دين أبائه ، وألا ينشيء ديناً جديداً »

واذاكان بونابرت قداعتقدبما يكون للدين من التأثير الاجتماعي في المستقبل فمن الممكن أن يكون قد افتكر بأن هـذا الدين لايمكنه أن يكون بعد ثلاثة قرون انقضت بالمجادلات والشكوك الفلسفية بعدباكون وديكارت وفلتير وروسو على ماكان عليه في القرون المتوسطة وكان يتسنى له أن يضيف الى مهمته كفاتح ومشترع وثوري سياسي مهمة المصلح الديني ، وقد أدرك ضرورة الاختيار الذي كان دي مستر يقترح اخضاع الفلاسفة له ، وكان بتحريكه عوامل دهائه في الشؤون الدينية قد ساعد على تجديد شباب الدين المسيحي ودعا الناس الى مباشرة ذلك التجديد ، أو انشاء معتقد جديد بحسب مايتقرر بخصوص مذهب من هذين المذهبين كجريه على المنهاج الذي انتهجه لامنه فيما بعد أوكسيره على السبيل التي عالج المسير عليها أصحاب بدع جديدة استوجبت جرأتهم اطراء كبار الشعراء في فرنسا كبرانجه ولامارتين وغيرهما . الاأن بونابرت المعتقد بالله واحد

والحاصر دينه باعتقاد مجرد لم يكن يرى كفيلسوف في الديانات الوضعية سوى أعداء دائمين يعارضون العقل والعلم ، وكسياسي سوى وسائل مؤثرة بالشعب أو موانع معترضة للسلطة بحسب نوع علاقتها بالحكومة . ولما كان بونابرت يرى أ كثرية الشعب الفرنسوي متعلقة بالمذهب الكاثوليكي ويناجي نفسه بأن هذا التعلق ناجم عن المبدإ المعتصم هو به وهو أن كل انسان ينبغي له أن يعيش ويموت على دين آبائه لم يلق مندوحة عن الاتفاق مع الكرسي الرسولي على تنظيم مصالح المذهب الكاثوليكي ، وأبدى رغبته في اعادة ماضي بهاء الكنيسة وخدامها ، ورضي بتخبئة آرائه الشخصية وعدم اكتراثه للدين وجحوده تحت ظواهر دين رسمي فلم يبال بتهكم حاشيته وكان جميع أفرادها من تلامذة فلتير ، وأمر باقامة صلاة الشكر في نوتردام لما عقدت الوثيقة مع البابا وأبرمت أسباب الصلح مع بريطانيا في اميان . وقد شهد هذه الحفلة الدينية جميع مشاهير الرجال في ذلك العهد . ولما عرف لان واوجرو وهما في حاشية القناصل أنهم ذاهبون بهما الى الكنيسة لاقامة الصلاة همّا بالرجوع ، الا أن بونابرت أمرهما بالبقاء . وفي الغد أراد أن يمزح مع اوجرو فسأله بسوء نية عن رأيه في الحفلة الآنفة الذكر فأجابه هذا الجندي الجريء الذي اشتهر في اركول ولودي ببلائه بالاعداء « وجدتها بالغة غاية التأنق ، ولم يكن ينقصها سوى مليون من البشر بذلوا مهجهم لهدم ما نحن الآن عاملون على ترميمه . »

وكان في ذلك الجواب المرمبالغة شديدة ، فان المليون من البشر لم يسفكوا دماءهم لملاشاة الدين بل للحيلولة دون عودة خدام الدين الى الاعتساف والجنوح عن الطريقة المثلى واعادة العشور واعفاء رجال الدين من الضرائب وغير ذلك من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ولم ترجع الوثيقة المنعقدة بين الحكومة الفرنسوية والكرسي الرسولي شيئا من هذه الأشياء . أجل ان الناس كانوا يتوهمون أن الفتنة الكبرى يراد بها نسخ الدين المسيحي ليستبدل به الدين العقلي ، فهذا ما كان يجب أن تزال آثاره من الاذهان . ولم يكن الغرض من الثورة الاقتصار على تقليص ظل الجور والاستبداد ، وضمانة ظفر حزب بحزب آخر ، وتحرير الارقاء لاستعباد الموالي ، وايجاد أسباب للفلسفة تناوىء التساهل الديني وتثير الشكوك في العالم من جراء تمادي القوم في الخلاعات والمنكرات

التي لا نهاية ولا حد لها ، بل كان المراد بها أن يبين للملأ طراً ان الغرض منها كان خدمة الهيئة الاجتماعية جمعاء وأن النظام الجديد الذي سنته كان من شأنه أن يقي كل فرد من أفراد الامة من غير تمييز بين طبقاتهم وآرائهم ومعتقداتهم، وأن ألويتها كانت منشورة فوق التقاليد الجديدة باحترام الشعب لها ، ومظللة جميع المصالح المادية والادبية التي لا تناقض مبادئها . على ان ما أظهرته من العنف والشدة نحو خدام الدين حين شاءت حرمانهم قسما كبيراً من الامتيازات الاجتماعية التي كانوا قد أصابوها من أصحاب طرائق الحكم القديمة أو أن تعمد بحكم الضرورة الى ترويض جماحهم كان يقضي عليها في الاونة الاخيرة بأن تبرهن بأنها لم تأت ما أتته من العنف إلا لنسخ الامتيازات الفاضحة التي كان خدام الدين قد نالوها ، اذ أنه ولو كانت تلك المعاملة العنيفة قد قضت باقفال المعابد وافراط رسل العقل وتحويل الهيا كل الى منتديات في أثناء بقاء الثورة ناشرة أعلامها فلم يكن لهذه الثورة الظافرة بد عند عودة السلام والوئام من المجاهرة بأن مجاهدتها للدين وخدامه لم تكن سوى عرضية وضرورية ، وانه لم يكن من تنافر بينها وبين ديانة معظم الامة ، وانها لم تكن معتصمة بأواخي الكفر كما كانوا يتهمونها بل كانت بقطع النظر عن ميلها الى التساهل ميالة الى مزاولة الاعتقادات التي مضى على وجودها عهد طويل ، يستبدل بها اعتقادات حديدة عند الشعب المحتاج الى غير المذهب الفلسفي ومذهب الاعتقاد بمناجاة الله والارواح في الشؤون الدينية . هذه هي الغاية المهمة الضرورية التي رمت اليها الثورة بمعاطاتها المفاوضات مع رومية ونشرها الوثيقة المعروفة باسم الكونكردا وبذهابها الى الكنيسة لحضور القداس باحتفال عظيم قام به أعظم فرد من أبنائها وأشهر ترجمان عن عواطفها . واذا كان الحزب المعاكس للثورة قد كبر للفوز الوهمي الذي أصابه فانه قد ركب مركب الخطأ . وحين وجد هنري الرابع أن مدينة باريس تساوي « قداساً » ورضي بأن يعترف جهاراً بالمذهب الكاثوليكي لم يكن عمله هذا المراد به تجريد خصومه من السلاح الذي كان في أيديهم لمناصبته سوى مبدد لحزب التحالف .

وقال نابوليون في مذكراته : « كانت وثيقة (كونكردا) سنة ١٨٠١ ضرورية للدين والجمهورية والحكومة . . . فقد محت الاضطراب ونسخت

وساوس جميع المستولين على أموال الامة وقطعت آخر سلك ترتبط به السلالة القديمة بالبلاد . . . »

وحدث انه قال في مؤتمر تقدم هذا العمل « لو لم يكن البابا موجوداً لوجب ايجاده لمثل هذه الحال على مثال ما كان الرومانيون يوجدون حاكماً مطلقاً في الظروف الحرجة »

ولما سالم بونابرت البابوية أراد أن يثبت انه يتوخى دوام هـذه المسالمة بانشائه ممالك جديدة في البلاد الايطالية التي كان قد نوى أن يكثر من انشـاء الجمهوريات فيها . فجعل تسكانيا مملكة صـغيرة وانتخب لادارة شؤونها غلاماً بارمياً كانوا قد انتزعوا منه بلاده وضموها الى لمبرديا . وزار هذا الامير الحامل لقب « ملك اترووريا » عاصمة البلاد الفرنسوية متنكراً تحت اسم كونت ليفورني ، فاقيمت له احتفالات شائقة أعيد اليها بهاء الارستوقراطية السـابق ، الا ان الاحتفاء العظيم الذي استقبلوا به هذا الملك لم يكن ليموه على القوم خموله . ولما أبدى بعضهم لبونابرت دهشهم من ترفيع هـذا الرجل الحقير الى ذلك المقام السامي أجابهم : « ان السياسة اقتضت هـذا الامر ، وفضلا عن ذلك ليس بضائر أن ترى الشبيبة التي لم تر بعينها الملوك من هم الملوك »

أو لا يستنتج من قوله هذا ومن المقاصد المخبأة وراءه لترميم صرح الملكية المتداعي أنه كان يرمي دائما في جميع أفكاره وأقواله الى غاية ثورية ؟ واذا كانت الجمعية الاشـتراعية والكنفنسيون قد ضربا الملكية بشخص الملك ، فقد كان هو منتدباً لاستئناف عملهما وازالة الابهة الواقية الملكية بصنعه ملوكا على مثال ملك اترووريا . . .

واذا كان القنصل الاول قد خبأ وراء الاحتفاء الشديد بضيفه الملك احتقاراً كان يشعر به نحو ذلك الرجل الذي ملكه على اترووريا ، فانه من جهة أخرى قلل الاحتفاء والرسميات ، وبالغ في الاهتمام الحقيـقي باستقباله ضيفاً جاءه زائراً من ضفاف التاميز ، ولم يكن هذا الضيف شخصاً ملـكياً لا يعبأ به خبأ وراء ستار مقامه وبهرجة البلاط سخافة عقله وحقارة نفسه بل كان رجلا من أصحاب الادمغة الكبيرة والنفوس النبيلة والهمم العالية ، حتى قال عنه نابوليون نفسه

« ان قلبه يضرم نار دهائه ، واما بت فان دهاءه يجفف قلبه » وكان ذلك الرجل يقال له فكس

وبذل بونابرت لذلك الداهية كثيراً من الود والاحترام ، وقد قال في مذكراته « كان يدفعني في غالب الاحيان الى استقباله ما كان قد بلغني عن سمو مداركه ، وما عتمت أن وجدت فيه نفساً كريمة وقلباً جيداً ونظراً بعيداً ينبيء عن نبالة أخلاقه وحرية أفكاره ، وقصارى الكلام وجدته رجلا تزدان بمثله الانسانية . فاحببته وكنا نتحدث كثيراً نابذين الاوهام وراء ظهورنا ، ونخوض في مجال موضوعات عديدة فيحسن برجال الحكومات أن يتخذوا فكس مثالا ينسجون على منواله ولسوف تسود مبادؤه العالم عاجلا أو آجلا . »

وشاطر جميع الفرنسويين القنصل الاول الميل الى فكس فاستقبلوه في جميع المدن التي مر بها استقبالا يليق بالظافر ، وأقاموا الاحتفالات اكراماً له واحتفوا به كل الاحتفاء في جميع الاماكن التي عرفوه فيها

على ان مجالي الاحترام التي أبدتها الثورة الفرنسوية لفكس أبديت عينها في بريطانيا بعد سبع وثلاثين سنة من ذلك العهد لجندي من بقايا جنود نابوليون فان مبادىء فكس وما كنتش التي لقيت صداها في فرنسا سنة ١٨٠١ لقيت رجع ذلك الصدى في بريطانيا في سنة ١٨٣٨

الفصل الرابع عشر

من مخالفة اميان (٢٥ مارس سنة ١٨٠٢) حتى انقطاع علاقات فرنسا مع بريطانيا (٢٢ مايو سنة ١٨٠٣)

ان الفراغ الذي تركته الثورة الفرنسوية الكبرى في الطريقة الاوربية القديمة لم تسد ثلمته ، بل كان بعكس ذلك يزداد امتداداً في الانحاء الشمالية والجهات الشرقية بواسطة الفتوح الفرنسوية في المانيا وايطاليا ، وقد ضاعف اقلاق خواطر الحكومات الاجنبية . الآن نفادالموارد المالية ، وملل الشعوب ، والاضطرار الى ضم متفرق النشر في تلك النكبات الناجمة عن المعارك العديدة التي رفرف فوقهم فيها غراب البلاء ، والمسببة عن الخوف من خطوب جديدة ، والمتسلسلة عن الوساوس المثيرة الاعتقاد بتفوق الجمهورية وزعيمها ، دعت أوربا المسيحية والنبلاء الى الخضوع لسطوة فرنسا المنبثقة من تلك الفتنة الكبرى . ومن ذلك الحين أصبح الشعب الحر الذي جاهدته مدة طويلة الامم المستعبدة ، واعتبرته كافراً ، وعدته قاتلا للملوك ، مسالماً للباباوية والملكية من دون أن يفقد شيئاً من مبادئه أوأعماله نحو البابا أو نحو الملوك

ما كان أسمى الموقف الذي أصابته الجمهورية الفرنسوية ! فانها بعد ما تحملت بكل بسالة فيمدة عشر سنوات أعباء حرب طويلة الاجل متلفة للمهج والارواح سعياً وراء التملص من ربقة استبداد ذوي الامتيازات بلغت أوج العظمة والسؤدد بتمتعها بحسنات المساواة ، واستطاعت أن تبهر أنظار العالم بغرائب السلم كما استطاعت أن تبهرها بعجائب الحرب . واذا كانت جيوشها تتألف من أشجع الجنود وأمهرالقواد في ذلك العصر فان خطط ادارتها الاخرى كان يتقلدها أدهى الرجال الخبيرين بادارة الشؤون . وكان في دوائرها السياسية نخبة الخطباء والكتاب ، وكانت ندوتها العلمية تفضل جميع الندوات التي من هذا النوع ، وكان علماؤها يتولون الزعامة في الاكتشافات التي باشروها ، وكان لعلماء الادب والشعراء والمصورين والنحاتين فيها المقام الاول بين رصفائهم في جميع أنحاء المعمورة ، وراجت سوق تجارتها وصناعتها . وانفتحت الطرق

في وجهها في مدة قصيرة وبنيت الجسورة واحتفرت الترع العديدة ، وبسط في أروقة الوفر نتائج التجارة والزراعة الناشئتين في فرنسا الحديثة ، وكسف بهاؤها بدر أبهة الملكية القديمة ، وتمكنت الناشئة من الظهور بمظهر جليل يليق بذلك العصر بدخولها المدارس المشيدة لكل صنف من أصناف الامة وكل فرع من فروع التعليم بأموال الشعب ، وطفحت متاحفها ومكاتبها بما كانت تغنمه في غزواتها وبعثاتها وانتصاراتها ، وكان من جملة ما جاءت به الى باريس زهرة مديسيس وبالاس فليتري . على أن اسمها الذي كان يدخل الخوف على الملوك أصبح عند الشعوب مكرماً ومعجباً به . وعليه يمكن القول أن الجمهورية أصبحت في ذلك العهد حاصلة على مجد حربي ومجد سياسي ومجد أدبي ومجد علمي ، وعززت شأن العمران بواسطة السلاح والعلم والفنون والصناعة ، وظفرت بالسكينة التامة في الداخل والسلام العام في الخارج ، وكل ذلك نالته على يد بونابرت زعيمها . هذه كانت حالة الجمهورية الفرنسوية بعد صلح اميان.

ولم يكن ينقص عظمة فرنسا وعمرانها شيء من الأشياء ، الا ان حالة الاقبال هذه التي كانت تثير في فؤاد أوربا كلها عاطفة الحسد لفرنسا كانت تلقي في نفوس الدستوريين أسبابا للتقلب لا تستطاع ملافاتها . وكان الجميع يعتقدون بأن النصر الذي أوتيته الجمهورية والسلام الذي نالته والسطوة التي أصابتها والعظمة التي أدركتها كان الفضل في القسم الاكبر منها عائداً الى الداهية الذي ساقته العناية الالهية للأخذ بنصر الثورة ، وكان الجميع أيضاً يعتقدون ان دوام تينك السطوة والعظمة مرتبط بدهاء ذلك الرجل الذي كان سبباً لوجودها . فهل كان يحسن والحالة هذه ان يبعد ذلك الداهية عن ادارة حكومة البلاد وتسلب منه المهمة الالهية المفوضة اليه ، وذلك بقيام بعض أصحاب الدسائس المتسترين وراء الدستور ؟ وهل يعقل أيضاً بأن يفترض أن ذلك الذي برز على سواه بخدمه الصادقة الجليلة ومجده الأثيل وذكائه الرائع وارادته القوية وبجميع الصفات الممتاز بها رجال الحرب ورجال الحكومة يضطر الى شغل المحل الثاني بداعي النظام أو القانون ؟ وقد توهم مجلس الشيوخ انه فعل ما يجب عليه أن يفعله حين سمى بونابرت قنصلا لمدة عشر سنوات اجابة لرغبة مجلس الامة الذي كان يشاء أن يكافىء بونابرت مكافأة باهرة عن الخدم التي أداها للبلاد . الا ان

تمديد أجل ولاية بونابرت على هذه الصورة لم يكن ينسخ من الاذهان ان مدة ولايته وقتية ، وكان يرجىء محاذير ومخاطر لم يكن بد من تجنبها ودفعها . فان رجلا كبونابرت في الموقف الذي أوصل فرنسا اليه وفي الموقف الذي أوصلته هي اليه كان مقضياً عليه بعد عشر سنوات أو بعد خمس سنوات أن يصبح فرداً من أفراد الناس أو أن يصير مرؤوساً بعد ما كان رئيساً . ولم يكن يحول دون تربعه في دست الزعامة في فرنسا الا انفصاله عنها اما بالنفي واما بالموت . وقد أدرك هو وفرنسا هذا الامر لانه لما لم يرقه تقرير مجلس الشيوخ القاضي بجعله قنصلا مدة عشر سنوات عمد الى مخاطبة الامة جمعاء ملقياً عليها هذا السؤال . « هل تريدون أن يبقى بونابرت قنصلا مدى الحياة ؟ » فبادر جميع الفرنسويين خاصة القوم وعامتهم الى الاقتراع ، وكان عدد المجاوبين بلفظة « نعم » ينيف عن ثلاثة ملايين

الا ان مجلس الشيوخ الذي شاء أن ينسى بقدر الامكان تحفظه الذي كان في غير حينه بادر الى ممالأة الامة على رغبتها باضافته الى ذلك الامر امتيازاً جديداً منحه القنصل الاول أي انه خوله اختيار خلفه . واليكم الجواب الذي وجهه بونابرت الى وفد المجلس .

« يا حضرة أعضاء مجلس الشيوخ ،

« ان الانسان مدين بالحياة الوطنية ، ولما كان الشعب الفرنسوي يريد أن تكون حياتي مخصصة له . . . فاني أمتثل لارادته . . . وانه باعطائه اياي برهاناً جديداً ثابتاً عن ثقته بي يقضي علي بأن أؤيد طريقة شرائعه وأنظمته التي يرمي بها الى ضمان المستقبل . فالعناية التي بذلها والمساعدة التي تمدونني بها ، وممالأة جميع أصحاب السلطة لي وما يبديه لي هذا الشعب العظيم من الثقة وحسن الارادة تجعل الحرية والمساواة والسراء في فرنسا آمنة من أهواء الحظ وتقلبات المستقبل فيصبح أفضل شعب أسعد شعب في المعمورة كما يستحق أن يكون ، ويكون من وراء سعادته سعادة أوربا طراً

« وبينا يسرني أن ينتدبني المجلس الصادر عنه كل شيء الى اعادة العدالة والنظام والمساواة الى الارض ، سأرى غير متأسف ولا قلق زوال آخر رأي من آراء الاجيال الآتية »

على ان آراء الاجيال المعاصرة كانت له ضامناً ثابتاً ومقدمة للتعظيم الذي تدخره له الاجيال الآتية ، ومع ذلك كان ميل الشعب الذي ضمن له التمتع مدى حياته بالسلطة العليا قد لقي بعض المعارضات الافرادية التي كشفت ما كان ثمت من الاخلاق النبيلة من دون أن تقلل تعميم الاقتراع الوطني وضرورته . ولم يكن مستطاعاً وقوع خلاف هذا الامر ، فان القنصلية مدى الحياة كانت تربط حظ الجمهورية بحظ رجل واحد ، وتنشيء نوعاً من الملكية مدى الحياة يضع الجمهورية على حدود الملكية الارثية فكيف زالت بغتة الاوهام الراسخة في الاذهان والمحاذير التقليدية والاعتقادات الثابتة التي خالجت عقول المعتصمين باهداب الحرية وتأصلت فيها منذ سنة ١٧٨٩ وخلفها استحسان عام لكل ما كان مستهجناً في أنظار القوم . وصاروا يتوهمون في ذلك الحين ان فرنسا لم تفعل بالقائها الى بونابرت عقاليد السلطة السامية ذلك الامر منقادة الى دواعي الاحوال ، وانها بدلاً من أن تتصرف وقتياً تصرفاً مبنياً على التعقل والضرورة بتسليمها أعنة الاحكام لحاكم مطلق ، كانت تتصرف تصرفاً تدعوها اليه مبادؤها ، وتوطد أركان الدستور توطيداً ثابتاً ، وتهمل في سبيل خدمة زعمائها العمل بمبادىء التؤدة والتروي التي ناضلت عنها وصانتها من مواليها الاقدمين . الا ان الثورة بتعظيمها بونابرت واعتبارها اياه ممثلاً أميناً لمصالحها الحاضرة ومقتضياتها الجديدة لم تكن تنكر نفسها باشخاص ممثليها الاقدمين بل كانت بعكس ذلك تدفع بعض المتقدمين في المجالس الوطنية الى السعي وراء تحقيق أعمالهم الخطيرة ومعاكسة أهواء الشعب الزائلة في سبيل خدمة حقوقهم الثابتة ولا بد من القول بأن القنصلية لم تنفرد بانقاذ الثورة من خصومها وتعزيز شأنها ، فقد نهض باعباء هذه المهمة قبل القنصلية الجمعية الوطنية وحكومة الكنفنسيون . فانهما لقيا أنصاراً يقيمون النكير باسمهما على ميل الافكار الى السلطة المطلقة ، ويحولون دون نسيان القوم للمبادىء الحرة التي انتشرت في سنة ١٧٨٩ وكانت مبالغة الشعب الفرنسوي في تعزيزها سبباً لخلاص البلاد في سنة ١٧٩٣ فانبعثت الجمعية الوطنية الدستورية في شخص لافاييت وتجسمت فيه ، ولم ترض الا باقتراع مبني على أسباب قانونية في مسألة انشاء القنصلية مدى الحياة . وأما الكنفنسيون فانه استعار لسان كارنو المشهور وكان اقتراعه فيه سلبياً

وكان القنصل الأول متوقعاً معارضة لافاييت لأنه لم يتمكن في أثناء مفاوضته له بعد عودته الى فرنسا من اقناعه بقبول عضوية مجلس الشيوخ . ولو كان بونابرت يعرف لافاييت حق المعرفة لكفى نفسه مؤونة معالجة استمالته الى انتحال مذهبه السياسي الجديد . بيد ان لافاييت لم يكن باقياً على ما كان عليه في سنة ١٧٨٩ ، بل كان يهمه كثيراً ان يعلم الملأ طراً في فرنسا وأوربا وأميركا انه لايزال على ما كان عليه . وكان يملأ ذهنه ذكر الدور المهم الذي مثله الى جانب واشنطون والى جانب ميرابو ، وظهر بمظهر رجل سياسي يعد من الطبقة الأولى ، وكان يحاذر كل المحاذرة ان يدع أدنى وصمة تلطخ بردة موقفه ، ولم يكن يرضى بوجه من الوجوه ان يخضع لاي كان . وقد حملته الدعوى على تمثيل عصر من العصور . والتعبير عن فكر من الأفكار ، والوقوف كراية حية لوطنيي سنة ١٧٨٩ . وحين كانت عينا ذلك الرجل تنفتحان لرؤية حقيقة ذاته ، وعلى جبينه تلمع بوارق المجد الذي أحرزه في يوم « لعب الكرة » ويوم « البستيل » ، وحين كان يقابل ذلك الأمر على معرفة الجميل الوطنية التي عت الأمة بأسرارها له في أيام الجمعية الوطنية الجميلة ، وحين كان يعتبر بحق مركزاً تاريخياً أحرزه بلا تردد ذلك المركز الذي كان يشغله في صدر الصورة المرسومة فيها أعظم المشاهد الدالة على انتصار المساواة على الامتيازات ، لم يكن ذلك الرجل يرضى بأن ينحدر عن المنصة التي نصبها له ظافرو ١٤ يوليو ، ويتغلغل متوارياً بين جماعة الخدام المطيفين بظافر ١٨ برومير أجل ان منظم الكون الاسمى الذي لاتدرك مقاصده كان يرى ١٨ برومير و ١٤ يوليو يومين يرتبط الواحد منهما بالآخر كل الارتباط ، ويرمي بهما الى غاية وحيدة وهي تعزيز المصلحة العامة واعلاء منار الوطن الا ان هذه العلاقة المتينة المحجوبة وراء استار طريقة العناية الثورية المبدإ كانت تنشيء بين الأدوات المختلفة التي كانت العناية تستخدمها مرة بعد أخرى بحسب مجرى الاحوال لبلوغ غاية واحدة ، جميع أسباب التنافر والكراهة الشخصيين الممكن حدوثهما على اختلاف المقامات والطبائع والمدارك . وعليه لم يكن وطني التحالف الأول الغيور على ثباته يستطيع قط الاتفاق مع الحاكم المطلق في سنة ١٨٠٢ ، ومن جراء ذلك نبذ لافاييت عضوية مجلس الشيوخ وآثر الانزواء بشرف في منزله

بلاغرانج على قضاء حياته خاملا بين حاشية التويلري

وأنشىء نشان جوقة الشرف في أثناء المدة التي انقضت بين اصدار المجلس الوطني قراره باسناد القنصلية الى بونابرت مدة عشر سنوات واقتراع الشعب على اسناد القنلصية اليه مدى الحياة

وقال بونابرت لمريديه ومعبري أفكاره لدى المجلس الاشتراعي : « ان هذا النشان سينسخ امتيازات النبلاء التي كانت تقدم المجد التليد على المجد الطريف وأبناء الرجال العظام على الرجال العظام »

وكان هذا الفعل الذي أتاه بونابرت دليلا على انصرافه الى تعزيز مبادىء الفلسفة الحديثة ، وتوطيد دعائم المساواة الحقيقية على أساس مكافأة المرء على قدر أهليته واستحقاقه . الا ان بونابرت عمد الى انشاء هذا الامر الخطير بين شعب لايزال فيه بعض نفر من أشياع أصحاب الامتيازات الشخصية قذى في أعينهم ، وبعض الطامعين بانشاء المساواة الحقيقية الذين كانوا يعتبرون عمل بونابرت هـذا تجديدا لنهضة الارستقراطية القديمة أو انشاء أرستقراطية جديدة في اكرام أصحاب الامتيازات الشرعية . ولم يكن سكوت الناس عن معاكسة انشاء جوقة الشرف بالامر الهين ، فلابد لنا من القول بأن ذلك الانشاء هب لمناهضته أشخاص لم يكن أحد مرتابا بخصومتهم للارستقراطية أو بتطرفهم في الانتصار للديموقراطية . فتعجب بونابرت من هذا الامر وألقى تبعته على الخطباء الذين شحذوا ظبي ألسنتهم للدفاع عن ذلك المشروع ، وكان يقول . « اذا كان اختلاف المقامات بين الفرسان وتخصيص نوع مكافآتهم قد أفرز كل طبقة من طبقاتهم عن الاخرى ، فان نشان جوقة الشرف وتعميم منحه يعتبران بعكس ذلك الامر راموزين للمساواة من دون سواها » وقد استند الى هذا المبدأ حين نبذ مشورات الذين كانوا يرتأون تخصيص نشان جوقة الشرف برجال الجندية . فقال لهم «ان مثل هذا الفكر كان يحسن في أيام أصحاب الاقطاعات والفرسان أو في العهد الذي غزا فيه الفرنج بلاد الغاليين ، فقد كانت الامة في ذلك العهد راسفة في قيود العبودية ، وكان الظافرون يستأثرون بالحرية ، وكانوا كل شيء ولم يحرزوا تلك الميزة الا لكونهم جنوداً . . . . وعليه لايصح الآن أن نقابل عصور الهمجية بالعصور الحاضرة . فنحن ثلاثون مليوناً من البشر تربطنا جامعة

المعرفة والتملك والتجارة ، ولا تعد شيئاً مذكوراً ثلاثمئة شخص أو اربعمئة شخص من الجنود بازاء مجموع الامة ولا يخفى أن القائد ماعدا كونه لم يتقلد القيادة الا بصفته المدنية ، فحين يعتزل المنصب يعود الى حالته المدنية . ان الجيش هو الامة ، وان نحن اعتبرنا الجندي صارفين النظر عن علاقته بالحالة المدنية قام في وجداننا أنه لا يعرف شريعة غير شريعة القوة ، وانه ينسب كل شيء اليه ، ولا يرى غير نفسه . . . . ومن اختصاص الجندي أنه يبتغي احراز كل شيء بطريقة استبدادية أما الرجل المدني فانه يحكم المناقشة في كل شيء ولايلجأ الا الى الحقيقة والعقل . . . ولا أتردد أبداً في الاعتقاد بأن الافضلية يجب ولا مراء أن تمنح الى المدنيين . . . فأنا لا أتولى الحكم لكوني قائداً ولكن لأن الامة تعتقد اني محرز صفات مدنية تصلح لان يتولى صاحبها الحكم وحين لا تعود الامة ترى هذا الرأي يتداعى صرح الحكومة هاوياً . وقد كنت عارفاً حق المعرفة ما كنت أفعله وأنا في مقدمة الجيش حين كنت أطلق على ذاتي لقب عضو الجمعية العلمية ، وكنت موقناً بأن الجميع حتى آخر جندي يدركون مرمى كلامي . . . واذا لم يعتبر نشان جوقة الشرف مكافأة على الخدم المدنية كما يعتبر مكافأة على الخدم الجندية فلايحسن والحالة هذه أن يسمى نشان جوقة الشرف » وقال بعد ذلك . « حين يبتعدون عن النظام الاول ينسخون فكراً سامياً وتصبح جوقة الشرف أثراً بعد عين . . . »

ولقد كان ذلك الفكر وأيم الحق من أقوى العوامل لتحريك ساكنات المنافسة والمباراة بين أفراد الامة بفتحه في وجوه الجميع على السواء طريق امتيازات الشرف على مثال فتحه طريق المناصب . وقد أصبحت الاهلية الشخصية من ذلك الحين كل شيء ولم يبق شرف الاصل والفصل شيئاً مذكوراً ويمكن القول ان هذا الامر كان نتيجة انتصار الثورة وتملصها من ربقة الحوادث العرضية ، وتقديسها كل ما كانت قد توخته من دون ان تنصرف عنه دقيقة من الزمان .

وهب نهض في بدء الامر لمعارضة جوقة الشرف فريق من غلاة الوطنية فذلك ناشيء عن عدم اعتقادهم صحة ما كان خطباء الحكومة يعالجون اقناع الامة بفائدته ، وعن توهمهم بأن بونابرت كان يرمي الى ايجاد أشخاص يكونون

أطوع له من بنانه ، وانه ينوي ان يعيد الالقاب القديمة الى بعض أفراد من الامة من دون ان يدعها تشمر ، وهو يوهمهم بأنه لم يفعل ماتوخى فعله الاليكافيء المبرزين في خدمة الوطن على سواهم ، ويضع مبادىء المساواة موضع الاجراء بانشائه نشاناً يستطيع الجميع على السواء احرازه . وعلى هـذا النمط يمكن القول أن المعارضة الشديدة التي بدت في وسط المجلس كان صدورها عن خوف القوم من طموح بونابرت الى عرش الامبراطورية أكثر مما كان خوفهم من بقاء القنصل الأول قابضاً بيديه على أزمة الاحكام .

وكان من جملة الانشاءات القنصلية أمر لم يكن في طاقة حزب من الاحزاب أو في ذرع شيعة من الشيع أن يقللوا من اعتراف الناس له بالجميل على انشائه وتقديرهم إياه حق قدره . وهو القانون المدني . وكان بعض الناس يزعمون على غير طائل ان هـذا القانون من أوضاع مشاهير الفقهاء الذين أنبتتهم الثورة ، إلا أن الكثيرين يعلمون انه حينما كان الجدال يشتد ويحمى وطيسه كان بونابرت ينبري لابداء رأيه وكثيراً ما كان يتسنى له أن يحسم بكلمة واحدة جدالا طويلا ويذلل مصاعب شديدة بكلمة واحدة من الكلمات التي يستأثر بها في غالب الاحيان أصحاب الدهاء . وقد أضاف الى القانون الفصل الخامس المبحوث فيه عن حالة الجنود المدنية حين يكونون خارج أرض الجمهورية فقد كان الفقهاء يقولون : حسب أولئك الجنود أن يخضعوا للقانون الجاري العمل بموجبه في البلدان المخيم فيها ظلهم . فقال لهم بونابرت على الفور : « ان الجندي لا يكون أبداً في دار غربة حين تظلله الراية ، فحيث تكون الراية يكون الوطن . »

وكان بعد صلح اميان أن جميع قوات فرنسا الحربية ظلت لا عمل لها وباتت رهن اشارة بونابرت ، وحينئذ اغتنم القنصل الاول الفرصة من السكينة السائدة في أوربا وفكر في نقل ميدان الحرب الى أميركا لفتح سان دومنك ، وفوض الى صهره لكرك قيادة تلك البعثة التي لم تكن حميدة المغبة على فرنسا . وكل ما أمكنهم أن يستفيدوه من تلك الحملة أن أسروا توسان لوفرتور زعيم الزنوج ، وهو رجل ممتاز بين بني جلدته . فنقلوه الى فرنسا ولكنه ما لبث أن استوفى بختـه من هذه الدنيا في قلعة جو ، واغتالت طائلة الحمام في هـذه البعثة قائدها لكرك . فخلفه روشمبو ، إلا انه لم يتمكن من حفظ تلك الطارئة

لفرنسا بل فقدها بما ارتكبه من المظالم وأتاه من المساوىء .

وكانت ايطاليا مهد مجد بونابرت ومنشأ بأسه شغلا شاغلا له . ففي مفتتح سنة ١٨٠٢ التأم في ليون مجلس ايطالي مؤلف من سراة البلاد ودهاتها ، وبعد مفاوضات أجمعت كلمتهم على أن يقدموا لبونابرت رئاسة جمهورية ما وراء الالب التي لم يكن أحد بين الايطاليين قادراً على النهوض باعبائها . فقبل بونابرت تلك الزعامة المقدمة له وقال لوفد تلك الامة : « ليس عندكم سوى شرائع خاصة فيجب أن يكون لكم شرائع عامة وليس لشعبكم سوى عادات مكانية ، فعليه أن يقتبس عادات وطنية » وفي خلال تلك السنة عينها ضم بونابرت البيامنت الى فرنسا وقسمها الى ست ولايات وهي : بو ودوار وسزيا وستورا وطانارو ومارنغو .

وفي مفتتح سنة ١٨٠٣ نظم الندوة العلمية الوطنية تنظيما جديداً على شكل رآه ملائماً ، فقسمها الى أربعة أقسام :

أولا — ندوة العلوم .

ثانياً — ندوة اللغة وعلم الادب .

ثالثاً — ندوة التاريخ وعلم الادب القديمين .

رابعاً — ندوة الفنون ، وقد نسخ بهذا التقسيم من الندوة العلمية الوطنية العلوم الادبية والسياسية . وكان نسخه لهذا الفرع ناجماً عن استيائه من معارضة بعض أصحاب الصحف والكتبة المشتغلين بالعلوم العقلية للخطة التي كان يتوخى انتهاجها في ادارة شؤون الحكومة وتجرئهم على رفع صوتهم لمعاكسته في مجلس الامة نفسه .

وفي ذلك الحين أنشأ القنصل الاول أيضاً معاهد مختلفة ذات أهمية كبرى من جملتها مدرسة فنتنبلو الحربية ومدرسة الهندسة والفنون في كمبيانيه .

ان بونابرت الذي ظفر بملوك أوربا ، وألقى السلام في الجمهورية الفرنسوية ، أراد اتيان أمر آخر عظيم الاهمية ، وهو تدخله في شؤون سويسرا وتوسطه لايجاد السلام والوئام بين أجزاء هذا التحالف . فأنشأ لها نظاماً جديداً كان خاتمة للخلاف الناشىء بين الانحاء المتألفة منها هذه الجمهورية . وأصبحت سويسرا بموجب النظام المذكور مؤلفة من تسع عشرة ولاية لكل منها

دستور خاص تجري عليـه تحت حماية فرنسا العـالية .

ووجه القنصل الاول نشرة الى جمهورية سويسرا نقتطف منها ما يأتي :

« ليس من أحد فيه ذرة من العقل والذوق السليم الاويرى أن النظام الذي وضعته لكم هو أفضل منحة لبلادكم من فضل العناية التي لم تفتأ في خلال الانقلابات السياسية وصدمات الاقدار ساهرة على كيان أمتكم واستقلالها ، وان تدخلي في شؤونكم على الوجه الذي تعرفونه هو الذريعة الوحيدة الباقية لكم لضمانة كيان كلا الامرين » وكانت الحكومات الاجنبية تنظر شزراً الى التفوق الغريب والسيادة العامة اللذين نالتهما فرنسا وزعيمها الشاب في تنظيم شؤون أوربا . وكانت الحكومة البريطانية أشد جميع تلك الحكومات استياء وقد ساورها القلق من جراء طول مدة السلم في أوربا . فتألب في لندرة جميع أعضاء الارستقراطية الاوربية وأساطينها لمناهضة الديموقراطية الفرنسوية ودهاقنتها . وهل كان يعقل أن مثل رجال الحكومة الذين شاطروا تشفي آل برنسويك من الشعب الفرنسوي أو حبذوا عملهم يستطيعون أن ينظروا بمقلة الرضى الى اشتداد منكب ذلك الشعب الذي كانوا يملون نفوسهم بأن يسلموه الى جنودهم غنيمة باردة ؟ وكان الكتبة المنتمون الى حزب المحافظين والرافعون فوق رؤوسهم لواء برك وبت يحبرون المقالات المسهبة ويعقدون الفصول الطويلة متهجمين على الثورة الفرنسوية الكبرى ومقبحين أعمال زعيمها الاكبر . وقد كان عملهم هذا داعياً الى اضرام لظى الحرب الوطنية بين ظهراني الامة الغربية التي أصابت سلماً محموداً . وكانت كتاباتهم جميعها تدور على هاتين الغايتين المهمتين .

١ ايجاد شكاوي من فرنسا ، ٢ عقد محالفات واستمالة الدول الاوربية الكبرى الى مجاراتهم على مبادئهم

وكانت أهم شكاويهم مسائل سويسرا ، فأثارت هـذه المسائل حسدهم من مربضه . . .

وكانت المذكرة الرسمية مختومة بتعليل النفس بالمحافظة على السلم مع المجاهرة بان فرنسا كانت مستعدة لشهر الحرب وأنهم لا يستطيعون أن يصيبوا شيئاً منها بالوعد والتهويل [illegible] المذكرة مذكرة أخرى حبرتها اليراعة نفسها

التي حبرت أختها من قبلها وقد ختمت بهذه الفقرة المشهورة . « انه لا يسر على أمواج المحيط أن تقتلع الصخور التي تتكسر عليها من أربعين قرناً من أذكاء العصابة المعادية لاوربا وللبشر نار الحرب ، وجرها وويلاتها في غربي أوربا ، وخسوف بدر الشعب الفرنسوي مدة من الزمان »

الا أن القنصل الاول لم يقتصر على نشر المناقشات والمجادلات في جريدته الرسمية بعد تحقيقه ما كان للهجائين البريطانيين من النفوذ لدى الحكومة البريطانية بل نشر في المونيطور المقالة الآتية التي رن صداها في جميع أنحاء أوربا . وهذا تعريبها . « لا تزال جريدة التايمس التي يزعمون أنها تنشر تحت مراقبة الوزارة البريطانية تشحن أعمدتها بالقدح في فرنسا . . . وكل ما يخطر على قلب بشر من الدناءة والسفالة والشر تنسبه تلك الجريدة الساقطة الى الحكومة الفرنسوية . فما الغاية التي ترمي اليها يا ترى ؟ . . . ومن هم الذين يدفعون لها الاموال لادراك هذه الغاية ؟ . . .

« وثمت صحيفة أخرى تفوق جريدة التايمس في السفاهة ، وهي صحيفة ينسج بردة مقالاتها بعض نفر من اشقياء المهاجرين وشذاذ الافاق وشرادالامصار والاجلاف الذين لفظهم وطنهم وتبرأ منهم الشرف والنبل ، فاتوا منكرات ، وارتكبوا فظائع لا تقوى على محوها أيدي العفو العام

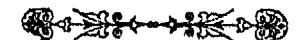
« لقد اجتمع في لندرة أحد عشر أسقفاً بزعامة أسقف أراس الفظ الطباع وجاهروا على رؤوس الاشهاد بالتمرد على الوطن والكنيسة وأذاعوا نشرات تفيض طعناً بالاساقفة الفرنسويين ، وأوسعوا الحكومة والبابا اهانة لانهما أعادا السلام والانجيل الى أربعين مليوناً من المسيحيين

« ان جزيرة جرسي تغص بالاشقياء الصادر الحكم عليهم بالموت من المحاكم لارتكابهم جنايات قبل الصلح ، كجرائم القتل واغتصاب العرض واضرام النار... ومن جملة شروط وثيقة الصلح المعقودة في اميان شرط يقضي بتسليم المتهمين بجرائم القتل ، الا أن الامر جرى بعكس ذلك ، واستقبل السفاحون على الرحب والسعة في جرسي . . .

« ان جورج يتباهى بتعليق النشان على صدره في لندرة ، وقد أنعم عليه بالنشان مكافأة له على الآلة الجهنمية التي دمرت ناحية من نواحي باريس

وأهلكت ثلاثين شخصاً من النساء والاولاد الآمنين . أفلا يحق لنا أن نفتكر والحالة هذه بأنه لو كان قد أدرك غاية أمنيته من الامر المنكر الذي تعمد اتيانه لكان قد كوفيء بنشان ربطة الساق ؟

« واذا دام الحال على هذا المنوال فكيف يصبح صلح اميان ؟ »



الفصل الخامس عشر

انقطاع العلاقات بين فرنسا وبريطانيا — رحلة بونابرت الى بلجيكا وعلى الشواطىء البحرية — مكيدة بيشغرو وجورج موت الدوق دنغان — نهاية القنصلية

ان الوحدة الاوربية التي نشأت عن المسيحية والفتح واستظلت فيما بعد بكنف السياسة تداعى صرحها لدى الثورة الفرنسوية الكبرى . وقد دخلت الخشية على جميع الحكومات القديمة حتى أن الحكومة البريطانية نفسها وهي تتباهى باطلاق اسم أرض الحرية على بلادها جاهرت بمعاداة فرنسا لانها كانت تمثل تحت شكل الحكومة الدستورية الارستقراطية البالغة غاية المناوأة للحرية الحقيقية ، وتعزز نفوذ أصحاب الاقطاعات بطريقة استبدادية لايحاكيها استبداد في أوربا طرا . فلم يكن من سبيل لبقاء السلم الثابت الحقيقي بين فرنسا وهذه الدولة أو بين فرنسا وغيرها من الدول الاوربية اللواتي تؤثر بهن مبادىء الحكومة البريطانية . فقد كانت ثمت عداوة كامنة وراء ستار التظاهرات السلمية بين الحكومة الفرنسوية والحكومات الاوربية الاخرى ، على أن ذلك النفوذ المبني على معاكسة المبادىء والمصالح معاكسة أصلية كان يزداد مع ازدياد نفوذ مبادىء ومصالح الثو . . . كانت واقفة حاجزاً حصيناً في وجه الاستقراطية

الناقمة والملكية الساخطة . واذا كانت الحكومات في بعض الاحيان تضطر بوهن الشعوب وشدائدها ورفع أصواتها الى القاء السلاح فلايكون من وراء ذلك الامر سوى ابرام وثائق واهنة وقتية تلازمها جميع أسباب الحرب مع الاحتفاظ بتجاوز حدودها عند سنوح أول فرصة .

وكانت أوربا القديمة دائمة التفكير في استعادة وحدتها ، وهي لا يخفى عليها البتة أن ذلك الامر حيوي لها ، وانها بدونه صائرة الى التضعضع والدمار . ولما لم يكن ميسوراً لها أن تؤمّ جهاراً تلك الغاية كانت تخبىء حقيقة مقاصدها تحت سجوف الرثاء والمواربة . وأما أوربا الفتاة فقد كان مقضياً عليها أن تعمل تارة ببسالة جنديها وتارة بدهاء صاحب الامر والنهي في الحكومة ليتسنى لها ايجاد وحدة جديدة ، وهي لم تكن غافلة عن أن المساواة تظل محفوفة بالمخاطر ما دامت امتيازات النبلاء مقدمة على حقوق سواهم . وقد شعر بونابرت بهذا التنافر الذي لايزول والذي جعله يقول : « بعد خمسين سنة تصيرأوربا قوزاقية أو جمهورية » وهو يعني أنه في أثناء هذه المدة يتمكن أنصار الثورة أو معاكسوها من توطيد أركان الوحدة الاوربية . ولما لم يكن من الناموس الطبيعي أن سلطة المستقبل والخصب اللذين ينشئان شدة الشبيبة تنزع منها وتعطى بطريقة عجيبة الى الشيخوخة لم يكن والحالة هذه مجال لرجع صدى مفاوضات القديسة هيلانة وادخال الفرق على الا لى يطمعون بجعل الهمجية الروسية تنهج منهاج المدنية الفرنسوية .

واذا كان بعد أكثر من ثلاثين سنة قد حال دون انفجار بركان المبادىء تأثير استعداد الشعوب وحاجاتها مع كون ذلك البركان لا يزال يغلي في الصدور مع ما يبدو في ظاهر الحال من رسوخ دعائم السلم بين الحكومات ، فكيف كانت الحال سنة ١٨٠٣ حين كان مرجل العواطف متواصل الغليان ، ولم تكن الثورة بعد قد عززت موقفها وثبتت مبادئها بانتصار الامبراطورية ومحاولة حزب الملكية على غير طائل ارجاع السلالة البربونية ، وحوادث سنة ١٨٣٠ الهائلة ؟ وعليه كان منتظراً حدوث مناصبة جهارية بدلا من الخصومة السرية حين يتيسر اعلان ذلك الامر لاعداء فرنسا الكاشحين .

ولم يمض سنتان على صلح اميان حتى تبرمت الحكومة البريطانية من هذا

الصلح الكاذب ، ولم يثبطها شيء من الاشياء عن اضرام نيران حرب طاحنة بين امتين لم يكن ينقصهما سوى التعقل واسناد شؤونهما الى حكومتين بنيت مبادئهما على اس الحرية الحقيقية وفوضت ادارتهما الى رجال من امثال فكس ، فتسيرا في مقدمة الشعب وتعملا متفقتين على القاء السلام والوفاق في المعمورة وتمهيد سبل اليسر والعمران في وجه الهيئة الاجتماعية

وفي ٢٠ مايو سنة ١٨٠٣ أنفذ القناصل مذكرة الى مجلس الشيوخ والمجلس الاشتراعي ومجلس الامة ضمنوها ما انتهى اليهم من سوء مقاصد الحكومة البريطانية ، وأبدوا فيها خشيتهم من قرب نشوب الحرب . فبادرت المجالس الثلاثة المشار اليها الى المجاوبة على الرسالة بكلام يقضي بوجوب التسبب بجميع الاسباب الفعالة لاحترام الوثائق المعقودة والمحافظة على كرامة الشعب الفرنسوي ولما تلا القناصل ذلك الجواب فاه القنصل الاول بهذا الكلام الشديد اللهجة .

« نحن مكرهون على المحاربة لدفع التعدي علينا والظلامة عنا ، وعليه سنقاتل بافتخار

« واذا كان ملك بريطانيا مصمماً على اعداد بريطانيا العظمى الى الحرب لتعترف له فرنسا بحق اجراء الوثائق أونقضها على هواه ، ويسوغ له أن يهين الحكومة الفرنسوية في نشراته الرسمية والخاصة من دون أن نتمكن من الشكوى من ذلك فقل على الانسانية وحظها السلام

« نحن نبتغي ولا مراء أن نترك لاعقابنا الاسم الفرنسوي مكرماً وخالياً من كل وصمة . . . ونحن في كل حال ندع لبريطانيا الاقدام على أعمال العنف المعاكسة للسلام واستقلال الامم وسنعطيها مثالا للاعتدال يمكن الاستعانة به وحده على المحافظة على النظام الاجتماعي »

وكان ملك بريطانيا يستند في نقضه وثيقة اميان الى احتلال جزيرتي لمبدوز ومالطة واخلاء بلاد القاع ، الا أن الحقيقة كانت غير ذلك ، فقد دفعته الى شهر الحرب هذه المرة أيضا الاسباب عينها التي دفعته الى انشاء المحالفة الاولى لمواقعة فرنسا ، أي حرب احلاف مبادىء الارستقراطية لانصار الثورة الفرنسوية وكان عاهل روسيا وملك بروسيا يظهران الميل الى التوسط بين فرنسا وبريطانيا الا أن الحوادث التي حدثت فيما بعد دلت على انهما كانا متحالفين سراً مع

البريطانيين ولكن مالم تكن بريطانيا قد أصيبت بآفات الحروب الاولى كما أصيبت بها دول القارة الاوربية ، لم تكن محتاجة نظيرهن الى ضم متفرق شملها لتتمكن من شهر الحرب ، فترأست المحالفة الجديدة التي تألفت لمواقعة فرنسا ومجاذبتها

وكان أول أمر باشرته بريطانيا بعد اعلان الحرب وخيم التبعة عليها فان الجيوش الفرنسوية احتلت هانوفر ، فترك قائد الجيش البريطاني الهانوفري مركزه وتلا ذلك الامر نشوب الجيش المذكور في حبالة أسر الفرنسويين

وبرح بونابرت فرنسا مبتغياً تعهد شؤون بلجيكا فدخل مدينة بروسل دخول الظافر ، واحتفى به الشعب البلجيكي في جميع الاماكن التي مر بها احتفاء شديداً يدل على ابتهاجه بانضمامه الى الجمهورية الفرنسوية . فقابلهم بونابرت كما كان يقابل الاقوام الذين ينزل بين ظهرانيهم أي أنه أنشأ لهم معاهد عامة مختلفة وأمر بضم الرين الى الموز والاسكو وتأليف ترعة كبيرة تسهل المواصلات في تلك البلاد .

ولما عاد بونابرت الى باريس أمر بفتح جسر الفنون للجميع على السواء ، وحول البريطانة الى مدرسة عالية . وكان يهتم أيضاً بالشؤون الخارجية . فأبرم محالفة مع سويسرا ، وأكرم وفادة السفير العثماني بمبالغته في الاحتفاء باستقباله ، وأعلن تخلية اللويزيانا للولايات المتحدة الاميركية في مقابل ستين مليوناً من الفرنكات تدفعها هذه الاخيرة للحكومة الفرنسوية بمثابة تعويض .

وكان الشغل الشاغل لأفكار القنصل الاول حربه مع بريطانيا العظمى ، فكان ينوي غزو تلك البلاد ، وقد قال فيما بعد « اذا كان القوم في باريس قد ضحكوا من مقاصدي الكبيرة من هذه الجهة فان بت لم يضحك منها في لندرة »

وبرح بونابرت باريس في أوائل شهر نوفمبر ، فجول على الشواطىء متفقداً بذاته اجراء الاعمال الجسيمة التي كان قد أمر باجرائها لادراك الغاية التي كان يجري اليها ، وشهد معركة حدثت في بولون بين فصيلة من الاسطول البريطاني

والاسيطيل الفرنسوي . ولما عاد بونابرت الى باريس وجد رسالة كان جورج الثالث ملك بريطانيا قد وجهها الى البارلمان الفرنسوي وكان من جملة ما ورد فيها انه يتهيأ للزحف في مقدمة جيشه ، وأن فرنسا تتمرس بالدستور البريطاني ودين الامة البريطانية واستقلالها ، وأنها لا تجني من عملها بعد اتخاذ التدابير التي عقد عروة العزم على اتخاذها سوى ثمار الخيبة والخذلان والانذار المرة الطعم

فاستشاط بونابرت غضباً عند تلاوة الرسالة وبادر الى نشر المقالة الآتية في المونيطور

« أو مثل ملك بريطانيا زعيم أمة أصابت السيادة في البحار ومدت لواء سلطتها فوق بلاد الهند يفوه بمثل هذا المقال ؟ أو يجهل الذين يوحون اليه مثل هذا الكلام غير المبني على التروي أن هارلد الناقض اليمين قد زحف أيضاً في مقدمة شعبه ! أو يجهلون أيضاً أن شرف المحتد ورواميز السلطة العليا ومطارف الارجوان المرتدي بها الملوك لا تكون سوى مجان واهية في الحين الذي يتنقل فيه الموت بين صفوف جيوش المتحاربين منتظراً اشارة من داهية الحرب أو غفلة منه لينقض على الفريق الذي يختار منه فرائسه ؟ ففي يوم القتال تكون راية المساواة منتشرة فوق الجميع من غير ما تمييز

« ان الانتصار والانكسار معقودان بتعود المتحاربين اقتحام غمرات الهيجاء وتفوق المقاتلين في فن الحرب ورباطة جأش القائد . فالملك الذي بلغ من العمر ثلاثا وستين سنة ، والذي يقود للمرة الاولى جيشه الى ساحة الوغى يكون عند اشتباك الجيشين معرقلا لذويه وسبباً لانتصار أعدائه عليه .

« يتكلم ملك بريطانيا عن كرامة تاجه والمحافظة على الدستور والدين والشرائع والاستقلال ، أولم يضمن صلح أميان التمتع بجميع هذه الاشياء الثمينة ؟ وأي علاقة لصخور مالطة بدينكم وشرائعكم واستقلالكم ؟ ليس من خصائص العقل البشري معرفة ما تكون العناية الالهية قد قررته بحكمتها العميقة عقاباً لناقضي اليمين ومثيري الشقاق ومسببي الحروب ومقدمي الاعذار الواهية أو الاسباب السرية لنيل مطامع دنيئة ، وسافكي الدماء البشرية من غير ما تمييز ولكننا نستطيع أن ننظر بعين الفكر بكل تأكيد الى ما يكون من نتيجة

هذه الخصومة المهمة ونقول انكم لن تستولوا على مالطة ولا لمبدوز وانكم ستوقعون وثيقة صلح لاتكون مؤاتية لكم نظير وثيقة اميان

« الفشل والانحدار والنكبات ! . . . ان جميع هذا الكلام لايليق بشعب عظيم وبانسان ذي ذوق سليم . فلوكان ملك بريطانيا قد أصاب انتصارات تعادل ما أصابه الاسكندر وحنيبعل وقيصر لما كان التفوه بمثل هذا الكلام يليق به فالحظ في الحروب متعلق بأمر تافه للغاية وعليه لا بد من أن يكون المرء خالياً من العقل حتى يؤكد بأن الجيش الفرنسوي الذي لم يتهمه أحد حتى الآن بالجبن لا يلقى في ارض بريطانيا العظمى الا الفشل والانحدار والنكبات . . . »

وكانت الحرب قد جعلت الناس يعتقدون أن بونابرت أكبر قائد ظهر على متن البسيطة ، والحكومة قد جعلت الناس يعتقدون ان فيه دهاء رجال الحكومة. وقد بقي عليه أن يبين للملأ طراً انه من مشاهير الكتاب في ذلك العصر الذي كان للقلم فيه قوة سياسية هائلة أجل ان النشرات التي كان بونابرت ينسج برودها والخطب الرسمية التي كان يخطبها كانت أكبر برهان على قوة عارضته وطلاوة اسلوبه وانسجام عباراته الا أن ذلك الامر لم يكن كافياً لبيان قواه العقلية واتساع مداركه . فقد كان دهاؤه يلهمه بأنه ينبغي له أن يحسن استعمال جميع سلاح ذلك العصر من مثل السيف واللسان والقلم ، والا يدع وسيلة تفوته من الوسائل اللازمة لصاحب السلطة لنيل التفوق في الامة في الداخل والدفاع عن حقوقها في الخارج . وعليه كان للصحافة من هذه الجهة تفوق لا يختلف فيه اثنان ، وكان ذلك يكفي بحيث أن بونابرت مع كونه فاتحاً ومشترعا لم يأنف من أن يضيف الى هذين اللقبين لقب صحافي . وأصبح بونابرت بذلك الامر رجلا كاملا في عصره . وبدلا من أن نعتقد بأن بطل مارنغو خالف الاصول والعادات المرعية باقباله على مزاولة الكتابة في الجرائد ومعالجة الموضوعات الانتقادية ، نعتقد بأن احترامه لنفسه لم يكن يقل وهو قابض بأنامله على القلم لمناضلة أعداء فرنسا بقوة العقل عن احترامه لنفسه وهو منتض الحسام في ميدان القتال للزحف الى أعدائه بكتائبه الرجراجة . ولا بد لنا من القول بأن بونابرت أعلن غير مرة انه لو خير بين الصفات المدنية والصفات الحربية لما تردد

طرفة عين عن تفضيل الصفات المدنية . وقد رأيناه في ما مضى من حياته يؤثر في مصر وايطاليا لقبه « عضو الجمعية العلمية الوطنية » على لقبه « القائد الاكبر »

ولا يتوهمن أحد انه متصنع من هذه الجهة ، فقد كان بونابرت عارفاً الشروط الممكن من ذلك الحين فصاعداً التقيد بها لتولي حكومة شعب أثارته الفلسفة مع حكومة لويس الرابع عشر الحربية . وكان يدري أيضاً أن الثورة الفرنسوية لم تكن سوى مغالبة العقل للانظمة الاقطاعية التي وضعتها القوة الوحشية . واذا كانت تلك الثورة قد اضطرت في بعض الاحيان الى الاستنجاد بالقوة الوحشية للذود عن حياضها فانها لم تفعل ذلك إلا مرغمة على فعله . وعليه كان بونابرت يؤثر خدمتها بسلاحه الطبيعي أي بالمنطق الذي ينير الافكار ويلجها ليتسنى له اخضاعها لسلطة العقل على خدمتها بالجنود الذين يستخدمون في الحروب لسفك الدماء الغزيرة ولا يكون من وراء عملهم هذا إلا اخضاع العقل للقوة الوحشية ، وهذا ما ينجم عنه ما نسميه ضد الثورة . وكان بونابرت في جميع الحروب التي أوقد نيرانها ان جنرالا وان قنصلا وان امبراطوراً قد أثبت على مثال ما أثبته عند نقض وثيقة اميان انه لم يكن يرضى بالحرب الا مكرهاً لدفع الظلامة والاعتداء ، وانه كان يلقي على أعداء فرنسا مسؤولية الشرور المسببة عن الحروب . وكان القنصل الاول وهو يدبج بيراعته السيالة المقالات الانتقادية وينشرها في جريدته الرسمية رداً على أقوال الملك جورج المشحونة تصلفاً يعنى بتنظيم الشؤون الداخلية في الجمهورية . وفي ٢٠ دسمبر سنة ١٨٠٣ عقد المجلس واستصدر منه قراراً بادخال التغيير على نظام المجلس الاشتراعي الذي فتح في ٦ يناير سنة ١٨٠٤ وجعل المسيو دي فونتان رئيساً له . وكان بونابرت بتفضيله المسيو دي فونتان على المرشحين الآخرين مع معرفته بأن له علاقة بحزب الملكية يعمل لتعزيز طريقة التوفيق بين الاحزاب التي كان يأمل منها مساعدته على ضم أعداء الديموقراطية المعتدلين الى أنصارها المتطرفين ، أي أولئك الذين نظروا الى الثورة بعقل النفور والاستيحاش وأولئك الذين غرروا بنفوسهم وقذفوها الى خدمتها . فان فونتان وفوشه كانا زعيمين لجميع الذين تدفعهم الحكمة والمطامع والتبرم من الماضي والارتياب في المستقبل الى التوفيق بين الاحزاب واعادة السكينة والراحة الى نصابهما .

وفي جلسة ١٦ يناير بسطت لدى المجلس الاشتراعي حالة الجمهورية ، فكانت صورة جميلة مثلت فيها جميع أسباب النجاح والعمران التي أصابتها الامة الفرنسوية . ورأس المسيو دي فونتان وفداً رفع الى القنصل الاول تهانيء المجلس المشار اليه . وهذه خلاصة الخطاب الذي خطبه بين يديه .

« ان المجلس الاشتراعي يمحضك الشكر باسم الشعب الفرنسوي على ما أتيته من الاعمال الزراعية والصناعية التي لم تحل الحروب دون اتمامها . وقد جرت العادة أن الافكار العظيمة كثيراً ما تجعل أصحاب العقول السامية يهملون مزاولة تفصيل الادارة ، بيد أن الاجيال الآتية لا يمكنها أن تنحي عليك باللائمة من هذه الجهة ، فأفكار حكومتك وأعمالها تجري متحدة في كل مكان .

« كل شيء يجري على غاية الكمال . فالبغض خمدت نيرانه ، والمعاكسات تقلص ظلها ، وقد شاهدنا المذاهب والاشياء والرجال على اختلاف المشارب والاهواء تتقارب وتتمازج بقوة الدهاء المتسلط على كل شيء عاملة على خدمة الوطن واعلاء مناره فاتفقت العادات القديمة والعادات الجديدة ، ومهدت جميع السبل للمحافظة على المساواة في الحقوق المدنية والحقوق السياسية ، واستعيدت جميع الاسباب الآيلة لزيادة بهاء وعظمة سلطنة كبيرة . وهذه المآثر يا حضرة القنصل الاول ثمرة عمل أربع سنوات . فجميع أشعة المجد الوطني التي باخت من خمس سنوات استعادت بهاء لم تكن قد أصابته قبلك . »

وكان اعجاب القوم طرآ بأعمال بونابرت ورضاء فرنسا جعلاه بانشاء القنصلية مدى الحياة هادمين لصروح آمال أصحاب الاحزاب وسببين لتربصهم وابقاء مقاصدهم محجوبة وراء ستار الكتمان . الا أن الاحزاب التي كان لها مبدأ تسعى لتعزيزه لم تكن النكبات لتخني عليها أو تبلغ منها ولو غيرت الايام وجه ذلك المبدأ ولم تبق منه سوى الوهم . وعليه كان في وسع جماعة الملكيين أن تخضع لقوة الاقدار ولدهاء الظافر المنصور ولحظ بونابرت وتذعن لرؤيتها مشيئة الله وأصبع العناية في الحوادث العجيبة القائمة كحاجز حصين بين فرنسا والبوربون مما يعز على هؤلاء الاخيرين اجتيازه فيما بعد . فهذه كانت العواطف السائدة في ذلك العصر بين ظهراني أمة كانت فيما مضى معتصمة بأهداب الاخلاص للمبادىء الملكية على أن زعماء الاحزاب ولا سيما أولئك

الذين ظلوا في المهجر ثابروا على اضرام لظى بغضائهم وتدبير دسائسهم لمناهضة مبادىء الحكومة الجديدة. وقد كانوا واثقين بنيل ميل جميع الحكومات الاوربية اليهم ومناصرتهن السرية لهم وكادت هذه المناصرة تصبح جهارية بحسب مقتضيات الاحوال وبعد ما نقضت بريطانيا وثيقة صلح اميان جاهرت بعضدهم

وظهر لهم في هـذه الحال أن استمرار السكينة الداخلية بتعويد الشعوب الغربية المعيشة في ظلال تلك الحلة يزيد في اقامة المصاعب في وجه محاولة اثارة فتنة جديدة ، وكانت الحـال أيضاً تقتضي الاسراع بالهجوم على القنصل قبـل اشتداد ساعده وتوطيد أركان سيادته . فحينئذ دبرت مكيدة للايقاع ببونابرت وزعزعة دعائم حكومته . وانتشر مدبرو الدسيسة من ضفاف الرين الى ضفاف التاميز تظللهم حماية الحكومة البريطانية ، وكان بيشغرو اكثرهم تطرفا وقد حذا حذو جورج كادودال المشهور . وكان مورو الذي كسف بدر مجد أسرة هوهنلندن وقد وقف على سر المكيدة وسر بها وشجعهم على ابرازها الى حيز العمل . ولما انتهى الى بونابرت عمل مورو هذا صاح قائلا .

« أو مثل مورو يقذف بنفسه الى مثل هـذا المأزق الحرج ؟ أومثل هذا الرجل الوحيد الذي يقذف القلق على خاطري والذي يستطيع دون سواه أن يطمع بنيل التفوق علي يغرر بنفسه على هذا الشكل الدال على الحماقة ؟ اني وأيم الحق ميمون الطالع . . . »

ولمـا انفضح أمر المكيدة بادرت الحكومة الى اعلانها في جميع أوربا متسببة بجميع أسباب الاذاعة التي لديها . وجاء جميع رجال الحكومة وأظهروا للقنصل الاول استياءهم من ذلك الامر الفظيع ، وحققوا له أنهم سيعضدونه لاجراء كل ما يؤول الى منع تكرار مثل هـذا الحادث فأجابهم بونابرت بما يلي :

« منذ اليوم الذي بلغت فيه أوج السلطة دبرت مكايد عديدة لاغتيالي . ولما كنت قد ترعرعت في ساحة الهيجاء لم أعبأ قط بالمتالف التي لم تكن تلقي أدنى رعب في فؤادي . ولا يسعني أن أنبذ عاطفة القلق الشديد حين أفتكر بالحالة التي أوشك الشعب العظيم أن ينتهي اليها لو نجحت الدسيسة الاخيرة ، فأصحابها قد دبروها بنوع خاص لمناوأة مجد الشعب الفرنسوي وحريته وجذله

« وقد نبذت من عهد طويل ملاذ الحياة الفردية ، فاستعملت جميع وقتي وجميع حياتي للنهوض بأعباء ما يقضي عليّ حظ الشعب الفرنسوي بالنهوض بها

« فلتحفظ السماء فرنسا ، ولتحبط مكايد الاشرار ! ومن المقضي على الوطنيين ألا يدعوا المخاوف تبلغ منهم . وسأظل حياً مادامت حياتي ضرورية للامة . وكل ما أريد أن يعلمه الشعب الفرنسوي هو أن وجودي بغير ثقته وبغير محبته خال من الهناء وليس له غاية مقررة »

ان بونابرت باظهاره أن مقاومي الثورة أصابوا النجاح بتدبيرهم المكيدة لاغتياله وبتعليقه على وجوده الشخصي مجد الشعب الفرنسوي وحريته وحظه كان يشير الى أن السلطة التي منحه اياها الشعب مدى حياته لم تكن كافية لضمان مستقبل البلاد . وكان يفكر في وضع طريقة جديدة يستعان بها بعده على الدفاع عن المصالح الجديدة وعن قريب سيعلن هذا الفكر ويوضع موضع الاجراء .

وكان من جملة المهاجرين المستعدين لاجتياز التخوم لدن أول اشارة من المتآمرين الدوق دنغان وهو اخر فرد من سلالة كنده الكبير فأمر القنصل الاول بالقاء القبض عليه في بلاد بادن وسوقه الى فنسن حيث حكم عليه بالموت ونصب هدفا للرصاص بسرعة غريبة . وكان اجراء الحكم على الصورة التي أجري فيها معتبراً بمثابة جريمة قتل ارتكبها بونابرت . وقد علقت من جرائه وصمة عار باسمه لا تمحوها يد الدهر . فاذا لم يشهر ذلك الامير الشاب الحامل اسما من أعظم الاسماء في فرنسا القديمة حربا على الافكار والانظمة المخالفة لمبادئه الا جرياً على طريقة آبائه ببسالة تضارع بسالة الابطال الشجعان بحسب قوانين الشرف وحقوق الامم ، كان القاء القبض عليه وصرم حبال حياته ضرباً من ضروب السياسة التي كانت تستخدم الارهاب والبطع سلاحا للحرب . ومن ثم يكون بونابرت الماثل لدى محكمة التاريخ من جراء التهمة الموجهة اليه من هذه الجهة قادراً على التملص منها بجمله مصلحته مرتبطة كل الارتباط بمصلحة الامن العام والضرورة التي لا يلقى له بدأ عنها لضربه تلك الضربة القاضية ولكن اذا لم يكن الدوق دنغان قد اقتصر على مناهضة الجمهورية كجندي ،

وارتضى بمخالفة أشخاص لا يحجمون عن الفتك بالقنصل الاول ليتسنى لهم هدم الانظمة الجديدة واستعباد البلاد ، فلا يكون ذلك الشاب معتبراً سليلا لبطل ركروى بل يعد قريناً لجورج وبيشغرو

وقال نابوليون في وصيته . « ألقيت القبض على الدوق دنغان واستصدرت الحكم عليه بالموت لان ذلك كان ضرورياً لامن الشعب الفرنسوي ومصلحته وشرفه . وهب كان الكونت درتوي يتولى مختاراً العلاقات بستين سفاحاً في باريس في مثل هـذه الحال لكنت عاملته بهذه المعاملة عينها » . وقال في موضع آخر . « لو لم تكن شرائع البلاد موالية لي على الدوق دنغان لبقيت لي حقوق الناموس الطبيعي وهي حقوق الدفاع الشرعي . فلم يكن همه وهم ذويه في كل يوم الا نزع الحياة مني . وكانوا في كل يوم يهاجمونني ابتغاء اغتيالي ببنادق هوائيـة وآلات جهنمية ومكايد ودسائس مختلفة . فتبرمت من هذه الحال واستغنمت الفرصـة لقذف الذعر عليهم حتى في لندرة نفسها وقد أدركت غايتي . . . فمن يستطيع انكار هـذا الامر علي ؟ فالدم يطلب الدم . ويكون مغفلا أو خالياً من الشعور كل من يعتقد انه لا يحق لي أن أقابل بالمثل اسرة تعـالج في كل يوم الايقاع بي . . . وأنا لم آت شيئاً منكراً يحق أحد من أفرادها . فالامة العظيمة ألقت الي بمقاليد السيادة عليها ، واستصوب رأيها جميع أوربا على التقريب ، وفضلا عن ذلك تساوي قيمة دمي قيمة دمهم . »

أجل ان دم ذلك الرجل العظيم الذي كانت أوربا معجبة به كل الاعجاب . وكانت فرنســا معلقة عليه كل هنائها وراحتها لم تكن قيمته الحقيقية تقل عن قيمة دم الامراء الذين كانوا يحاولون القاء البلابل والقلاقل في فرنسا وأوربا طمعاً باستعادة سلطة انتزعتها منهم العناية بصوت الشعب وأسندتها الى ربيب الدهاء وحليف الحنكة . ومن لا يعلم ان دم الابطال الذين لا يظللهم شرف الاصل والفصل لا قيمة له للسـلائل الملكية والارستقراطيين الملتفين حولها ؟ ومن لا يعلم ان الاشخاص أنفسهم الذين يظهرون ان قلوبهم ترق وان صدورهم تضيق عنـد رؤيتهم أبناء الشرف التليد يسقطون عن منصات مجدهم ، ويهوون أمام الارتجاع السياسي يرقصون فيما بعد على مثال البربر في جوار النطع حين تصيب القذيفة القاتلة أولئك الابناء ذواتهم ؟ اسألوا شبح ذلك المارشال المنكود

الطالع الذي لم يكن سليل الابطال بل بطل الابطال ، ولم يلطخ هـذا اللقب بالوصمة التي يجرها اليه اشتراكه مع السفاحين الاوغاد والقتلة الاوشاب وحين يكون المرء من الالى تهب في صدورهم نسمات عواطف الانسانية والمروءة يشعر عما يلم بغيره من الالم والعـذاب فيعطف ذارفاً العبرات على المهج الشريفة التي تبذل والدماء الـكريمة التي تراق في أثناء اضطرام نيران الفتن وانفتاح أبواب الثورات من غير تمييز بين الاحزاب وحين يكون الفرنسوي فرنسوياً قلباً وقالباً يكون شديد الاستمساك بغرز شرف بلاده وكثير الحرص على كرامتها ومجدها ، ويكتئب مترديا بملابس الحداد حين يلقى ذاته متمرساً بالاسباب السـياسية ، ولا سيما حين لا تكون هذه الاسباب مستطيعة أن تخترم الشهرة البعيدة التي أصيبت في أوسترلتز ومارنغو ، كما كانت تدون في سجلاتها الدموية الاسماء التي نالت الشهرة في فنتنوى وركروى .

وزعم بعضهم أن بونابرت كان مدفوعاً الى القضاء على الدوق دنغان بداعي الرغبة والضرورة ليضمن عدم رجوع سلالة البوربون لغلاة اليعقوبيين الملتفين حوله والممهدين في وجهه سبيل الوصول الى العرش . على أن هذا الزعم الذي كذبه تصرف بونابرت وأنكرته أقواله لم يكن عليه غبار من الصحة ، هـذا مع صرفنا النظر عن اطلاق القنابل في سان روكز وابعاد الـكليشيين . فقد كان ثمت عقبات يصعب تمهيـدها ومصاعب يعز تذليلها تفوق ذكرى ١٣ فنديميار و ١٨ فركتيدور تحول بين القنصـل الاول والحزب الملـكي وتجعل التقريب بينهما مستحيلا . وكان غيره قد اشتدت العلائق بينه وبين السلالة المالـكة القديمة أكثر من اشتدادها بينه وبينهـا كفوشه وتاليران ومن جرى مجراها . ومع ذلك لم يمنعها ذلك الامر عن الانتظام فيما بعـد في سلك الحـكومة عند عودة الملك لويس الثامن عشر الى فرنسا وجلوسه على سرير المملـكة . ومما يبين تفاهة الضمان الفظيع الذي يزعمون أنهم طلبوه منه ويظهر بكل جلاء عدم فائدته هو انه أفصح عما كان يبتغيه وعما كان يستطيعه وكان الجميع يدرون أن اتفاق بونابرت مع البوربون يقضي عليه بأن يغير خجأة طبيعته ويهجر الحظ المـكتوب له وينسى موقفه ويذهل عن موقف فرنسا وينبـذ في وقت واحد ماضيه ومستقبله ، وقصارى الـكلام أن يظل محافظاً على كرامة ذاته وقال نابوليون

وهو في جزيرة القديسة هيلانة . « لم أفتكر قط بالامراء وهب كنت ميالا الى مناصرتهم فان اجراء هذا الامر لم يكن في ذرعي . وما عدا ذلك استفاض بين الناس اني اقترحت عليهم أن يتنازلوا عن حقوقهم كما أذيع في أوربا ، مع أن هـذا الامر لم يقع قط . وكيف يمكن أن يقع مثل هذا الامر ؟ فأنا لا أستطيع التربع في منصة الملك إلا باستنادي الى المبدأ القاضي بابعادهم وهو مبدأ السياسة الشعبية الذي جال ولا مراء في ذلك العهد في أذهان الاشخاص الراجحي الحصاة الواسعي المدارك الذين لم يكونوا يتهمونني بالحماقة ولا بالبلاهة . »

إلا أن المتآمرين الذين بغوا ترميم ما تداعى من عرش البوربون بفتكهم بالقنصل الاول ، كانوا والحق يقال من أكبر المساعدين على ارجاع الملـكية ، وإنمـا لم تأت الفتنة مؤاتية لمصلحة الشخص الذي كانوا يطمعون باجلاسه على عرش المملـكة ، وقد شاهدوا من خصاص أبواب سجنهم أنهم ضفروا اكليلا للشخص الذي توخوا الايقاع به .



جدول أسماء الاعلام فى الجزء الاول

لما كانت ترجمة بعض أسماء الاعلام من اللغة الفرنسوية الى اللغة العربية تبعث في بعض الاحيان على الابهام والالتباس رأينا أن نضع جدولا لاسماء الاعلام التي يحتوي عليها تاريخ نابوليون الاول وقداتبعنا الترتيب فيها بحسب الحروف الهجائية العربية

— ا —

الابنين	Les Apennins	أطلسي	Atlantique
ابولون بلفيدير	Apollon du Belvédère	الاطلس	L'Atlas
أترووريا	Etrurie	افلاطون	Platon
الاتيكا	Attique	افينيون	Avignon
أتيلا	Attila	اكليمنضوس	Clément
أثينا	Athènes	البنغا	Albenga
أجاكسيو	Ajaccio	ألبيت	Albitte
أخيلك	Ton Achille	الاهرام	Les Pyramides
أديج	Adige	الفرد	Alfred
اراس	Arras	الاسكندر	Alexandre
الارسطقراطية	L'Aristocratie	ماوراء الالب	Cisalpine
أرسطو	Aristote	الاغارقة	Les Grecs
أركول	Arcole	الاسكو	L'Escaut
ارلندة	Irlande	الاكاديميا	L'Académie
أرمان كارل	Armand Carrel	الالب	Les Alpes
أرينا	Arena	الالياذة	L'Ilyade
أساطير الأولين	La mythologie	الايزونزو	L'Isonzo
اسكانية	Ascagne	اليفيو	Elleviou
اسنار	Isnard	اميان	Amiens

اندريوسي	Andréossy
انغياري	Anghiary
أوبري	Aubry
أوجين دي بوهارنه	Eugène de Beauharnais
أوجرو	Augereau
أورليان	Orléans
أوزوبو	Osopo
أورياني	Oriani
أوسترلتز	Austerlitz
أوستي	Aoste
أوسيان	Ossian
اوغسطس قيصر	Auguste César
أوغسطينوس	Augustin
أوميرا	O'Méara
أون	Anne
أولمتز	Olmutz
أونايل	Oneille
أيرونيموس	Jérôme

— ب —

باراس	Barras
بارد	Bard
باراغواي ديليه	Baraguay d'Hilliers
بارما	Parme
باسانو	Bassano
باسفيل	Basseville
بال	Bâle
بافيا	Pavie
باكون	Bacon
بالاس فليتري	Pallas de Velletri
باولي	Paoli
بايل	Bayle
توماباين	Thomas Payne
بت	Pitt
برانجه	Béranger
بريكلس	Périclès
البريتون	Les Parthes
البرنات	Les Pyrénées
بريان	Brienne
برتون	Berton
البرفانس	La Provence
برليه	Berlier
البخنتا	La Bocchetta
برتلمي	Barthélemy
بروفيرا	Provera
بافاريا	Bavière
بادن	Bade
بتزيغيتون	Pizzighitone
بريسيا	Brescia
برغوفرتي	Borgo Forte

Venise	البندقية	Berthier	برتيه
Benzette	بنزيت	Brumaire	برومار
Bellecour	بلكور	La Brenta	البرنتا
Bender	بندر	L'Adriatique	بحرادريا
La Belgique	بلجيكا	Bergame	برغام
Panteba	بنتيبا	Brueix	برويكس
Le Panthéon	البنطيون	Les Bourguignons	البرغونيون
Boudet	بوده	Bernadotte	برنادوت
Boileau	بوالو	Birket	البركة
Bourbon	بوربون	Bernard	برنارد
Le Pô	البو	Le Bourbonnais	البربونه
Beaulieu	بوليو	Brunswick	برنسويك
Beaumont	بومون	Prairial	براريال
Boissy d'Anglas	بواسي دانغلا	Beurnonville	برنونفيل
Le Bosphore	البوسفور	Grande Bretagne	بريطانيا العظمى
Bonaparte	بونابرت	Junius Brutus	يونيوس بروتوس
Pontécoulant	بونتيكولان	Saint-Bernard	القديس برنردس
Boulogne	بولون	La Bormida	البرميدا
De Bourienne	دي بوريان	Brune	برون
Byron	بيرون	Burke	برك
Pichegru	بيشغرو	La Bastille	البستيل
Piemontais	البيامنتية	Peschiera	بسشيارا
Bicoque	بيكوك	Le Prytanée	البريطانه
Pigeon	بيجون	Balzac	بلزاق
Porto-Legnago	بورتوليناغو	Plutarque	بلوطرخوس
Bonifacio	بونيفاسيو	Palma-Nova	بلمانوفا
Bologne	بولونيه	Bellune	بلوني

Bon	بون	Pie ٦.	بيوس السادس
Péluse	بيلوز	La Piave	البياقي
Bureau de Puzy	بورو دي بوزي	Bottot	بوطو
Pise	بيزه	Polybe	بوليبس
Bigonet	بيغونه	Pérée	بيره

— ت —

Le Tagliamento	التغلیامنتو	Talleyrand	تاليران
Toussaint Louverture	توسان لوفرتور	La Tamise	التاميز
Thucydide	توسيديد	Transpadane	الترانسبادانية
Les Tuileries	التويلري	Tarquin	تركينوس
Thiers	تيارس	Thermidor	ترميدور
Tite-Live	تيت ليف	Treilhard	تريلهار
Tésin	تيزين	Trente	ترنتي
Times	التيمس	La Toscane	تسكانيا

— ج —

Genève	جنيف	Gibraltar	جبل طارق
Joux	جو	Jersey	جرسي
Joubert	جوبير	Les Germains	الجرمانيون
Judenberg	جودنبورغ	Germinal	جرمينال
Géorgie	جورجيا	Les Jansénistes	الجنسينيست
Joséphine	جوزفين	Gênes	جنوى
Junot	جونو	Ginguené	جنغنه

— ح —

حنيبعل	Annibal

— د —

دارا	Darius
داغو	Dégo
دالفنزي	D'alvinzi
دامرفيل	Damerville
داويدتش	Davidowich
دزنتزانو	Dezenzano
الدراف	La Drave
دستان	Destaing
دستريم	Destrem
دلبرل	Delbrel
دنتراغ	D'Antraigues
دندولو	Dandolo
الدوق دنغان	Le Duc d'Enghien
دوار	Doire
دواي	Douai
دوبوي	Dupuis
دوتايل	Dutheil
دوروق	Duroc
دوغوميه	Dugommier
دومارتين	Dommartin
دوفيفيه	Duvivier
دومارون	Domairon
دومربيون	Dumerbion
دومولار	Dumolard
سان دومنك	Saint-Domingue
دونو	Daunou
درتوى	D'Artois
دوي كستلي	Due Castelli
ديجون	Digeon
ديجون	Dijon
دير كتوار	Directoire
ديزه	Desaix
ديكارت	Descartes
ديموقراطيه	Démocratie
دلتا	Delta

— ر —

راستادت	Rastadt
راسين	Racine
رامبون	Rampon
راي	Rey

الرحمانية	Rahmanieh
روار	Roër
روبسبيار	Robespierre
روبير	Robert
روسو	Rousseau
روسيا	Russie
روشمبو	Rochembeau
روفربلو	Roverbello
روفيريدو	Roveredo
رومانيه	Romagne
ريال	Réal
الريفانش	La Revanche
ريفل	Revel
ريفولي	Rivoli
ريكور	Ricord
الرين	Le Rhin
رين وموزل	Rhin-et-Moselle
رينال	Raynal
رينيه	Reynier
رينيو دي سان جان دانجلي	Regnault deSaint Jean d'Angély
روكروى	Rocroy
مار روكز	Saint-Roch

— ز —

زاخ	Zach
زايونشيك	Zayonschek
زهرة مديسيس	Vénus de Médicis

— س —

الساج	Le Sage
سامبر وموز	Sambre-et-Meuse
سان أوبان	Saint-Aubin
سان ريجان	Saint-Régent
سان كلود	Saint-Cloud
سان ماركو	Saint-Marco
ساليستي	Salicetti
ساورجيو	Saorgio
سبتمبريين	Septembriseurs
ستاجيريت	Stagyrite
ستورا	Stura
سدني سميث	Sidney-Smith
سرافالي	Serravalle
سردينيا	Sardaigne
سركا	Sarka
سروريه	Serrurier

سزوستريس	Sésostris
سزيا	Sésia
سكاربا	Scarpa
سكال	Skal
سكانلو	Scanello
سكروبس	Cécrops
سلفرينو	Solferino
سلكوفسكى	Sulkowvsky
سلما طوريس	Salmatoris
سمبلون	Simplon
السند	Sund
سوسي	Sucy
السويس	Suez
سويسرا	La Suisse
السيارا	Siera
سياس	Sieyès
سان سير	Saint-Cyr
سيفا	Ceva
سيمرنغ	Simmering
السين	La Seine

— ش —

شاريليان	Chabrillant
دي شاتوبريان	De Chateaubriand
شارل بونابرت	Charles Bonaparte
شارل الجريء	Charles le Téméraire
شارلمان	Charlemagne
شارلوت	Charlot
شبران	Chabran
شمبو	Champaux
شمبيونه	Championnet
الشوربجية	Schorbadgis
شبراخي	Ceracchi
شيرار	Schérer
شيراسك	Chérasque
شيشرون	Cicérone
شينيه	Chénier

— ص —

صالو	Salo
صقلية	Sicile
صلاح الدين	Saladin
صوفوكل	Sophocle

— ط —

الطاس	Le Tasse
طاسيت	Tacite
طالوت	Talot
طاتارو	Tanaro

طرامنس	Tramins
طرفيس	Tarvis
طرطون	Tortone
طرنسون دوكودراي	Tronçon Ducoudray
طرو	Turreau
طروغه	Truguet
طند	Ténde
طوبينو لبرون	Topino Lebrun
طوران	Turenne
طورس	Taurus
طورسينا	Mont-Sinaï
طوري دي غاروفالو	Torre di Garofalo
طورينو	Turin
طولنتينو	Tolentino
طولون	Toulon
طيبة	Thèbes
طيبودو	Thibaudeau
طيبو صايب	Tippo-Saïb
طيرول	Tyrol

— ع —

العريش	El-Arish
العثماني	L'Ottoman

— غ —

غارات	Garat
الغاردا	La Guarda
غافاردو	Gavardo
غافي	Gavi
غالو	Gallo
غاليا	La Gaule
الغاليون	Les Gaulois
غرادسكا	Gradisca
غرازيو	Grésieux
الغراق	Les Gracques
غرانفيل	Grenville
غردان	Gardanne
غسباران	Gasparin
غروبوى	Grosbois
غلاجنفرت	Glagenfurt
غنتوم	Gantheaume
غوطي	Goëthe
غوفرنالو	Governalo
غوهيه	Gohier
غويو	Guyeux
غيزو	Guizot
غيو	Guieux

— ف —

Voltaire	فلتير	La Favorite	الفافوريت
Floréal	فلوريال	Valence	فالنسة
Fontainebleau	فنتنبلو	Le valais	الفالة
Vendémiaire	فنديميار	Ferrare	فراري
Vendée	فنده	Franchet d'Espèrey	فرانشه دسبره
Vendôme	فندوم	La Fortune	الفرتون
Fontenoy	فنتينوي	Saint-Fargeau	سان فرجو
Vincennes	فنسن	Verdière	فرديار
Fénelon	فنلون	Pharsal	فرسال
Vaubois	فوبوى	Versailles	فرسايل
Fugières	فوجيار	Fructidor	فركتيدور
Fouché	فوشه	François de Neufchateau	فرنسوى دي نوشاتو
De Fontanes	دي فونتان		
Vial	فيال	Francfort	فرنكفورت
Le Véda	الفيدا	Franklin	فرنكلين
Ver	فير	Frontin	فرونتان
Virgile	فيرجيل	Victor	فكتور
Vérone	فيرونا	Fréjus	فريجوس
Villach	فيلاخ	Victor Hugo	فكتور هوغو
Vienne	فينا	Fox	فكس
De Vigny	دي فينيه	Volta	فلتا
Fiorella	فيورلا	Feltre	فلتري
		Les Voltairiens	الفلتاريون

— ق —

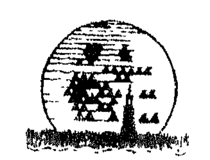
Cyrus	قورش	Chypre	قبرس
Cosaque	قوزاقية	Carthsge	قرطاجة
Cesar	قيصر	Caucase	القوقاس

— ك —

كاترين Catherine
كادوري Cadore
كارتو Cartaux
كارنو Carnot
كارير Carrère
كاسيوس Cassius
كافارلي دوفلجا Cafarelli Dufalga
كاليدونيا Calédonie
كاموس Camus
كربون Carbon
كرفيزار Corvisart
كرمول Cromwell
كروازيه Croisier
كرنتي Carinthie
كريت Candie
كريمونا Crémone
كستل شريولو Castel-Ceriolo
كستليونه Castiglione
كلارك Clarke
كلدرو Caldero
كلرمان Kellermann
كلنغان Klinglen
كليبر Kléber
كلوزن Clausen

كليشي Clichy
الكليشيون Les Clychiens
كلينو Klenau
كمباساريس Cambacérès
كمبيو فرميو Campo-Formio
كمبيانيه Compiègne
كنده Condé
بنيامين كنستان Benjamin Cons - tant
كنفنسيون Convention
دي كوبنتزل De Cobentzel
كورسيكا Corse
الكورونا La Corona
كورنايل Corneille
الكوريج Le Corrége
كوزنادوتش Quosnadowitch
كوفولو Covolo
دي كولومبيه Du Colombier
كونكوردا Concordat
كولي Colli
كوني Coni
الكويكرس Les Quakers
الكيازا La Chiesa
دي كيراليو De Kéralio

لابورت	Laporte
لاتور دوفرنيه	La Tour d'Auvergne
لاتور موبورغ	Latour-Maubourg
لا تيسيا راموليتو	Lœtilia Ramolino
لاري	Larrey
لاريفليار ليبو	Lareveillère-Lépauz
لاسار	La Sarre
دي لاس كاس	De Las Cases
لاسال	Lasalle
لاغرانج	Lagrange
لافاليت	Lavallette
لافايت	La Fayette
لافيس	Lavis
لامارتين	Lamartine
لامنه	Lamennais
لان	Lannes
لانوس	Lanusse
لافنتان	La Fontaine
بيله دي لالوزير	Pelet de la Lozère
لاهارب	Laharpe
لبرون	Lebrun
لبلتيه	Lepelletier
اللكسمبور	Luxembourg
اللوار	La Loire
الليسه	Lycée
الليغاسيون	Les Légations
لمبارديا	Lombardie
لنغله	Lenglet
لمبرخت	Lambrechts
لنجوينه	Lanjuinais
لنوارلاروش	Lenoir-Loroche
اللوفر	Le Louvre
لمبدوز	Lampedouze
دي لغويل	De L'Aiguille
اللويزيانا	La Louisiane
لندرة	Londres
لوزينيان	Lusignan
لوريان	Lorient
لوكريس	Lucrèce
لوسيان	Lucien
لونادو	Lonado
لكلارك	Leclerc
لونافيل	Lunéville
لوريستن	Lauriston
لويس بلان	Louis Blanc
لويس الرابع عشر	Louis XIV
لودي	Lodi
ليتورنور	Letourneur
لينياغو	Legnago
ليون	Lyon
ليغورية	Ligurienne
ليفورنو	Livourne
ليوبن	Léoben
ليففر	Lefèvre
لافير	La Fère



— م —

Arabic	French
ماتاي	Mattei
دي ماربوف	De Marbeuf
مارنغو	Marengo
ماريوس	Marius
ماسينا	Masséna
ما كنتش	Mackintosh
مالطة	Malte
المالميزون	La Malmaison
مانطو	Mantoue
المجر	La Hongrie
مجلس اشتراعي	Corps Législatif
مخا	Moka
مدريد	Madrid
مرتيني	Martigny
مرسيليا	Marseille
مرقس	Marc
مركاريو	Marcario
مراين	Merlin
مرمنتل	Marmontel
مرمون	Marmont
مسقط	Mascate
مسيدور	Messidor
المشتري	Jupiter
مقدونية	Macédoine
ملزي	Melzi
مليسيمه	Millésimo
ممف	Memphis
منتانا	Montagna
منتسكيو	Montesquieu
منتسكيو	Montesquiou
منتبلو	Montebello
دي منتاليفه	De Montalivet
منتيبالدو	Montebaldo
منتيزيموتو	Montezemoto
منتينوت	Montenotte
مندوفي	Mondovi
المنشيو	Le Mincio
المهديه	Maadieh
مورات	Murat
مورو	Moreau
الموز	La Meuse
مولان	Moulins
موليار	Molière
مونتانيه	Montaigne
المونيطور	Le Moniteur
الموه	La Muer
مورور	Muireur
مورون	Muiron
مونيه	Monnier
مون طونير	Mont-Tonnerre
ميرابو	Mirabeau
ميلاس	Mélas

دي ميستر	De Maistre
مينو	Menau
ميلانو	Milan
مينار	Ménard
ميكال انجلو	Michel-Ange

— ن —

نابولي	Naples
نابوليون	Napoléon
دي ناربون بيليز	De Narbonne Pelez
نانت	Nantes
نلسن	Nelson
النمسوي السرديني	Austro-Sarde
نوتردام	Notre-Dame
النمسا	L'Autriche
النورية	Noriques
نوفي	Novi
نيس	Nice
نيفرنه	Nivernais
نيفوز	Nivôse
نيوتن	Newton
القديس نيكاز	Saint-Nicaise
نيومارك	Meuwmark

— ه —

هاتري	Hatri
هارل	Harrel
هارلد	Harold
هانوفر	Hanovre
هردندي	Herdendy
هرقل	Hercule
هند مارك	Hundmark
هنري هيني	Henri Hoine
هوراس	Horace
هورتنس	Hortense
هوش	Hoche
هوغ	Hugues
هوميروس	Homère
هوهنلندن	Hohenlinden
جفروى سان هيلار	Geoffroy Saint-Hilaire
هيلدبرندس	Hildebrand

— و —

ورمسر	Wurmser	وشنطون	Washington

— ي —

يعقوبيون	Jacobins	اليوليانية	Juliennes
القديس يوليانس	Saint-Julien		



فهرست الجزء الاول

صفحة







